تأملات قرآنية

تأليف: د. عبد الجليل أميم

سلسلة
نحو مغرب عالِم عامل 7

عنوان الكتاب

تأملات قرآنية

المؤلف

الدكتور: عبد الجليل أميم

الطبعة الأولى

2023

الناشر:

مكتبة فضاء آدم للطباعة والنشر -مراكش

+212 674 81 20 30

رقم الإيداع القانوني:

2023MO0884

ردمك:

978-9920-752-51-0

الطبع:

مكتبة فضاء آدم للطباعة والنشر -مراكش- المغرب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

الإهداء

إلى كل مهتم بالحقيقة أيا كان مصدرها

الفهرس

الإهداء .....

الفهرس 1

تأملات في قصص القرآن الكريم (الانسان الأول، سيدنا موسى عليه السلام وفرعون) 7

التأمل القرآني الأول: في الآية 31 من سورة المائدة 8

التأمل القرآني الثاني: في الإله الآمر والإله المأمور.....10

التأمل القرآني الثالث: الجوانب السيكولوجية 13

والبيداغوجية لقصة موسى وفرعون.....13

التأمل القرآني الرابع: من المعتقدات إلى آليات عدم الخوف.....16

والتخويف والكذب والعدوان 16

التأمل القرآني الخامس: تفكيك الخوف 18

التأمل القرآني السادس: المستبد الفاسد يقلب 21

الموازين الأخلاقية والمنطقية.....21

التأمل القرآني السابع: من تدمير عقدة الخوف 23

إلى بناء النفس المواجهة 23

التأمل القرآني الثامن: القوة الموسوية بين خوف واقعي 26

وخوف مصطنع 26

تأملات في قصص 30

سيدنا موسى والنساء.....30

التأمل القرآني الأول: موسى بين أم بيولوجية وأم بالتبني 31

التأمل القرآني الثاني: موسى وحنان 34

الأخت واحتضان الأسرة.....34

التأمل القرآني الثالث: الذكاء العاطفي الموسوي 37
(نسبة إلى سيدنا موسى عليه السلام) 37
التأمل القرآني الرابع: لغة اللاشعور 41
والميثاق الموسوي الغليظ 41
تأملات في الحكمة 44
التأمل القرآني الأول: الحكمة الإلهية 45
التأمل القرآني الثاني: سورة الإسراء 1، سورة الحكمة 46
(حكمة رحابة الأفق الإنساني في التنزيل) 46
التأمل القرآني الثالث: سورة الإسراء 2، سورة الحكمة 49
(حكمة الفقر عدو) 49
التأمل القرآني الرابع: سورة الإسراء 3، حكمة الوسطية أمر عزيز، 52
وحكمة المال هرمون سعادة وتعاسة 52
تأملات في بر الوالدين 56
التأمل القرآني الثاني: الشعور بالذنب 60
(مراجعة النفس) 60
تأملات في الوجود 64
(الله سبحانه وتعالى) 64
التأمل القرآني الثاني: مع الله 69
التأمل القرآني الثالث: الله نور 72
التأمل القرآني الرابع: شروط الجدال في الله 78
التأمل القرآني الخامس: الله، الإنسان وإرادة الحرية 81
التأمل القرآني السادس: لغة الملكوت الأعلى مدهشة وشمولية 84
تأملات في شروط وخصائص 88

الدين والتدين 88
التأمل القرآني الثاني: الصالحون مؤمنون وعاملون 91
التأمل القرآني الثالث: الدين في مواجهة الغباء الإيماني 95
التأمل القرآني الرابع: الدين والعيش المشترك وخطر الخداع 99
تأملات في مقولة 102
"التي هي أحسن" 102
التأمل القرآني الأول: التي هي أحسن و أثرها النفسي 103
التأمل القرآني الثاني: التي هي أحسن 106
كفاية مركبة ومكتسبة 106
تأملات خصائص الانسان الكوني 110
من خلال تخوم سورة الفرقان 110
التأمل القرآني الأول: تخوم سورة الفرقان 1، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (خاصيتا التواضع والتسامي) 111
التأمل القرآني الثاني: تخوم سورة الفرقان 2، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا 113
(الجانب الخير من النفس الإنسانية) 113
التأمل القرآني الثالث: تخوم سورة الفرقان 3، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (التقرب الليلي من الله) 115
التأمل القرآني الرابع: تخوم سورة الفرقان 4، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (التقرب إلى الله بين السجود والقيام والقعود) 117
التأمل القرآني الخامس: تخوم سورة الفرقان 5، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (في الدين والتدين) 119
التأمل القرآني السادس: تخوم سورة الفرقان 6، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (في تدبير الإنفاق) 121

التأمل القرآني السابع: تخوم سورة الفرقان 7، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (المعترضين عن النبوة) 124

التأمل القرآني الثامن: تخوم سورة الفرقان 8، في الاستكبار والغطرسة 127

تأملات في آي الله 132

سبحانه وتعالى 132

(التعدد العقدي، الماء والنطق) 132

التأمل القرآني الأول: التعدد العقدي باعتباره فرصة لا تهديدا 133

التأمل القرآني الثاني: في آية من آيات القسم الرباني (في النطق) 136

التأمل القرآني الثالث: الماء آية الله 139

التأمل القرآني الرابع: من أي شجرة أكل آدم؟ 142

تأملات في إيمان المؤمنين 146

عباد الرحمان 146

(تأملات إيمانية) 146

التأمل القرآني الأول: واقعية الله ومثالية العبد (آية المداينة) 147

التأمل القرآني الثاني: الخشية الإيمانية للعلماء، والعتو للجاهلين 149

التأمل القرآني الثالث: في معاني البر 153

التأمل القرآني الرابع: حوار من المستقبل في العالم الآخر: 155

السخرية من المؤمنين 155

التأمل القرآني الخامس: حالة القشعريرة واللين اللتان تلازمان أهل الخشية 157

(أهل الإيمان) 157

التأمل القرآني السادس: عبد الرحمان بين الخطأ والتواب 160

تأملات في أفعال 164

وحالات بشرية 164

ومصطلحات قرآنية 164
التأمل القرآني الأول: عبد الرحمان يسعى للدراسة والبحث وليس للأساطير 165
التأمل القرآني الثاني: مصطلحات متلازمة في القرآن: 168
الاستكبار نموذجا 168
التأمل القرآني الثالث: التعامل بذكاء مع الزمن 171
التأمل القرآني الرابع: التعصب داء البشرية 175
التأمل القرآني الخامس: حالة الشقين أو بين الشك واليقين 180
فهرس الآيات والأحاديث 182
فهرس الآيات 182
فهرس الأحاديث 188

تأملات في قصص القرآن الكريم

﴿الإنسان الأول، سيدنا موسى عليه السلام وفرعون﴾

التأمل القرآني الأول: في الآية 31 من سورة المائدة

﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَابًا يَبْحَثُ فِي الْأَرْضِ لِيُرِيَهُ كَيْفَ يُوَارِي سَوْءَةَ أَخِيهِ قَالَ يَا وَيْلَتَا أَعَجَزْتُ أَنْ أَكُونَ مِثْلَ هَٰذَا الْغُرَابِ فَأُوَارِيَ سَوْءَةَ أَخِي فَأَصْبَحَ مِنَ النَّادِمِينَ﴾

الآية 31 من سورة المائدة

هل هذه الآية تخبرنا فقط كما هو في التفاسير عن أول جريمة قتل أم أنها تخبرنا عن خصائص الإنسان الأول؟

أعتقد والله أعلم أن الله أراد من خلال هذه الآية:

- أن يخبرنا بضعف منسوب المعرفة الذي كان عندنا في بدايات تاريخ الإنسانية، إنه منسوب جد هزيل حتى أننا كنا لا نعرف ماذا نصنع بموتانا، وعليه فتاريخ الإنسانية هو تاريخ تطور المعرفة الإنسانية، وسيرورة تخلصها من الجهل، فالإنسان الأول كان جد متواضع المعرفة إن لم يكن جاهلا لأبجديات العيش.

- أن يبين لنا أن الإنسان يمتلك خاصية أساسية هي قدرته على التعلم من محيطه، وهذه الخاصية هي التي ستكون سبب تقدمه وتطوره، زد على ذلك لطيفة أخرى مفادها: أن الإنسان لا يجب أن يتكبر عن التعلم من أي مخلوق ولو كان غرابا.

- يوجه انتباهنا كذلك إلى نوع خاص من الطيور وهم الغربان، وتدفعنا لمراقبة سلوكها لأنها مصدر معرفة عملية بالفطرة في التعامل مع تحديات المحيط، وهي إشارة إلهية لضرورة دراسة سلوك الحيوانات لأنه غني بالمعارف التي سنحتاجها كبشر للتعامل مع محيطنا وهذا ما يعرف حاليا بـ Ethology.

- يخبرنا كذلك بخاصية نفسية أخرى تميز الإنسان، وهي الندم على إتيان الفعل السيء، أي امتلاك الإنسان لإطار معياري يحكم به على أفعاله، فضمير الإنسان الطبيعي حي.

- يخبرنا بجانب سيكولوجي آخر وهو كره الإنسان للإحساس بالعجز، وحبه الدائم للتغلب على عجزه، فالإحساس بالعجز يدمرنا، فقد أحس بن آدم بتدمير وهلاك داخلي جواني عميق عندما عجز عن مواراة جثة أخيه.

- تسلط هذه الآية الضوء كذلك على الجانب المظلم من شخصية الإنسان، وهو قدرته على إتيان أسوء الأعمال لبلوغ مآربه ولو كانت التخلص من بني جنسه، وهي حقيقة نفسية وأنثربولوجية جد مهمة.

- يوجهنا النص القرآني إلى لطيفة مفادها أن المعرفة الإنسانية تتنزل من عالم علوي عبر وسائل البحث ومواجهة المشكلات اليومية في كل جوانب الحياة، وباعتبارنا من أبناء آدم، فيوميا تصادفنا كثير من مثيرات التعلم مثل الغراب وغيره (الغراب في الآية مثير واحد فقط من بين ملايين بل بلايين المثيرات اليومية في الحياة) وتدفعنا لفهم فكرة أو تعميقها أو تجاوزها وإبداع الجديد...فكلنا نعيش موقف بن آدم وبطرق مختلفة وفي وضعيات متعددة لا متناهية وبمثيرات مختلفة حلت محل الغراب وكانت نورا لنا استنبطنا به معرفة، أو استقرأناها أو أبدعنا به ما لم يكن من قبل موجودا، أو مر علينا ولم نستفد منه لعدم قدرتنا على استثماره ولا استشكاله ولا التأمل فيه ولا تجريبه.

- يوجهنا القرآن الكريم لضرورة تبني مسلك الغراب في التعليم، بمعنى أن نعلم غيرنا ما تعلمناه وبطريقة عملية تطبيقية، فالغراب لم يعط دروسا نظرية لابن آدم، بل اتجه مباشرة إلى إنجاز مهمته بطريقة محترفة عملية وترك له حرية الفهم والاستنباط واستخراج القواعد. الغراب كان قدوة لبني البشر.

- مدار الآية كلها حول سؤالنا المركزي الذي ننادي به دائما وهو سؤال: **كيف وليس ماذا، فالآية منهجية شكلا ومضمونا وروحا. وعليه، فالأولوية للمنهج.**

توجيه عظيم:

من كانت له سوءات فليعمل على مواراتها ولا يفضح نفسه، ومن كان يعرف سوءات الآخرين فليسترها ويدفنها ولا يفضح الناس.

التأمل القر آني الثاني: في الإله الآمر والإله المأمور

"وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتَوْا عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰ أَصْنَامٍ لَهُمْ قَالُوا يَا مُوسَى اجْعَلْ لَنَا إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ آلِهَةٌ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ"

الآية 138 من سورة الأعراف

هل يتعلق الأمر في هذه الآية فقط بقصة موسى مع قومه أم أنها تتجاوز ذلك:

- تخبرنا هذه الآية عن أن الأقوام فوق هذه الأرض كانوا طرائق قددا، ففي فترة موسى صادف بنو إسرائيل قوما آخرين يعبدون الأصنام، والمفاجئ في النص القرآني أن سيدنا هارون وحتى موسى عليه السلام لم يتوجها إلى دعوة غير اليهود، رغم علمنا بأنهم مبعوثين لقومهم خاصة، لكن ألا يستدعي ذلك طرح السؤال التالي:

- أليس في هذا الأمر ممارسة لحرية الاعتقاد رغم وجود دين التوحيد مع موسى عليه السلام؟
- ألا يعني هذا أن الأنبياء وإن استنكروا عبادة الأصنام لكنهم لم يؤمروا بمحاربتها واقفون عند حدود مسؤولياتهم؟
- لماذا ذكر الله هؤلاء القوم بدون سب أو شتم، بل قال عز وجل قوم يعكفون على أصنام لهم؟
- لماذا سمح لهم بالتواجد في لحظة النبوة، وذكرهم في كتابه العزيز؟ ما الغاية والمغزى والإشارات التي يمكن استنباطها من قدر الله هذا؟

رغم حكم موسى في بقية الآية على فعل القوم بأنه باطل بقي في دعوته وفيا لقومه لأنه مأمور بدعوتهم هم لا غيرهم.

- ألا تعني الآية أن الإنسان يميل إلى الإيمان بالمجسد الظاهر ويشك في المختفي غير البين؟

- هل يتعلق الأمر بجحود غريزي أو جحود متعلم عند بني إسرائيل الذين جاوزوا البحر بمعجزة وسرعان ما نسوا معجزة كبرى وارتموا في عبادة الأصنام؟
- ماذا يعني أنكم قوم تجهلون؟
- ألا تعتقدون أنه لا يوجد شيء أكثر فظاعة من الجهل النشط، والذي سيظهر فيما بعد مع السامري؟

الجهل النشط أو الجاهل النشط قد يقلب موازين الأنبياء لولا معية الله، فما بلك بالجهل في أيامنا هذه التي يمكن له أن يقلب كل شيء. ألا يعني هذا أن الجاهل جريء ويتصف بالشجاعة وبالمقابل فالعالم يخاف دائما وأبدا لأنه يقلب أمور فعله تقليبا ويدقق فيها تدقيقا حتى لا يكاد يتحرك إلا بعد حين وحين أو فوات أوان؟ والجهل كان في الماضي وباق حتى اليوم إلى درجة أنني أعتقد أنه هو القوة التي يصعب قهرها بسهولة فوق الأرض. ألم تُعجز النبيئين وجعلتهم يتوجهون لطلب المساعدة من الحي الذي لا يموت؟

- ألا تقول لنا الآية أن تسليم الناس أي ناس بصحة أي شيء كيفما كان يجعلهم يخلصون في العمل له ومعه ما دام لا يعطي أوامر ولا نواهي ويفعلون فيه ما يشاؤون مثل أصنام القوم؟
- ألا يعني هذا أن الإنسان يحب أن يعبد إلها مستقلا عن الوجود، مشغولا بنفسه عمن سواه، أنانيا لا يهمه غير نفسه؟ أو إلها شكليا يجلس الناس مكانه فيحكمون باسمه ويفعلون ما يشاؤون وهو في حكم الميت؟ ألا يعني هذا أن الإنسان يريد أن يكون إلها ولو بالواسطة؟ أو يريد إلها يُؤمر ولا يَأمر؟
- ألا يعني هذا أن الناس يميلون إلى الشكل ويهابون العمق، ويعتقدون أنهم يعلمون أو بالأحرى يقنعون أنفسهم أنهم يعلمون، وتعملون، وهم حقيقة ليس لهم لا في هذا ولا في ذاك، لأنهما مرتبطان بعمق دلالتهما وآثارهما؟ وإله التوحيد يستدعي العمق.
- ألا يعني أن تصرف بني إسرائيل هذا فيه عناد وبلادة، بل ألا يعني هذا أن الإنسان فيه بلادة على شكل دائرة لا تُعرف بدايتها ولا نهايتها ولو تابعت الدوران بها وفيها طول حياتك؟ بل ألا تحس في دواخل نفسك ومن خلال نظرك وأفعالك أن بك بلادة لا حدود لها، ومنها

عدم إدراكك لمواطن تبلدك؟ وفي قصة دوران بني إسرائيل مع الوحي ما يحيل على هذه الخاصية الإنسانية.

- ألا يعني هذا أن الإنسان مولع بالتقليد خائف دائما من التميز والتفرد؟ فبنو إسرائيل يريدون إلها **كما لغيرهم** آلهة؟ أوليس هذا حالنا مع أمور سياسية واقتصادية واجتماعية؟ نريد أن نكون مثل فلان وعلان ولنا ما لفلان وعلان؟ ألا يحيل هذا الموقف على لطيفة مفادها أن هناك من يبدع فكرة ولو كانت رديئة وهناك كثير من الحمقى الذين يعملون على معانقتها، بل ونشرها والدفاع عنها حتى الموت؟

التأمل القرآني الثالث: الجوانب السيكولوجية والبيداغوجية لقصة موسى وفرعون

تعتبر قصة موسى وفرعون من أهم الأحداث الحقيقية والقوية تاريخيا، ولقد فصل فيها الله عز وجل في القرآن في مواطن كثيرة حتى أنها تكاد تكون أكثر ما تم بسطه وبطرق مختلفة وفي مناسبات وسياقات متباينة، لكل سياق خصوصياته وعناصره. وسأحاول في هذه التأملات ملامسة هذه القصة من جانب سيكولوجي وبيداغوجي.

قال عزوجل:

"وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ ﴿23﴾ إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَقَارُونَ فَقَالُوا سَاحِرٌ كَذَّابٌ ﴿24﴾ فَلَمَّا جَاءَهُمْ بِالْحَقِّ مِنْ عِنْدِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ وَاسْتَحْيُوا نِسَاءَهُمْ وَمَا كَيْدُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ ﴿25﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ ﴿26﴾ وَقَالَ مُوسَىٰ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ ﴿27﴾

سورة غافر (23-27)

المُرسل هو الله عز وجل، والرسول هو موسى عليه السلام، والرسالة هي آيات وسلطان، وطبيعته هي كونه مبين أي يحترم ضوابط المحاججة العقلية ويزيد بتوفره على الإعجاز الإلهي، فالبيان بيان لغوي وحجاجي منطقي، والمرسل إليه هو ثلاثي خاص يتكون من: فرعون وهامان وقارون، وهؤلاء يمثلون **بنيتين قاهرتين هما السياسة والاقتصاد أو لنقل السلطة والمال**. لكن فرعون هو صاحب القول الأول والأخير في كل شيء. والسبب في هبوط الرسالة هو اضطهاد الفقراء في كل شيء، بل واستعبادهم.

لننظر الآن كيف تفكر هذه الشخصيات الثلاثة والتي اشتركت ولو بشكل متفاوت نسبيا في خصائص متعددة أهمها: الاستبداد.

أعتقد أن تفكيك شخصية هؤلاء سيكولوجيا يمكن أن نطور من خلاله شبكة تحليلية لسلوكات المستبدين عبر التاريخ سواء تعلق السلوك الاستبدادي بالسياق السياسي أو الاجتماعي أو الاقتصادي، فالمستبد أينما حل حمل معه خصائصه النفسية وألبسها مجال نشاطه، فلننظر في أهمها:

بداية أود أن أشير إلى أن ثيودور (أدورنو) كان واحداً من أكثر الشخصيات تمثيلاً لهذه الحركة العلمية والنفسية والفلسفية. اعتمد على نظريات إريك فروم لتحليل الحركات المعادية للديمقراطية في ذلك الوقت. في دراساته، تم تحديد الشخصية الاستبدادية بوضوح وترسيمها في إطار التحليل النفسي والاجتماعي، وحسبه فالسلطويون والرغبات في السلطة وممارسة الاستبداد، سواء على المستوى السياسي أو في بيوتهم داخل أسرهم كانوا دائما موجودين وسيظلون موجودين. ويعتبر التسلط إعاقة تؤثر بشكل مباشر على من يسوسهم المستبد، وغالبا هم الفقراء والضعفاء الذين يجدون أنفسهم أمام قوة لا ضوابط تضبطها وعلهم تحمل رعوناتها.

لكن لن نبدأ مما بدأ به (أدورنو) بل ننطلق من فهم ما يلي:

نظام المعتقدات والقناعات عند الثلاثي المستبد:

باستطلاع كثير من الآيات (ليس المجال هنا لذكرها ونكتفي فقط بالآيات أعلاه) في القرآن الكريم.

أعتقد أن نظام القناعات الذي يؤثث جوانية المستبد يتشكل من هرم من القيم والعادات والمثل العليا ذات الطبيعة المتطرفة، أي لا تعرف إلا لونين لا ثالث لهما، إما جيد أو سيء، أو معي أو ضدي، أو قوي وضعيف، أو سيد وعبد، أو فقير وغني، أو منتصر ومنهزم...ثنائيات لا تعرف الوسط أبدا، أي أنها تقع لزوما في أحد الطرفين النقيضين يمينا أو شمالا، وفي سيكولوجيا التطرف يميل المتطرف في تعامله إلى الغلظة و الخشونة في التعاطي مع المخالف أيا كان مجال فعله أو نشاطه، لا يستحيي أن يؤذي مخالفه ماديا و معنويا، بل ويعمل في مراحل معينة من التطرف إلى محاكمة من يخالفه، فيهاجمه، يسبه، بل يسجنه إن كان متمكنا من السلطة، و إذا لم ينته عن معارضته لا يبالي المتطرف أين و متى يقتله –إن ماديا أو معنويا- بل قد يصل في مراحل تطور سيكولوجية التطرف إلى أن يقول للناس : أنا ربكم الأعلى، فسبحوا بحمدي،

واتبعوا أفكاري، وكونوا تبعا لي، أدخلكم جنتي، وأجنبكم عذابي، المتطرف قصة إنسان مضطرب نفسيا تأله وتربب، لكنه عند نفسه حامل مشروع نجاة لوطنه والمواطنين بل ربما للإنسانية. وعليه، فالمتطرف مستبد والمستبد متطرف، إذ لا يعدو أن يكون الاستبداد إلا إنزالا عمليا للقناعات المتطرفة، ولو قرأتم قصة موسى في مختلف السور لما اختلفتم حول كون الخصائص التالية ملازمة لهذا المستبد الذي خلده التاريخ، وأعادت الديانات قصته بصيغ علوية ذات دلالات عميقة: التعصب- الغلو، الإفراط وهي سلوكات تتناقض جملة وتفصيلا مع سبل التسامح وتدمر أي تدبير يتلبس بالعدل ولو جزئيا، إذ تقف في الطرف الآخر بعيدا عن الوسط و الاعتدال، تعادي الآخر و لا تعترف به، وتصادر أفكاره وأفعاله، كما أنها تتميز بالجمود على فكرة أو منهج لا يسمح بالانفتاح على الآخر، بل وتنطلق من مسلمة تؤمن بها أيما إيمان وهي الاعتقاد بامتلاك الحق المطلق، وتسعى دائما وأبدا لتأليه الفهم الذاتي، وتبخيس ما عند الآخرين. وعلى رأي طه عبد الرحمان لا شيء يضاد الحجة مثل القوة، فحيث لا يوجد البرهان لا يمكن أن يوجد إلا السلطان، وحيث لا يوجد الحوار لا يمكن أن يوجد إلا الحصار. ولو ربطنا بنية طريقة تفكير وبناء قناعات المستبد بالجانب النفسي أكثر لحق لنا أن نقول أن المعتقد العميق في نفسية الثلاثي تشكل وفق منطق الكل أو لا شيء، وهذا منطق يلغي الآخر وحقوقه، ويلغي إمكانية التفاعل مع غيره، ويلغي احتمال مجانبته للصواب، ويلغي الذات نفسها كذات عاقلة. وهو طريق سهل وموصل للتعاسة في أي مجال، وفي أي مكان وفي أي زمن. وهذه الطريقة في التفكير تصنف في العلاج المعرفي السلوكي بكونها طريقة لا عقلانية لا تكيفية، ويحتاج صاحبها للمصاحبة السيكولوجية.

التأمل القرآني الرابع: من المعتقدات إلى آليات عدم الخوف والتخويف والكذب والعدوان

تناولت في التأمل السابق المدخل الأول لفهم نفسية المستبد بالسلطة أو المال أو نفسية أي مستبد يسوس مؤسسة ما في أي مجال سواء كانت مؤسسة صغيرة أو كبيرة. وقلت إن هذه النفسية تفكر بمنطق أسود أو أبيض، وأن نظام قناعاتها تشكلت بنيته تشكلا متطرفا، وكان النموذج الذي انطقت منه هو الثلاثي الخطير: فرعون وهامان وقارون، وسأستمر في الحفر في خصائص هذه الشخصيات وخصوصا فرعون باعتباره رمز التطرف والفساد.

إن البناء العقدي لفرعون الذي ينشئ أفعاله، ويتحكم بشكل كبير في هيكلة المخطط أو الخطاطات العقلية الفرعونية والتي تتحول إلى سلوكات أنتج عنده وعند مساعديه أفعالا تمييزية وهجومية يكون فيها معيار الحكم هو هوى المستبد المبني على معتقد ساقط أخلاقيا، وممارسات محملة بتحيزات خطيرة لرفض واحتقار ما هو **"مختلف"** لا يتوافق مع هذه المخططات الضيقة الأفق غير القابلة للآخر.

إن شخصية فرعون ومن معه من النوع الذي يمارس السلطة **من خلال تنمية منسوب الخوف في النفوس**، كما في قول الله تعالى: " فَمَا آمَنَ لِمُوسَىٰ إِلَّا ذُرِّيَّةٌ مِّن قَوْمِهِ عَلَىٰ خَوْفٍ مِّن فِرْعَوْنَ وَمَلَئِهِمْ أَن يَفْتِنَهُمْ وَإِنَّ فِرْعَوْنَ لَعَالٍ فِي الْأَرْضِ وَإِنَّهُ لَمِنَ الْمُسْرِفِينَ" **(الآية 83 من سورة يونس)**. حيث يستخدم التهديدات وربطها بما ينتج عنها من الكوارث بغرض تغذية الخوف في نفوس الناس وبالتالي السيطرة عليهم.

إن سيكولوجية المستبد خصوصا الموافق للنموذج الفرعوني تميل بالإضافة إلى استثمار آلية الخوف إلى **الإعلاء من شأن الذات و إنجازاتها وتبخيس إنجازات الآخرين** ولو كان هذا الآخر الله جل جلاله، ولا تتعجبوا فإنكم ستجدون في الحياة اليومية من تأله واعتبر نفسه فوق الإله، قال عز وجل عن فرعون وهو يقارن نفسه بنبي مبعوث بالمعجزات: "أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ." **(الآية 52 من سورة الزخرف)**.

إن إيمانه بنفسه عميق حتى وصل درجة الاختلال العقلي، فتراه يرى ولا يبصر، ويسمع ولا يعي، وأتصور بالتأكيد أنه كان ساحرا في اللباس، ومهيبا في الجلسة أمام الناس، ومتمركزا بل مؤمنا بنفسه إيمانا لا إيمان بعده حتى أنه لا يُقدر أية ذات إلا ذاته، ويتأله ويعلم أنه ليس إلها لكنه يكذب ويكذب ويكذب حتى صدق نفسه وصدقه غيره خوفا وطمعا.

إن **النموذج الفرعوني عدو اني** كذلك، وليس رحيماً، ولا يريد إلا تلبية وإشباع نزواته الخاصة، ولديه أيضاً تسامح منخفض جداً إزاء الإحباط، فلا يقبل الهزيمة أو التراجع ولو ضحى بمجموع من حوله. ونتيجة لذلك، فهو غير قادر على رؤية احتياجات الآخرين، بل وغالبا ما يعارضها. ولا تستغربوا أن يكون من خصائص العدوانيين المستبدين عدم الخوف على الآخرين.

فعمق اضطراباتهم النفسية جعلهم يتلذذون بالوضعيات الصعبة وركوب التحدي الخاسر يقينا عند الناس لا عندهم مع انعدام الإحساس بالشفقة تجاه الآخرين، وعليه، فسلوكهم الاجتماعي معتل، وفيه رفض واضح وتجاهل كبير ومعيب لكل المعايير والقواعد والالتزامات الاجتماعية المتعارف عليها. أنظروا إلى هذه الشخصية كيف يصفها ربنا عز وجل:

- اذهب الى فرعون **إنه طغى**؛
- فتولى فرعون **فجمع كيده** ثم أتى؛
- **وأضل فرعون قومه** وما هدى؛
- إلى فرعون وملئه **فاستكبروا وكانوا قوما عالين**؛
- **إن فرعون علا في الارض** وجعل **أهلها شيعا يستضعف** طائفة منهم **يذبح** أبناءهم و**يستحي** نساءهم إنه كان **من المفسدين.**

ولقد وجدت صفات متعددة أطلقها المولى عز وجل على هذا المخلوق الخطير، الذي يوجد أمثاله في السياسة والاقتصاد والمجتمع والتعليم والمساجد...ومنها: أنه ذباح، مغتصب، فاسد، مكذب وكذاب، قاتل، معذب، كافر، مستكبر، متعال، مجرم، باغ، طاغية، فاسق، مخطئ، مستهزئ، عاص...إنها حالة سيكولوجية اجتمع فيها الشر كله، لكن لا تتعجبوا إن وجدتم في مؤسساتنا أو صادفتم في حياتكم بعض من فيه خُمس أو عُشر، أو ربع أو نصف أو ثلاثة أرباع فرعون أو يفوق فرعون ولا يعرفه إلا من يكتوي بناره يوميا، وتصوروا معي لو وسَّع هذا المعتوه دائرة سلطته وأصبح له آل مثل آل فرعون من الطماعين والخوافين والجهلة، ترى ماذا سيحدث؟

التأمل القرآني الخامس: تفكيك الخوف

من تابع منكم الجانب المنهجي والمعرفي في شخصية فرعون فسيكتشف بدون بذل جهد كبير **أن هذه الشخصية ضعيفة جدا معرفيا ومنهجيا** لكنها رغم ذلك مهابة ومرعبة، وهذه خصائص الفاسدين الذين يخفون ضعفهم وراء سلطتهم المادية التي تؤطر كل حركاتهم وسكناتهم، فضعف قدرتهم على الحوار والانتقال مباشرة من الحجة إلى العنف لا يعني إلا شيئا واحدا، أن نفسيات هؤلاء فقيرة معرفيا، وقلقة منهجيا بشكل مرعب، إنهم يسبحون في بحر من السطحية الخالصة. وللوهلة الأولى، وفي أي حوار يبدأ المستبد بالتهديد، ويمر على التهديد، ويختم بالتهديد، "وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ" **(الآية 26 من سورة غافر)**، لأنه عند نفسه يستمد علوه من سلطة هجومية عنيفة وإن كانت غير مبنية على معرفة ولا تتسلح بأي منهج، بل لا تعرف إلا العنف والاستبداد، وما علينا سوى الاستماع إلى حججه لنكتشف أن وراءها عقلا بسيطا، عقلا فارغا حتى أنه يلجأ لغيره ليفكر له، ويستنجد بغيره ليقترح عليه البدائل، أما هو فواقف أمام الكل منتظرا لحظة إعطاء الأمر بالتقتيل أو بالاستعباد. وما أن يحاول المحاججة حتى تبدو عورته المعرفية بادية مفضوحة، "وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِّي صَرْحًا لَّعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَٰهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ" **(الآية 38 من سورة القصص)**. وغالباً ما يكفي أن تواجه المستبد بحجج معينة من أجل إبطال هذا النهج التبسيطي الذي يبني عليه سلوكاته فيتحول هو ومن معه إلى كائنات مفترسة، وهكذا ببساطة ينتقل فرعون من الحجة إلى الحصار واستعمال القوة والعدوان، إن فساد النفس يتجلى في فساد السلوك، وغالبا ما يورث العلو الاستبدادي الفساد والظلم أيا كان مجال هذا العلو ولو كنت مسؤولا فقط عن أسرتك أو نفر قليل من الناس يعتبرونك أعلى، كما أن الاستبداد صنو الفساد، زد على ذلك أن الفساد ليس متدينا ولا علمانيا ولا لا دينيا: إنه رذائل أخلاقية عانقت النفوس فجعلتها لا تأتي من الأعمال إلا ما هو فاسد وتراه صالحا، فمعايير التقويم عندها قد خالطها الفساد وقلبها رأسا على عقب، وعليه لا سداد بوجود الفساد، ولو كنا متدينين أو علمانين أو مسيحيين أو حتى ملحدين، الفساد مثل الإرهاب لا عقيدة لأهله. وشعار أهله: الفساد صلاح وهم صادقون مع أنفسهم، ويعرفون ذلك. ويعتبر فرعون مثالا لمن لا يعرف أي مثال. وتبعا لكل

ذلك، ينبغي لنا أن نتعلم اكتشاف الشخصية الاستبدادية ليس فقط لمقاومتها، ولكن أيضا لتجنب الانضمام إليها وتوسيع سلطتها التي لا معنى لها، والتي يمكن أن تعرض للخطر أنبل قيم مجتمعنا وقد تكون هذه الشخصية متخفية في لباس رجل السياسة أو الاقتصاد أو العلم...، لكن كيف علينا مواجهتها؟

إن الاستراتيجية الربانية ذات البعد السيكولوجي التي زود الله بها موسى هي ذات بعد جواني عميق، وتتوافق بالتمام والكمال مع منهج فرعون الاستبدادي، فغاية سعي فرعون أن **يخاف** موسى عليه السلام، وإذا تسرب الخوف إليه انهزم سيكولوجيا، لكن الله بدأ بتفكيك الخوف من نفسية موسى أول الأمر مع قتله للنفس وتطويره للخوف والندم: "فَأَصْبَحَ فِي الْمَدِينَةِ خَائِفًا يَتَرَقَّبُ فَإِذَا الَّذِي اسْتَنْصَرَهُ بِالْأَمْسِ يَسْتَصْرِخُهُ قَالَ لَهُ مُوسَىٰ إِنَّكَ لَغَوِيٌّ مُبِينٌ" **(الآية 18 من سورة القصص)**. ثم مع قصة عصاه التي تتحول إلى حية: "قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَىٰ" (الآية 21 من سورة طه)،"وَأَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ لَا تَخَفْ إِنِّي لَا يَخَافُ لَدَيَّ الْمُرْسَلُونَ" **(الآية 10 من سورة النمل)**، هنا يأتي التوجيه الإلهي محذرا من ضعف نفسي لا يليق بمقام النبوة، وعليه، طور موسى ثقة كبيرة في نفسه بتوجيه رباني، وعندما أمره الله بمواجهة المستبد فرعون، استحضر موسى الخوف مرة ثانية وقال: "قَالَا رَبَّنَا إِنَّنَا نَخَافُ أَن يَفْرُطَ عَلَيْنَا أَوْ أَن يَطْغَىٰ ﴿45﴾ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴿46﴾ " **(الآية 45-46 من سورة طه)**. وأكيد أن منسوب الثقة ارتفع وأصبح الأداء السيكولوجي الموسوي جاهزا لمواجهة تخويف فرعون بثقة مطلقة في النفس مبنية على معية الله. إن آلية الخوف تنكسر أمام تطوير الإنسان لمنسوب الثقة في نفسه من مصدر ملهم لها. وبناء على ذلك، يمكن تدمير اضطرابات الخوف لمواجهة المستبدين أيا كانوا وهذه هي أولى الخطوات.

إن الإضرابات النفسية أيا كانت لها وصل بالظروف الاجتماعية والكفايات الذاتية، وعليه فكل أشكال الهشاشة النفسية، أسست لها هشاشة الواقع من جهة، وضعف مصادر الإمداد المعنوية دينية كانت أو فلسفية أو واقعية من جهة ثانية. ولما قال موسى عليه السلام: إننا نخاف أن يفرط علينا أو يطغى. فهذا يكفي دليلا على أن نبيا من أولي العزم لامسه شيء من فوبيا فرعون.

إن الأنبياء تخاف من الطغيان والظلم وتبعاتهما، لذلك حرم الله الظلم على نفسه وجعله بيننا محرما لما له من تبعات على استقرار الأنفس والمجتمعات. والخوف أنواع: ومنه الخوف من الجوع، الخوف من البطالة، الخوف من السجن، الخوف من المرض، الخوف من الفقر... ألا لعنة الله على كل من سبب ويسبب فوبيا لأي أحد من الناس. وختاما يمكن أن نقول إن منسوب الخوف لا ينخفض عند أي أحد منا إلا بارتفاع وجودة الخلفية العقدية والفكرية والواقعية الرافعة لمنسوب الثقة في النفس والتي نعانقها من جهة، ومدى عمق اختراقها لذواتنا من جهة ثانية. وأول مراتب الانتصار على الظلم تكسير الخوف.

التأمل القرآني السادس: المستبد الفاسد يقلب الموازين الأخلاقية والمنطقية

"وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَنْ يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ"

الآية 26 من سورة غافر

من غرائب نفوس المستبدين الظلمة خصوصا الثلاثي فرعون وهامان وقارون وبالأخص فرعون أن يسعى لا فقط للسيطرة المادية على الناس واستعبادهم، بل يذهب أبعد من ذلك إلى محاولة قلب الموازين والقواعد المجتمعية ذات التاريخ الغابر في الأرض لتتماشى مع هواه، فالاستعباد حرية، والطاعة المطلقة حرية رأي واعتراض، والضعف قوة، والباطل حق، والهوى منطق، والإنسان إله، والفقر غنى، والقبيح جميل...إن كل ما بنته الإنسانية من أحكام أخلاقية مطلقة عبر أنبيائها ومفكريها وفلاسفتها ومصلحيها، واتفقت حول صلاحه الحضارات والثقافات المختلفة وإن اختلفت في جزئياته كالصدق والأمانة والعدل والأمن والحق والباطل... إن هذا النظام النسقي يريد فرعون قلبه بالتمام والكمال، حيث يسمي كل أفعاله صلاحا، وينعت دعوة موسى فسادا تماما كما فعل قوم لوط مع نبيهم حيث اعتبروا الدعوة للصلاح أمرا منكرا.

إن مجمل ما عبر به فرعون عن شخصيته، بل وإن مظهره الجسدي، والطريقة التي يتكلم بها، والكلمات التي يختارها، ومجمل أنماط فكره، ومواقفه ومعتقداته، وقيمه وعواطفه وظفها لقلب موازين الحكم عند الناس، إن هذا المخلوق لم يكن ير الواقع بموضوعية، ولا يتحكم في عواطفه ووجدانياته ولا سلوكاته، وعليه، فإن بنية شخصيته غير مرنة أو غير مكيفة ولا واقعية بل مرضية ومتشهية. وهي من بين الشخيصات الأكثر اضطرابا في الطب النفسي والذي يمكن أن يحدثنا عنها بتوسع ودقة كبيرين القرآن الكريم. بل إنني أدعي أنه قد اجتمع فيها ما تفرق في غيرها من الشخصيات المعتوهة في التاريخ الإنساني. فقد كان سعيه للانقلاب على الموازين الأخلاقية لا حد له، بل وسعى لتطبيقه وتأتّى له ذلك في فترة من الزمن. ويصح أن نعتبر أن اختلال القيم

والأخلاق كان سمة من سمات الزمن الفرعوني وكذا زمن قوم لوط حتى أنه يصدق عليهم ما ينسب إلى الإمام أحمد رضي الله عنه من قوله إذا رأيتم شيئاً مستقيماً فتعجبوا.

ولا أستبعد أنه لو استمر زمن فرعون لوجدتم القواعد الفقهية والأصولية والمقاصدية مقلوبة، ولعمل أهل الفساد إلى التأصيل لها من كل قول أو فعل أو تقرير لفاسدهم الأكبر، لكن سنة الله في الكون تجري على غير هوى هؤلاء، قال عز وجل: "وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ" **(الآية 107 من سورة الأنبياء).**

وهذه بعض قواعد المفسدين:

- الفساد يبرر الفساد؛
- الأصل بقاء الأمر الفاسد فاسدا كائنا ما كان؛
- الفاسد بالفعل ليس فاسدا بالقول؛
- كل مفسد مصلح وإن ثبت فساده؛
- الأصل في الأفعال السعي إلى الفساد والابتعاد عن الصلاح لأنه مضر؛
- كل أمر ظهر صلاحه وجب إفساده؛
- العلة من الوجود هي دوام الفساد؛
- الفساد صلاح؛
- وضع شرائع الفاسد إنما يكون لمصلحته ومصلحة من يدور في فلكه، ويكون ضد مصلحة كل معترض أو مخالف؛
- مصالح الفاسد فوق مصالح الناس، والناس متفاوتة في الأوامر الفاسدة حسب درجة القرب من الفاسد الأعظم؛
- المشرع ليس هو العقل ولا النقل ولا القانون ولا المجتمع: المشرع الأوحد هو الفاسد الأعظم.

إن فرعون كان من أوائل الساسة الذين أرادوا، بل سعوا إلى فصل السياسة عن الأخلاق، بل فصل الأخلاق عن الحياة.

التأمل القرآني السابع: من تدمير عقدة الخوف

إلى بناء النفس المواجهة

إن تفكيك الخوف وتدميره في نفس موسى عليه السلام بآليات إلهية داعمة للجانب القوي من نفس موسى ومضعفة للجانب الضعيف فيها، كان بغاية الصعود السيكولوجي بموسى عليه السلام من حالة الإنسان العادي إلى حالة الإنسان النبي.

إن هذه الاستراتيجية التأطيرية الإلهية أعتبرها شخصيا مسلكا سيكولوجيا لمعالجة الرهاب الفرعوني الذي غطى الأنفس وسيطر عليها في زمانه حتى أصاب موسى عليه السلام وأخاه وهما نبيين كريمين. إن العلاج الرباني كان هدفه خلق سلوكات جديدة لدى موسى تجاه فرعون بطريقة تحفيزية متدرجة مفيدة استعدادا للمواجهة، بل واستعدادا لتحدي المستبد. فمضمون الرسائل الإلهية الموجهة لموسى عليه السلام كان تحفيزيا ومشجعا بشكل قوي: "قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي فَخُذْ مَا آتَيْتُكَ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ" **(الآية 144 من سورة الأعراف)**، فلقد ركز المولى عز وجل بطريقة مباشرة لموسى على خصوصيات رسالته، إنها **خصوصيات الاصطفاء والرسالة والكلام**، وكلها أدوات تميز وتفرد موسوي اختص الله به موسى دون غيره، وعلى موسى أن يعي خصوصية ورفعة ه\ه المكانة العلوية، وأن يستمد منها عناصر القوة النفسية.

لكن الهدف الرباني لم يكن تبليغ موسى بما يعرف وهو أن الله اصطفاه، بل الأمر أعمق من ذلك بكثير.

إن المولى عز وجل هاجم من خلال كلامه ذاك منظومة الأفكار التي تؤطر موسى، إنها أفكار حول فرعون، وقوته وجبروته واستثنائيته، بل وألوهيته، إن هذه الأفكار عليها أن تنسحب لتحل محلها أفكار أكثر قوة ومعقولية وصحة ومفيدة للناس، وتقديرا لذات موسى على ذات فرعون وعلو الله عليه. إن منطوق الآية يقول لموسى **أنت الافضل والأقوى وكليم رب الناس بما فيهم فرعون**، إنها استراتيجية نفسية لتطوير الكفايات الموسوية جوانيا استعدادا لمواجهة الغير، وإمداده بمنهجية للتعرف بشكل مستقل على الأفكار غير المفيدة ومقاطعتها وتصحيحها وبالأخص

تدمير الافتراضات الكامنة وراءها من قوة وجبروت وتخويف وألوهية وأهمية واهمة كاذبة، حتى تعرج نفسية موسى عليه السلام إلى سماء إنتاج سلوكات أكثر قوة في مواجهة الظلم والاستبداد.

هنا أتساءل معكم: ماذا حدث في دواخل نفس موسى لما سمع هذا الكلام مباشرة من عند الله؟ **إنها يقينا ولادة شخصية جديدة تفارق القديمة في كل شيء**، شخصية ستتطور معرفيا وسلوكيا ووجدانيا واجتماعيا بطريقة غير مسبوقة. شخصية ستدمر كل أشكال الخوف الذي تشكلت بنيته من خلال التفاعلات الاجتماعية عبر سيرورة التنشئة الاجتماعية خصوصا وأنه نشأ في دار فرعون وخبر كل أشكال جبروته. وسينتج عنها سلوك جديد مليئ بالتحدي تجلى في قول موسى عليه السلام لفرعون: " **وَقَالَ مُوسَىٰٓ إِنِّي عُذْتُ بِرَبِّي وَرَبِّكُم مِّن كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لَّا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ ٱلْحِسَابِ" (الآية 27 من سورة غافر)**، فبعدما كان يخاف من فرعون في غيابه أصبح يصفه بالتكبر، بل أكثر من ذلك سيقول موسى لفرعون: "**قَالَ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنزَلَ هَٰٓؤُلَآءِ إِلَّا رَبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ بَصَآئِرَ وَإِنِّي لَأَظُنُّكَ يَٰفِرْعَوْنُ مَثْبُورًا" (الآية 102 من سورة الاسراء)**، هنا تحررت نفس موسى عليه السلام بالتمام والكمال من الخوف وأصبحت تواجه عنجهية وبطش واستبداد فرعون بقوة وبدون تردد، إذ وصفه بكونه مثبورا أي هالكا بانصرافه عن الحق، مغلوبا وملعونا، بل تحمل الآية كذلك دلالة الخفة العقلية أي أن فرعون وصفه موسى بكونه ناقص عقل. إنه تحول راديكالي من شخصية تخاف إلى أخرى تواجه، بل تهاجم الفساد وفي حضرته لا في غيابه. إن بناء الحلول الفعلية لوضعية الاستبداد الفرعوني سلك فيها الله عز وجل مسلكا نفسيا بدءا بتحرير نفس نبيه عليه السلام من الأفكار السلبية والقناعات المفزعة ووصولا إلى الثورة على المستبد ومواجهته، إنه تغير سيكولوجي نشط غير جامد له سيرورة ممتدة في الزمن والمكان بل وممتدة في دواخل الإنسان، إنه مسلك يبني أولا العالم الداخلي للإنسان ليتغير محيطه الخارجي، إنني لا أشك لحظة أن موسى ما قبل الوحي ليس هو موسى ما بعد الوحي، والتغير الجوهري الذي وقع لامس النفس لا الجسد بل لامس زمن ومكان رسالة موسى وشمل قومه فرادى وجماعات.

إن هذه الأحداث التاريخية الثابتة عند الشرق والغرب، وعند المسلمين والمسيحيين واليهود تحيل على لطيفة مفادها أن موضوع الدين -المطلق أو الله -يختلف عن كل الأشياء التي نواجهها في التجربة اليومية. ففي حين أن كل شيء محدود، ويتميز ببعض الخصائص المختلفة والمحدودة، فإن اللانهائي، بالمعنى الدقيق للكلمة، لا يمكن أن يكون له حد ولا حدود، إنه سبحانه

محيط بكل شيء حتى ميكانزمات اشتغال النفوس ومنهجيات تغييرها. ولهذا نعبد هذا الإله العالم المتقن الحكيم.

التأمل القرآني الثامن: القوة الموسوية بين خوف واقعي وخوف مصطنع

من قرأ قصة موسى متفرقة في القرآن سيقف على كثير من خصائص هذا النبي الكريم، خصائص تلامس كل أبعاد الشخصية الإنسانية، فصلها رب العزة في التنزيل ولم يكن موسى من أشرف على تدوينها، لقد ذكر حسب علمي موسى مقرونا بفرعون مباشرة مرة واحدة في كتاب الله في قوله عز وجل في سورة القصص "نَتْلُو عَلَيْكَ مِن نَّبَإِ مُوسَىٰ وَفِرْعَوْنَ بِالْحَقِّ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ" **(الآية 3 من سورة القصص)**، وجاء الترتيب الإلهي واضحا بأن جعل موسى سابقا في الذكر على فرعون، لكن في مجمل باقي الآيات جعل الله فرعون سابقا على هامان وقارون وجنودهم دائما وأبدا، الأول أعتبره سبق في المكانة، والثاني أعتقد أنه ترتيب في درجة الاستبداد. لكن كيف لموسى بهذه المكانة وهو الذي عانق الخوف بكل أشكاله، بل عانقته أمه قبله مباشرة بعد وضعه؟

كان موسى عليه السلام يرى الوجود والأشياء بواقعية لا بمثالية سواء قبل النبوة أو بعدها، فهو دائم التساؤل والاستفهام حتى أكاد أقول أن خوفه من أول يوم إلى آخره خوف مبرر بواقع حقيقي، خوف يخفي تساؤلات حول مصير ما بعد الحدث، لقد خاف أن يتم قتله لأنه قتل نفسا، وخشي الانتقام وهرب، خاف من فرعون لأنه عايش جبروته باعتبار أنه عاش وكبر في بيته، خاف من العصى لأنها انقلبت إلى حية وهو أمر خارج تصوره وتوقعه، خاف من الاقتراب منها أو الإمساك بها، خاف وهو في بيت شعيب فقال له لا تخف نجوت من القوم الظالمين، خاف من مواجهة السحرة فقال له ربه لا تخف إنك أنت الأعلى، خاف من لحاق فرعون ببني إسرائيل، وخاف في حضرة المولى عز وجل: "وَاخْتَارَ مُوسَىٰ قَوْمَهُ سَبْعِينَ رَجُلًا لِّمِيقَاتِنَا فَلَمَّا أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُم مِّن قَبْلُ وَإِيَّايَ أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا إِنْ هِيَ إِلَّا فِتْنَتُكَ تُضِلُّ بِهَا مَن تَشَاءُ وَتَهْدِي مَن تَشَاءُ أَنتَ وَلِيُّنَا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنتَ خَيْرُ الْغَافِرِينَ" **(الآية 155 من سورة الأعراف)** بل خاف من الخوف وهو يطلب رؤية الله بل سقط مغشيا عليه.

" وَلَمَّا جَاءَ مُوسَىٰ لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَٰكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا وَخَرَّ مُوسَىٰ صَعِقًا فَلَمَّا أَفَاقَ قَالَ سُبْحَانَكَ تُبْتُ إِلَيْكَ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُؤْمِنِينَ" (الآية 143 من سورة الأعراف)

أليس الخوف آلية بناء كما هو آلية تدمير؟

إن الخوف هو شعور أساسي يعبر عن نفسه باعتباره قلقا وإثارة غير سارة في المواقف التي يُنظر إليها على أنها تهديد. يمكن أن يحدث هذا بسبب التهديدات المتوقعة، مثل السلامة الجسدية كما هو الحال عند خوف موسى من الحية ومن القتل ومن فرعون، فالخوف هنا هو شعور قوي طبيعي جدًا ويعرفه جميع البشر، بل وتشاركنا فيه العديد من الأنواع الحيوانية. إنها تشعر بالخوف عندما تشعر بالتهديد، عندما تعتقد أن شيئًا سيئًا يمكن أن يحدث لها ويدمرها أو يؤذيها.

إن ما يحدث وحدث لموسى عليه السلام في كل هذه الحالات هو ارتفاع نسبة الأدرينالين في الدم، هذا الهرمون يعتبر من أهم أسلحة الإنسان التي لا يعرفها وتسكنه بل تسبح في دمه، حيث أنه أساسي لنا في صراع البقاء، ولا يتم إفرازه في الجسم إلا في حالات الطوارئ والأزمات من أجل أن يأتي الجسم بسلوكات توافق لحظة الخطر. موسى عليه السلام، ارتعد وخاف وهرب من الحية،" وَأَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ يَا مُوسَىٰ أَقْبِلْ وَلَا تَخَفْ إِنَّكَ مِنَ الْآمِنِينَ" (الآية 31 من سورة القصص).

بل إن خوفه تجاوز الحد حتى سقط مغشيا عليه عندما طلب رؤية الله، والذي وقع سيكولوجيا هو أن المنظر الذي عايشه هذا النبي الكريم كان فوق التصور المعتاد الذي يمكن أن تتحمله نفس إنسان، فبدأ الجسم يعطي ردود فعل أوتوماتيكية، وهذا قد يستمر لبضع دقائق أو أقل بكثير، وقد يضيق صدر موسى ويجد صعوبة في التنفس أو حتى فرط التنفس، ثم يصل إلى شعور بالإغماء الوشيك، ثم الإغماء مع ما يرتبط بذلك من ازدياد في تسارع نبضات القلب من شدة الخوف من الأمر الجلل الذي رآه وما رآه. وهل من عاش خوفا من هذا الحجم سيخفيه تخويف فرعون؟ إنه تدمير الخوف البشري بآلية الخوف الإلهي، إن الاختلاف بينهما يكمن في

مصدريهما، ونوعيهما، وقوتيهما، ومقاصدهما، بل لا نقارن ما لا يقارن أصلا، فسيرورة التخويف الأولى تتغيا استعباد البشر للبشر والتلبس بالألوهية، أما الثانية فتهدف إلى تحرير البشر من البشر وتساويهم جميعا أما قوة عليا لا قبل لهم بها، وهو تسليم اختياري أو اضطراري.

إن آيات الخوف الموسوي وغيرها من الآيات توحي لنا أن الخوف درجات، يبدأ من العادي إلى الذي يسبب فقدان الوعي، لذلك نرى أنها في مجملها دعوة للتفكر في النفس الإنسانية وما يلازمها من حالات واضطرابات لم يسلم منها حتى الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام. وكأني به عز وجل يقول لنا: ابحثوا في أنفسكم فإن بها وفيها عوالم سيكولوجية لا حصر لها.

ولقد كان موسى عليه السلام يتعامل مع خوفه ليس بالهروب، بل بالمواجهة والبحث عن الحلول، فخوفه الأول واجهه بالهجرة، وخوفه من الرذيلة واجهه بالدعاء والتحدث إلى بنات شعيب كخطوة راقية سنفصل فيها إن شاء الله لاحقا، وخوفه من فرعون وضحنا حيثياته سابقا. كما أن خوف موسى عليه السلام كان يرفع من خلاله منسوب الثقة في نفسه، وكان يأخذ وقته الكافي للمرور من تحد إلى تحد آخر، ولا ينتقل من محطة أخافته حتى يدفن خوفه منها إلى الأبد، إن هذه السيرورة من الاهتزازات السيكولوجية قوت الجانب الوجداني والنفسي على العموم لموسى عليه السلام، لإنه مشروع نبي قائد عليه أن يكون في مستوى الرسالة المنوطة به، ولن يكون كذلك إلا إذا كان باطنه جد قوي لينتج سلوكات أقوى في مجتمع متهالك في كل شيء، ويقوده مستبد لا خلاق له في كل شيء، لذلك فقوة شخصية موسى لها علاقة كبيرة بكيفية تدبيره لحالات خوفه في الحياة اليومية، بل إنني أدعي أن موسى عليه السلام كان يعرف نفسه بشكل جيد، ومستوعب لنقط قوتها وضعفها، ويتعامل مع نفسه باحترافية الذي يريد التغيير والتطور والوصول إلى المستوى الذي ينتظره الله منه، فلم تكن له عقدة وهو النبي أن يقول لربه عز وجل: "وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي إِنِّي أَخَافُ أَنْ يُكَذِّبُونِ" (الآية **34 من سورة القصص)**، إنها مرحلة عالية في توافق النفس مع ذاتها، وشعورها بالكمال في حضور الغير الذي يكملها، كما أن في الأمر دلالة على معرفة موسى لما ينتظره من قومه من تذبذبات وتراجعات ونكوص ناتج عن سنوات الاستعباد والترويض والتخويف الفرعوني حتى تشكلت نفوسهم تشكلا مركبا جمع بين الخوف والطمع والتذبذب والانقلاب والتمرد. نفس موسى نفس قواها الخوف وهذبها رب الخوف.

تأملات في قصص

سيدنا موسى والنساء

التأمل القرآني الأول: موسى بين أم بيولوجية وأم بالتبني

من عجائب نبي الله موسى أن سخر الله له نساء مناصرات لعبن دورا مهما في تطور حياة هذا النبي الكريم. ومن جميل كلام رب العالمين أن تكون أمه تحت عين الرحمن يلهمها من الأفكار ما تنجي به ابنها ونبيه عليه السلام، "وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ"(الآية 7 من سورة القصص).

ومن جميل الآية أنها تؤكد على حتمية القوانين الطبيعية فلا تلجأ للإعجاز الخارق لتخليص موسى من مذبحة فرعون التي طالت كل مولود ذكر، بل تعانق العلم جملة وتفصيلا، إذ كان على الأم المحبة الحنونة أن ترضع موسى لكي يشبع، وينام، كما كان عليها في نفس الوقت أن تلقيه في التابوت المصنوع من الخشب ليصل إلى الساحل سالما، ويأخذه ويربيه فرعون نفسه وهو لا يشعر، هنا بالضبط تظهر دلالة قوله عز وجل في سياقات مختلفة: "وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"(الآية 50من سورة النمل). إنه توظيف للقواعد العلمية لتحقيق أمر علوي، وسيتضح الأمر أكثر عندما سيصل موسى إلى الساحل ويصل خبره إلى فرعون، فتحبه زوجة عدوه المستقبلي وترغب في تبنيه، بل وتقول لفرعون قرة عين لي ولك لا تقتلوه، إن محبة زوجة فرعون لموسى هي من محبة الله له، فقد أخبرنا عز وجل بذلك بقوله: "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي"(الآية 39 من سورة طه). إن نفس امرأة فرعون نفس نظيفة كريمة محبة للخير وافقت نفس موسى النبي الكريم، فجمع الله بين أم تريد ابنا، وابنا يريد أما، وعدو مؤجل سيسعى لتدمير الجميع لكن بعد فوات الأوان.

من لطائف الآية "وَقَالَتِ امْرَأَتُ فِرْعَوْنَ قُرَّتُ عَيْنٍ لِي وَلَكَ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَلَدًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ"(الآية 9 من سورة القصص)،لقد خضع فرعون لرغبة زوجته وهو الذي يذبح الرجال ويستحيي النساء ويقتل الأطفال، فوافق على استثناء فيه هلاكه، يبدو جليا أن مكانة امرأة فرعون في دواخل نفس فرعون عالية بالتأكيد ولا يجادل فيها إلا مكابر، وبهذا تصبح زوجة فرعون المرأة الثانية في سلسلة النساء اللواتي ناصرن نبي الله وهو وهن لا

يشعرون. ويصدق على بيت فرعون حقيقة: كم من رجل سعيد في زواجه لكن لم تكن زوجته امرأة سعيدة بزواجها. ومدار الاختلاف بينهما يكون عميقا في شخصيتهما.

إن نزول فرعون عند رغبة زوجته إضافة إلى أنها إرادة الله، يرجع إلى حقيقة أن النساء غالبا ما يحملن عبئا أكبر في العلاقات بالمقارنة مع الرجال، فلها عليه أفضال، بل إن المعروف والثابت علميا أن النساء يَمِلْن إلى الاعتناء بشريكهن، وقد كان فرعون سعيدا بعلاقة لم تكن زوجته إطلاقا سعيدة بها، كما لا يبعد أن يكون فرعون معجبا ومغرما بزوجته لدرجة أنه نزل عند أمرها وهو الإله عند نفسه الذي لا يجب إلا أن يطاع. بالله عليكم، أية قوة وجدانية وعاطفية هذه التي تمتلكها زوجة فرعون وتوظفها في الوقت المناسب؟ ولا تتعجبوا فامرأة فرعون نفسها حالة خاصة ضرب الله بها مثلا للذين آمنوا رجالا ونساء، إنها ارتقت في مدارج الإيمان ارتقاء عاليا، كانت بداياته مع اختراق حب موسى شغاف قلبها، وحب موسى من حب الله، وبلغ أوجه بطلب بناء بيت لها في الجنة والنجاة من فرعون وعمله. وما أدراك ما عمل فرعون؟ إن الذي يربط بين الطاغية ومحبيه غالبا ما يكون نوع من الطمع، فالسلطة في الأنظمة المستبدة مثل نظام فرعون تقوم على طاقة وقدرة الديكتاتور في الإغواء، وليس فقط في الإكراه، وهو ما يفسر لنا كيف ترى الكثير من النساء في الحاكم القاتل رمز للغواية، ليس لأنه جميل المحيا، أو بهي الطلعة، بل لأنه يحقق لهن أحلامهن المريضة في القتل والقمع والتمتع والتسلط والتبذير وغيرها، لكن كانت هذه المؤمنة استثناء على غير عادة النساء، إنها كانت تشعر يقينا أن ضعفها كامرأة يتحول بقدرة قادر إلى قوة أمام فرعون عندما يتوجه إليها بالحديث. وكانت واعية بقدرته على الرفض لذلك زينت طلبها بسببين وجيهين هما: أنه طفل يمكن أن ينفعنا، بل أكثر من ذلك يمكن أن يكون ابنا لنا، زد على ذلك أنها غلفت خطابها بمسحة وجدانية جميلة خاطبت بها جوانية فرعون، إنه قرة عين لي ولك، أي أنها مسرورة جدا به ولا تطمح إلى ما سواه، يعني أنها أحبته، ويبدو أنه جد جميل يسر العين ويأسر القلب، ولا يمكن لفرعون إن كان يحبها ويعزها أن يحرمها مما تحب وتعز، لقد كانت امرأة فرعون متأكدة من تقلبات مزاج الطاغية، ذلك أن حياة الطغاة الخاصة تحمل بالتأكيد كثيرا من المفاجآت، وأهمها أنهم يخضعون بالتأكيد لرغبات من يحبون أو يرغبون فيه أو في خدماته كما أنهم في رمشة عين يمكن أن ينقلبوا عليه، لكنها غامرت وكلها ثقة في استجابته فكان لها ما أرادت، ولم يكن لفرعون ما أراد، وكان لأم موسى ما أرادت كذلك. لقد كان زواج هذه المؤمنة بفرعون تحد كبير لنفسيتها وإمكاناتها الذاتية، وعليه، نقول دائما بأن الزواج زواج الأفكار والقيم

والمعايير قبل أن يكون زواج الأجساد، لذلك نركز على ما يجمع من التصورات والمعتقدات، فكلما كانت متقاربة ساعدت على الاندماج السلس، وكلما تباعدت تنافرت السلوكات والأحكام والتأويلات وصعب بل ربما استحال الاندماج، وعليه، لا تختر أو تختاري أبدا للزواج من قيمه ومعاييره تناقض قيمك ومعاييرك ولو أعجبك، فهذا البعد من الشخصية هو الذي يحدد نجاحك وفشلك، وسعادتك وتعاستك.

لقد بدأت صناعة موسى بين أم بيولوجية حقيقية وأم بالتبني وعدو غدا لعبة في يد القدر. ويبدو أن هذا بعض ما جاء في قوله عز وجل: "**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**" **(من الآية 39 من سورة طه)**. وسيتعمق هذا أكثر عندما سيصبح ساكنا في قصر الجبار فرعون، ويستدخل في تنشئته كل أشكال الجبروت، ويعايش كل أنواع الظلم، ويصل إلى اليقين المطلق من أن سبيل فرعون سبيل المجرمين لأنه رأى الإجرام رأي العين فيما يعج به القصر من أشكال الفساد وهو الإفساد والاستبداد. إن ما يمكن استنتاجه من مجموع هذه النصوص المقدسة كبير وكبير جدا، فلا يوجد شيء لا يمكن التعرف عليه من حيث المبدأ، ومع ذلك لن يكون الإنسان قادرًا على إدراك كل شيء لأنني شخصيا أعتقد بوجود مساحة "ما وراء قدرتنا على المعرفة" وهي على الأرجح كبيرة بشكل لا يمكن تصوره، لاعتبارات علمية محضة، أهمها خاصية أو مسلمة التطور.

التأمل القرآني الثاني: موسى وحنان

الأخت واحتضان الأسرة

نعتقد يقينا أن كل أنواع الحب التي حبا الله بها موسى عليه السلام تابعة لحب الله له، ونازلة من الحب الإلهي الأعلى: قال عز وجل: "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِنِّي" **(من الآية 39 من سورة طه)**، كما أن تطور شخصية هذا النبي الكريم لعب الحب كما لعب الخوف دورا مهما في صناعتها "وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي" **(من الآية 39 من سورة طه)**، وجاءت الصناعة في الآية مرتبطة بالحب وملازمة له. فبعدما رأينا حب الأم، والذي قال رب العزة عن ألم فراقه "وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ"**(الآية 10 من سورة القصص)**. نمر إلى حب الأخت، وخدمتها لأخيها الأصغر منها سنا، ونشير بداية أن حبها نازل من مشكاة حب الله كذلك لكنه بطعم الأخوة، بل أكثر من ذلك بطعم حب الأخت الأكبر سنا، إن بينهما رابطة دموية لا تنفصم باعتبارهما شقيقين، لكن كذلك رابطة حب علوي المصدر لا يعرف تراجعا ولا نزولا. إن تأثير الإخوة والأخوات على الأقل هو نفس تأثير الآباء والأمهات أو هو أقرب. وبما أن الإخوة الأكبر سنًا يقلدون السلطة الأبوية ويستخدمونها تجاه الأصغر سنًا فإن أخت فرعون حرصت على أخيها وكأنها أمه الثانية، تراقبه من بعيد، وتتدخل في قصر فرعون لحظة بحثهم عن مرضعة لأخيها الذي هو عندهم ليس أخاها: قال المولى عز وجل: "وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ" **الآية 12 من سورة القصص)**. إن الأخوة رابطة أقوى حتى من الصداقة، بل إن الصداقة تنتهي وتتكسر بمجرد أن يتجاوز الصديق في كلامه حدوده ويسفه أختك وأخاك وأنت أعلم بهما منه لأن رابطتك بهما هي أطول رابطة على الإطلاق. والأمر يصبح أقوى عندما يتعلق الأمر بأختك، بالأنثى ولو كنت معها في علاقة جنونية. أعتقد أن الأخوات بالخصوص يلعبن دورا جد مهم في تطور شخصية إخوانهن الذكور على جميع المستويات معرفيا، ووجدانيا واجتماعيا وسلوكيا. إننا نشكل بعضنا البعض، وموسى عليه السلام لم يحرمه الله من حميمية الأم والأخت ولو كان عند فرعون، "وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَنْ جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ" **(الآية 11**

من سورة القصص). كما لا يجب أن ننسى أن الدعم الحميمي الأخوي سيتطور مع دخول هارون عليه السلام بطلب من موسى على خط النبوة ونصرته لأخيه في أحلك مراحل العمل النبوي.

إنه السهر الرباني على بناء الشخصية القوية المتوازنة في ظروف مستحيلة عند الناس ممكنة عند رب الناس: "**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**" **(من الآية 39 من سورة طه)**، ومعروف سيكولوجيا عند أهل التخصص أن الخصائص الاجتماعية مثل التعاطف ومهارات التواصل والقدرة على حل النزاعات وتنظيم أو التحكم في المشاعر تكون جد متطورة وبشكل خاص عند الأشخاص الذين لديهم أخت، إنه أيها الناس توفير المجال الطبيعي لتطوير كفايات النبوة بمراعاة سنن وقوانين الحياة الاجتماعية والنفسية. لكن كما أن هناك مراعاة القوانين يأبى الله إلا أن يكسرها لنستحضر الألوهية بمعناها المطلق ولا ننجر فقط وراء التفسير العلمي لكل شيء ونحن نتناول موضوعا علويا إيمانيا بالأساس، فقد قرر الله عز وجل ألا يرضع موسى من أية مرضعة إلا أمه مع العلم أنه أمر ممكن خصوصا إذا كان الرضيع جد جائع كما تؤيده التجارب العملية، والهدف كان هو تحقيق أمل أم موسى :" **إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكِ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ**" **(من الآية 7 من سورة القصص)**، إننا هنا نستدعي الإيمان كبعد إنساني واعتقاد علوي في الإنسان، ولا يمكن أن نستدعي أدوات العلم لعجزها عن التفسير وهي لا تريد إلا التفسير العلمي العقلي التجريبي، وبما أن العلم عملية اجتماعية استطرادية بحثية لا علاقة لها بالحقائق الخارقة زمانياً فإننا لا نُحَكِّمه فيما هو عاجز عنه، وننتقل بأنفسنا من مستوى العلم إلى مستوى الإيمان دون أن نلغي أي أحد منهما لتكاملهما في نظرنا، وقد يكونا متعارضين في نظر غيرنا، وبحكم إيماننا فإننا نعتقد في صحة الحقيقة الدينية اعتقادنا في صحة الحقيقة العلمية، إن الإيمان والعقل العلمي يتعايشان في دواخلنا لأن لهما نطاقات مختلفة.

إننا باستحضار أم موسى وأخته، وفيما بعد زوجته وأخاه يتضح لنا جليا أن الأسرة تمثل سياقًا تنمويًا مهمًا للفرد سواء تعلق الأمر بمرحلة الطفولة أو المراهقة، و أيضًا في المراحل اللاحقة من الحياة، وبالتالي لا يمكن فهم العمليات التطورية البنائية لأي شخص بشكل شامل إلا في قراءتها وتفكيكها في سياقها الاجتماعي والأسري، وهذه هي الآليات الاجتماعية والأبعاد النفسية التي تنبجس من هذه القصة الكريمة، ولم يجعل الله الأنبياء استثناء في هذا الأمر، بل أخضعهم للقوانين النفسية والاجتماعية التي تسري على الجميع، إذ أن كل فرد من أفراد الأسرة يرث بعض

الخصائص من الأسرة ذات الطبيعة الوراثية، كما يكتسب ويطور قدراته الفردية في إطار نظام العلاقات الأسرية ، حيث يوجد تأثير متبادل لأفراد الأسرة، ومن تأمل قصة موسى سيلاحظ دوام حضور الأسرة من جهة، وفي كل مرة تبرز شخصية معينة من الأسرة تستأثر بالانتباه وتختص بدور مركزي في حياة نبي الله عليه السلام. إن الأسرة في علم النفس المعرفي يمكن أن تكون سببا في الأمراض كما يمكن أن تكون موردا للعلاج. ولقد كانت أسرة موسى عليه السلام معينة له منذ ولادته على تجاوز كل تحديات المحيط الخارجي بتنوعاتها وخطورتها. ولأن موسى عليه السلام كان نبيا كانت تدخلات الأسرة محكومة بقوله تعالى: **وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي " (من الآية 39 من سورة طه)**، ولو وقفنا فقط مع مصطلح الصناعة وتأملنا فيه جيدا لوجدنا أن بناء الأشخاص وتربيتهم صناعة ما بعدها صناعة حتى أن الله يشرف عليها بنفسه من فوق سبع سماوات. فهل يا ترى تصنع أفعالنا، وبرامجنا، ومناهجنا ونظرياتنا الإنسان كما يجب أن تكون الصناعة؟ أم أنها تهلكه وتبيده، وتهمله؟ أم أنها تائهة بين هذا وذاك لفقدانها البوصلة بالتمام والكمال؟ حيا على البيداغوجيا باعتبارها علم صناعة الإنسان إنشاء، وتعهدا، وتوجيها وبأحسن الطرق ولأنبل الغايات.

التأمل القر آني الثالث: الذكاء العاطفي الموسوي

(نسبة إلى سيدنا موسى عليه السلام)

بعد أن رأينا كيف أحبت الأم والأخت بحب من الله نبي الله موسى، ننتقل إلى حب آخر بسطه الله لموسى في حب فتاة مدين وزواجه منها، وبنفس المنطق أقول إن حبها لموسى نابع من حب الله لنبيه الكريم: "وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي" **(الآية 39 سورة طه)**. وقبل أن نفصل في حب موسى وزواجه نشير إلى قضية نعتبرها جوهرية في هذا الأمر، ومفادها أن الله يطرح ويشرح كل القضايا الإنسانية بواقعية الإله العالم الحكيم، ولم يجعل أي شيء من حاجيات عباده طابوهات يبتعد عنها، بل فصلها تفصيلا دقيقا، ومنها دائما إلى غايته الأولى بقوله عز وجل: ليبين لكم ، أو ليهديكم، أو إن في ذلك لآيات لأولى الألباب...، أي أنها إشارات لا يمكن أن يلتقطها إلا من أعمل عقله، وتدبر في المنطوق والمكتوب، لأن آيات الله مستغلقة وغير مفهومة عند أي متحجر، أو كسول، أو متكبر أو كافر متعجرف...، فالتفاعل مع آيات الله لا يؤتي أكله إلا إذا دخلتها بقلب سليم، وعقل منفتح، وخال من عقد الاستعلاء أو التثاقل والتهاون. وفي هذا الإطار فصل عز وجل في الحب، وأجاب عن سؤال الجنس، وفصل في اللواط، وتناول الزنى...وأفرد سورة كاملة للهيام والصبابة التي أصيبت بها امرأة العزيز تجاه بن يعقوب يوسف عليهما السلام. إن القرآن كتاب الله المنفتح على اللانهائي، وقد يغدو عند البعض منغلقا بسبب فهومهم وعقدهم من الدين والتدين إن نصرة أو عداء. تعالوا بنا نتأمل في آيات الحب الموسوي الذي كان بشكل مخالف تماما لما وقع ليوسف عليه السلام.

قال عز وجل: "وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ وَجَدَ عَلَيْهِ أُمَّةً مِّنَ النَّاسِ يَسْقُونَ وَوَجَدَ مِن دُونِهِمُ امْرَأَتَيْنِ تَذُودَانِ قَالَ مَا خَطْبُكُمَا قَالَتَا لَا نَسْقِي حَتَّىٰ يُصْدِرَ الرِّعَاءُ وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ" **(الآية 23 سورة القصص)**. تبدأ حكاية نبي الله بعد هروبه من أرض الظلم ووصوله إلى ديار مدين، وبمجرد وصوله لمكان الماء، وهو المكان الذي سيحتاجه يقينا باعتبار المسافة التي قطعها فارا من أرض الظالمين، ويقينا أنه كان عطشانا لذلك اختار مكان الماء، لكن الله يقص علينا ما أرادنا هو عز وجل أن ننتبه إليه، إنه اهتمام موسى عليه السلام بامرأتين تذودان أي تحبسان غنمهما عن الناس حتى يفرغوا من سقي مواشيهم، وبما أن كل الناس تسقي إلا المرأتين فإن ذلك

أثار انتباه نبي الله، وسألهما عن سبب ذلك، فزودتاه بالجواب المعروف في الآية، لكنني هنا أطرح تساؤلات عسى أن أكون مصيبا فيها وتفتح أعيننا على عمق النص القرآني هنا:

- ✓ لماذا توجه موسى عليه السلام، بل بدأ هو بالسؤال مع العلم أنهما لم تسألاه؟
- ✓ لقد طرح موسى عليه السلام السؤال بصيغة المثنى، وجاءه الجواب بصيغة المثنى؟
- ✓ لماذا زادت المرأتان: وأبونا شيخ كبير؟

لن أجيب عن كل شيء، بل أشارككم هَمَّ الفهم عسى الله أن يفتح على أحدنا.

أكيد أن موسى عليه السلام أراد مساعدة المرأتين وهو السبب الأول الظاهر والذي لا خلاف فيه بحكم التربية الربانية لموسى، وبعد خطوة المساعدة بدأ بطرح السؤال، وتلقى جوابا واحدا من المرأتين دفعة واحدة، أكيد أن موسى الرجل العفيف القوي وصل في مرحلة الأشد إلى مستوى من النضج النفسي والبيولوجي والاجتماعي الذي يحتاج معه لزوجة صالحة أو لرفيقة دربه. وكانت المرحلة الأولى لتحقيق هذا الهدف وإشباع الحاجة النفسية أن يلتقي بمن ستكون زوجته في المستقبل، ويتبادل معها حوارا ولو قصيرا ليتعرف عليها صورة وصوتا وشكلا وكلاما، ومفردات، وعملا، وأخلاقا. فقد ألقى الله بالتأكيد حبها في قلبه وحبه في قلبها، وحبها كما قلت هو من حب الله. وبمجرد أن تكلمت المرأتان مع نبي الله، ورجعتا إلى بيت أبيهما اتخذت الأحداث سيرورة مسرعة جدا، لم يحتج فيها موسى إلى عشر سنوات من التعارف وعشرين سنة من الخطبة، بل ظهر له ولأهل المرأة وجه الصواب وقوة الرابطة بسرعة كبيرة. ولما كان الحب نعتا لأقوى أنواع المودة والتقدير والإعجاب، ولما كان شعورا قويا فيه كثير من الحميمية والعمق، فإنه عبر عن نفسه من خلال كلمات المرأتين وكلام موسى عليه السلام في أبهى صورة، فبالإضافة إلى نية مساعدة المرأتين فإن سلوك نبي الله عليه السلام يدل على حاجته لزوجة، ويدل على اهتمامه بالمرأتين، قل عز وجل: " **فسقى لَهُمَا ثُمَّ تولى إِلَى الظِّلِّ فَقَالَ رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنْزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ**" **(الآية 24 سورة القصص)**، لم يتردد نبي الله في مناجاة ربه وطلب العون في أمر نفسي عاطفي وهو المهاجر الذي لا يعرف أحدا في ديار مدين، ولا تنسوا أن هذا كله كان قبل بعثته التي ستكون بعد عشر سنوات من زواجه. لقد توجه إلى المرأتين وخاطبهما وفي نفس الوقت توجه إلى ربهما ليساعده، إنه ذكاء وجداني عاطفي يربط بين مقتضيات الواقع العملي ومقتضيات العالم العلوي في انسجام بالغ وبليغ، ومعلوم في علم النفس أن أفضل القيادات هي تلك تمتلك الذكاء

العاطفي وهو عبارة عن مجموعة كاملة من المهارات والكفايات، كالرحمة، مهارات التواصل، وامتلاك الإحساس الإنساني، واللباقة ... إنها مجموع المجردات التي تشكل دواخل أو لنقل قلب الإنسان، وهكذا كان موسى عليه السلام مع المرأتين، رحيما، وحساسا، وإنسانيا، ولبقا...ومتواصلا جيدا. وبلغ أعلى درجات الذكاء العاطفي بمعرفته لنفسه وحاجاتها وكيف يتعامل معها ومع الغير، إنها الإدارة الذاتية الناجحة والواعية للمشاعر وللعلاقات مع الآخر، بل إن الذكاء الوجداني الموسوي تجاوز كل ذلك عندما وصل إلى مستوى عال من ضبط النفس أي القدرة على التأثير والسيطرة على مشاعر الفرد وحالاته النفسية من خلال حوار داخلي وآخر علوي: "**تولى إلى الظل**". بهذه القدرة، وبهذا المنهج لم يعد موسى عليه السلام تحت رحمة مشاعره، ولكن تمكن من إدارتها والتأثير عليها بشكل بناء.

إن نبي الله موسى كان مؤمنا قبل بعثته، ومتوجها إلى الله قبل بعثته، كيف لا وهو محاط بقوله تعالى: "**وَلِتُصْنَعَ عَلَىٰ عَيْنِي**" إنه استمرار الصناعة الربانية للشخصية الموسوية في بعدها الوجداني حتى تصل إلى أعلى درجات التوازن بإشباع كل الرغبات والحاجات الإنسانية لأن الأنبياء كلهم يصدق عليهم قوله عز وجل:" **قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلَّا بَشَرًا رَّسُولًا**"**(الآية 93 سورة الاسراء)**، إن النبوة تحتاج شخصا متزنا في كل شيء حتى يستحق شرفها، لذلك هي اصطفاء رباني. إن ادعاء الفقر في الآية أعلاه مرتبط بالفقر العاطفي بالأساس وبكل أنواع الفقر تجاه الغني الحميد، لكن السياق يفرض علينا ربطه بفكرة الحاجة إلى امرأة تسره وتحبه ويحبها وتكون لباسا له ويكون لباسا لها. إن مشاعر الحب تساهم في تطور النفوس الإنسانية وبناء الثقة بالنفس وتصنع الهوية الشخصية أو على الأقل تساهم في صناعتها بشكل كبير، والحب في إطار النبوة والأديان التوحيدية يكون مسنودا بإطار أخلاقي متغير اتساعا وضيقا عبر الأزمنة والأمكنة والثقافات، ويتضمن شعور الحب اعترافا من الطرفين بجمالهما وإعجابهما ببعضهما. ولو تابعنا النظر لانتقلت بنا مباشرة وبسرعة خارقة أحداث قصة زواج موسى إلى جزئيات دقيقة وفي كلمات جامعة مانعة ماتعة نفصل فيها في التأملات اللاحقة بإذن الله. وعليه، إن مشاعر الحب أمر طبيعي وبشري يلامس حتى أنبياء الله، لكنهم كانوا على درجة عالية من كفاية إدارة مشاعر حبهم، وخوفهم، وكرههم، وبالتأكيد كانوا يتعمقون في أنفسهم عمقا لا عمق بعده، وكانوا لا يهابون مشاعرهم ولا يكتمونها بل يديرونها، وبديهي أن من أتقن التعامل مع ما يعتمل في نفسه من

المشاعر المتضاربة والمتناقضة سيكون سيكولوجيا ناجحا جدا في التعامل باحترافية مع مشاعر الآخرين، ويصبح أكثر قدرة على التصرف الجيد والإتيان بالسلوك الأنسب في المواقف العاطفية المختلفة. وهذا بالضبط ما يدور حوله الذكاء العاطفي الموسوي الذي سنواصل الحديث عنه إن شاء الله.

التأمل القرآني الرابع: لغة اللاشعور

والميثاق الموسوي الغليظ

"فَجَاءَتْهُ إِحْدَاهُمَا تَمْشِي عَلَى اسْتِحْيَاءٍ قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا فَلَمَّا جَاءَهُ وَقَصَّ عَلَيْهِ الْقَصَصَ قَالَ لَا تَخَفْ نَجَوْتَ مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ"

(الآية 25 سورة القصص).

بعد أن سقى موسى للمرأتين من مدين، جلس يتأمل حاجته ويدعو ربه، وكما قلت فإن أول حاجة ركز عليها المولى عز وجل في سياق هذه الآيات هي الحاجة إلى زوجة تكمل نمو وتطور وتوازن شخصية نبيه موسى عليه السلام، ونعتقد أن الله قد ساق لنا هذا الأمر عنوة لنسترشد به في حياتنا ونتأمله، ولنعلم أن النساء هن المؤنسات فلا تكتمل شخصيتنا إلا بهن، كما يؤكد لنا عز وجل من خلاله أن الحاجات الأساسية من أكل وشرب وجنس تقع في أعلى سلم الترتيب عند الإنسان، وأنه لا توازن للإنسان بدون إشباعها. ولا تنسوا إشارة الفتاتين لموسى بقولهما: "**وَأَبُونَا شَيْخٌ كَبِيرٌ**"، فإن فيها ما فيها من معان خفية ودقيقة مفادها أننا وحيدتان وأن أبانا بلغ سنا لم يعد معه ممكنا أن يقوم بكل ما يقوم به الرجال، وإننا نحتاج رجلا قويا مثلك، ولو كان أبونا قويا لما وجدتنا نذود مواشينا.

لقد جاءت عند موسى امرأة واحدة لتنادي عليه ولم تأت المرأتان، وهذا له دلالة مهمة في فهم تعلقها بل وحبها لموسى من خلال لقاء واحد ووحيد وفي إطار أخلاقي، فحبها كما قلت من حب الله لموسى" **وَأَلْقَيْتُ عَلَيْكَ مَحَبَّةً مِّنِّي" (من الآية 39 سورة طه)**، كما أن في مجيئها لوحدها إشارة إلى درجة الثقة التي تحظى بها عند أبيها من جهة، ومن جهة ثانية إلى سرعة بديهة وذكاء أبيها بعدما حكت له ابنتاه عن موسى وما قام به من أجلهما، إن الأب أحب هو نفسه موسى قبل أن يره لدرجة أنه أرسل ابنته لوحدها للنداء عليه، ولقد استثمر الأب في اتخاذ قراره هذا رهافة الأذن وعمل على تأويل لغة المكبوت اللاشعوري تأويلا جميلا محققا وعد الله تعالى "**وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِي" (من الآية 39 سورة طه)**. فصناعة الله لموسى مواكبة له طوال مسيرة حياته وفي كل أطوار تطور شخصيته وحتى في اختيار زوجته.

إن هذه المرأة هي نفسها التي ستطلب من أبيها أن يستأجر موسى عليه السلام فيما بعد، لأنها هي التي خبرت أمانته بالخصوص بعد مرافقته لها في الطريق إلى أبيها، أما قوته فلاحظتها معها أختها عندما تكفل بالسقي لهما. كما أنها جاءت تمشي بشكل معين، وصفه المولى عز وجل بـ: الاستحياء، والمشي على استحياء هو مشي له غاية إخفاء مواطن الزينة والإثارة من الجسد، والحياء ضد الوقاحة، والمشية يمكن أن يكون فيها اضطراب مقصود وحركة واهتزاز وهزع، وهي مشية فيها تفكك ورخاوة وتمايل، وكلها طرق إثارة النساء للرجال، وكلها صفات أراد رب موسى عليه السلام أن ينزه زوجة نبيه عنها فلا يترك أي باب للتأويل. وفي هذا الإطار يرشدنا رب العزة لعنصر غاية في الأهمية قد نتجاوزه ولا نهتم به، لكنه قرر في كتابه عز وجل إدراجه وهو أهمية لغة الجسد وحمولتها القيمية المعيارية، وضرورة فهمها وتفكيك دلالتها التي يمكن أن تكون مُرَمَّزة ثقافيا، كما يمكن أن يكون فيها المشترك الإنساني. إن حركات الجسد لا تكذب إلا إذا كانت مصطنعة، والحياء الكامن في الداخل برزت تجلياته في لغة الجسد، إنها حركات فيها إشارات تدعو إلى الثقة، فالتي أمامك يا موسى قدر الله لك، بمواصفات زوجات الأنبياء عليهم أفضل الصلاة والسلام. وعليه، فإننا من خلال هذه الآيات وغيرها يمكن أن نقول بكل أريحية أن حركات الأجساد للرجال والنساء هي عبارة عن نظام أو نسق اتصال فطري، يتجاوز المنطوق ويفك الحواجز. إننا نتحدث ونتواصل بكليتنا، بل إن لغة الجسد تسهل التواصل حتى في حالة كان المتحدث معنا لا يفقه لغتنا ولا نفقه نظام رموز لغته مطلقا. ونشير إلى أن لغة جسد المرأة والرجل غير متماثلتين وإن كانت تجمع بينهما تقاطعات معينة. إن في إشارة المولى عز وجل للغة الجسد تأكيدا على أهميتها كمجال بحث وعلم من جهة، وكطريق مهم في فهم الآخر من جهة ثانية، كما أن فيه إشارة إلى مدى تأثير هذه اللغة الجسدية على نفسية الإنسان بما فيه موسى عليه السلام، فلا نستهن بها أبدا. وبما أن موسى عليه السلام يتم إعداده لتحمل الرسالة كما وضحنا في التأمل السابق، فإنه يتوفر على ذكاء عاطفي وجداني عال، وهذا الأخير هو مفتاح الذكاء الاجتماعي، ذلك أن النظام المعرفي والأخلاقي الموسوي المسنود بمعية الله يمكنه بسرعة تفكيك لغة الجسد سواء تعلق الأمر بتعابير الوجه، أو الصوت، أو الإيماءات، أو الحركات المختلفة، وهكذا يمكنه أن يشكل الصورة العامة الصائبة والعادلة حول مخاطبه الذي يعني له الشيء الكثير: إنها زوجته المستقبلية.

إن المرأة لم تأت فقط على استحياء أيها الناس، بل تكلمت أيضا بكلام معدود ودقيق وعنده مقصد وعميق، وفيه إشارات أعمق مما نعتقد. "قَالَتْ إِنَّ أَبِي يَدْعُوكَ لِيَجْزِيَكَ أَجْرَ مَا سَقَيْتَ لَنَا "، لقد كان بالإمكان أن يرسل الأب مع ابنته هدية، أو مالا، أو أي شيء تعبيرا عن امتنانه، لكنه دعاه، فلم الدعوة إذن؟ هل نكتفي بالتفسير التقليدي ونقول الكرم وعادات الناس؟ بالطبع لا، فالكرم موجود وعادات الناس موجودة لكنها غير موجودة عبثا ودون دلالات، ثم لماذا قبل موسى الدعوة وكان بإمكانه أن يزهد فيها؟ بل كان بإمكانه أن يقول لها أن مساعدته هي لوجه الله ولا يريد بها أجرا، بالطبع إن خيوط الغيب تتشابك لتستمر في إعداد موسى لمهمة تحتاجه مستقرا عاطفيا وماديا، فكما أن المرأة أحبت موسى عليه السلام فقد ألقى الله عز وجل حبها في قلبه بدليل تزكية الله عز وجل لها بقوله: **تمشي على استحياء**. لقد قبل موسى الدعوة لأنه يريد الوصول إلى الشيخ عسى أن يكون فاتحة خير عليه، وقبل الدعوة لأنها أتت ممن دعا الله من أجلها، وقبل الدعوة لأنه في حاجة للمساعدة لأنه كما عبر هو نفسه عن حاله: "رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ" **(من الآية 24 سورة القصص)**،إن موسى عليه السلام إنسان ونبي عظيم عرف مشاعره، وتعرف بصدق على عواطفه، ولمس أثر المرأة في نفسه وأثره في نفسها، وتوجه للمولى عز وجل ليسدد أمره فكان له ما أراد بالطريقة التي يرضى عليها رب العباد، ولا تنسوا أن مهر هذه المرأة هو خدمة 10 سنوات، فأي امرأة هذه التي تستحق مهرا بهذا الحجم؟ وأي رجل هذا الذي لا يدخر في سبيل الفوز بزوجته خدمة أبيها لعشر سنوات؟ وأي حب هذا الذي يجمع بينهما برعاية الله؟ إن زواج موسى استثناء وتربية وتكوين، وبهذا الزواج دخل موسى عليه السلام مرحلة تكوينية ربانية طويلة دامت 10 حِجَج لا نعلم عنها أي شيء تقريبا. فكيف يا ترى مرت؟ الجواب يكفي فيه قوله تعالى: "فَلَمَّا قَضَىٰ مُوسَى الْأَجَلَ وَسَارَ بِأَهْلِهِ آنَسَ مِن جَانِبِ الطُّورِ نَارًا قَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِخَبَرٍ أَوْ جَذْوَةٍ مِّنَ النَّارِ لَعَلَّكُمْ تَصْطَلُونَ" **(الآية 29 سورة القصص)**. يظهر جليا من خلال هذه الآية أن موسى عليه السلام يعيش في أمن وود ورحمة مع أهله، حتى أنه ذهب ليبحث لهم عن النار ليتدفؤوا بها من برد الشتاء، نعم الزوج أنت يا نبي الله، ونعم الزوجة أنت يا زوجة نبي الله، اللهم اجعلنا منهم يا حنان يا منان.

تأملات في الحكمة

التأمل القرآني الأول: الحكمة الإلهية

"وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿23﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿24﴾"

(سورة الاسراء، الآية: 23-24)

تبدأ التوجيهات الإلهية بقضية إيمانية اعتقادية عليها أن تستقر في جوانية المؤمن، والخطاب للمؤمن أو من يريد أن يوسع مداركه من غير المؤمنين أو يفهم بعض التنزيل:

- **التوجيه الأول:** اعتقادي علوي عميق في دواخل النفس المؤمنة ومقتضاه: أن إرادة الله ألا يعبد إلا هو؛
- **التوجيه الثاني:** اجتماعي يلامس من كان سببا في خروجك للوجود، وسهر على نموك وبلغ بك مرحلة النضج والرشد، وسبب ما أنت فيه اليوم، يرتبهما الله من حيث القيمة بعد الإيمان: إنهما الوالدان؛
- **التوجيه الثالث:** تعميق للثاني وتفصيل وتوضيح وتفكيك له: الوالدان محل الإحسان المطلق قولا وفعلا، والتواصل الجميل المكرم لهما أول مراتب الإحسان لهما، وعليه أن يكون أكثر وأعمق وفي أعلى مراتب الجودة عند وصولهما مرحلة الضعف، ولا فرق بينهما أما أو أبا، فلا تتأفف، ولا ترفع صوتك، ولا تزجر أحدهما واختر في تواصلك معهما أجود وأكرم الأقوال والأفعال. فهما الأصل وأنت الفرع، ولولاهما ما كنت فوق الأرض، فاحترم أصلك، وأكرمه، واعلم أن احترامها من حيث الترتيب والقيمة تابع للتوحيد، وفي ذلك دلالة ما بعدها دلالة. فتأمل.
- **التوجيه الرابع:** ربط الوالدين بالسماء كما ربطاك بالأرض: إنه الدعاء، وعليه، تواضع لهما وتذكر الدعاء لهما لأن رب العزة ينتظره منك ويأمرك به، والسبب موضوعي: إنهما من ربياك، والتربية فعل قصدي إيجابي، هادف منظم وانتقائي. بمعنى أنهما فكرا ودبرا

واجتهدا في تربيتك، بل وحرما أنفسهما مما كنت تنعم فيه. أنت مدين لهما برد الجميل عند رب العزة، فاستيقظ من غفلة الغرور الزائف.

وبناء عليه، فالحكمة الإلهية تقول لك: إذا كنت مؤمنا فكن موحدا لرب الناس، وكن وفيا لأصولك ومكرما لها، واعلم في هذا الإطار أن باطنك هو الذي يعكس حقيقتك "رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا " (الآية 25 سورة الإسراء). أي أن ما يعتمل في دواخل نفسك هو جوهرك وعمق شخصيتك، بل وحقيقتك، لكن انتبه، فالآية تزيد وتوضح:

- الله قادر على النفاذ إلى جوانيتك أي عمق شخصيتك؛
- الناس عاجزون عن النفاذ لدواخل نفسك لذلك فإنهم ينساقون وراء الظاهر من الأقوال والأفعال؛
- الصلاح الذاتي والصلاح في العلاقة بالناس ورب الناس ومخلوقاته غاية وجود الإنسان؛
- الأخطاء تتلبس بالإنسان، وتبعا لذلك عليه أن يُفعِّل آلية الأوبة أي الرجوع الواعي عن الأخطاء؛
- أن تكون أوابا معناه أن تنعم بالمغفرة من الحي القيوم، لكن انتبه لست نبيا ولا ملاكا لأنك ستخطئ مرة ثانية وثالثة ورابعة لأنك إنسان...كن فقط أوابا، فالله غفار ورحيم.

التأمل القرآني الثاني: سورة الإسراء 1، سورة الحكمة

(حكمة رحابة الأفق الإنساني في التنزيل)

الإيمان ليس اختراعاً للمسلمين ولا للمسيحيين ولا لليهود ولا لغيرهم من المعتقدين، بل نعتبره هبة من الله مزروعة فينا، بهدف البحث عن النور في الظلام، النور العقدي وسط تلاطم أمواج الظلام والتيه، النور الاجتماعي وسط صراع الأفراد والهويات والذوات، إنه بحث عن النور بين كل أشكال وتمظهرات الوجود. وأهم وظيفة يقوم بها الدين هي رسم خرائط للحياة وعلامات السير على الطريق في استحضار تام لعقولنا بغاية ضبط بوصلة اتجاهاتنا.

فرغم أن الدين انتقال بالنفس من حالة المادة إلى حالة ما بعد المادة أو ما فوق المنظور الملموس، فإن اتصالنا بهذا العالم العلوي أي إيماننا لم تتمكن أي قوة حتى الآن من كسره ولا حتى كسر وسائل اتصالنا بالعالم اللامرئي، كثيرون أولئك الذين حاولوا لكن هيهات هيهات فما زادت محاولاتهم إلا تعميقا للدين وزيادة في أهميته في العالم المنظور،، وتكثيرا للمتدينين، وفي هذا الإطار

تأتي سورة الحكمة، سورة الإسراء كبرنامج اجتماعي موجه للأفراد يبدأ من ربط الاتصال بالله وتمتد بهذا الاتصال إلى الناس، أي ناس، تنطلق من البعد الإلهي إلى البعد الإنساني في أعمق أعماقه وبسورة فيها من التدرج البيداغوجي ما يذهل كل ذي عقل لبيب. إن التنزيل يحمل قوته في ذاته، وغيره متعلق به لا العكس: قال عز وجل: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿26﴾ إِنَّ الْمُبَذِّرِينَ كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا ﴿27﴾" **(سورة الإسراء: 26-27).**

بعد الحكمة الاعتقادية التي أوردناها في التأمل الثالث عشر، والحكمة الاجتماعية الأسرية المتعلقة بالوالدين، ينبه المولى عز وجل على العائلة الكبيرة كنسق اجتماعي بأبعاد اقتصادية. ومقتضاه: حقوق غيرك هي واجباتك تجاههم من أقربهم إليك إلى الذي يمر بجانبك وليست لك به أية رابطة دم، أي من القريب دما إلى الأخ في الإنسانية. إن الإنسانية باعتبارها نظاما من القيم الرفيعة جزء من مراد الله في هذا الوجود، إذ تزاوج الإنسانية بين القيم الفردية والفضائل والسلوكات ذات البعد الإنساني، وفي معظم الثقافات، وتشمل الإنسانية قيم اللطف والكرامة، والإحسان، والمساعدة، والرحمة. وهذا جوهر الحكمة في سورة الإسراء،

وفي نفس الإطار ينبهنا المولى عز وجل إلى أن الأصل في الاقتصاد هو الاقتصاد، أي الدقة والحساب والتوفير، وضده التبذير والضياع، وعليه، فتوازن الحياة متعلق أيما تعلق بقدرتنا على الاعتدال في نفقاتنا حبا وكرها واستحسانا، وعلى مصاريفنا المادية أن تراعي حاجاتنا وإمكاناتنا، أما إن تجاوزت ذلك ودفعتنا للتبذير في أي جانب من جوانب الحياة، (جانب العلاقات أو المعاملات أو الماديات) فإننا خرجنا من دائرة الإنس ودخلنا دائرة الشياطين خصوصا في جانب السلوك، إذ جمعت بيننا وبين الشياطين في التصور الديني الأفعال والأعمال وربما القناعات والمعتقدات، وعندما نقترب من الشيطان فإننا نبتعد عن الديان، ونسيء للإنسانية التي هي من مقتضيات الوجود. وعليه، فجودة علاقتك بغيرك وجودة علاقتك بالمال لهما أثر كبير على قربك وبعدك من الرحمن، وقربك وبعدك من الشيطان. إنها أفعال تمنعنا من أن نكون إنسانيين كما يريد منا ربنا.

وإذا كان التاريخ يخبرنا بأن الثقافات السابقة، كان الناس يهتمون فيها بأولئك الذين ينتمون إلى نفس المجموعة، ونفس القيم، ونفس اللغة ونفس الدين، فإن سورة الإسراء/ الحكمة

تكسر هذا النمط البدائي في العلاقات الإنسانية، وتجعل من واجبنا مساعدة ضحايا الهجرة الناتجة عن الجوع أو الهروب والحروب أو الزلازل أو...إنهم أبناء السبيل. ولو بحثنا في المتن الديني لوجدنا أن إنسانيتنا عليها أن تتجاوز البشر إلى الحيوانات والأشجار والأحجار.

ألا ترون في مجموع هذه الآيات أن الله لم يطلب لنفسه شيئا إلا عدم الإشراك به، أما كل ما عدا ذلك فإنه تعاليم لبناء إنسانية الإنسان في جوانيته والتي يمكن أن يتخطفها الشيطان منه، فماذا يعني أن يكون الإنسان إنسانا؟ إنه سؤال مهم. وماذا تعني البشرية بدون إنسانية؟ سؤال مهم آخر. إن المتن القرآني في سورة الإسراء لا يركز ويفصل فيما يريده الله منا لنفسه، ولكن يفصل أكثر فيما يريده الناس منا كي نتعايش سواء كنا أقرباء أم إخوة في الإنسانية، إنه يؤكد على ما يحتاجه الناس من الناس، وعلى كيفية الاستجابة لاحتياجاتهم، وبمعنى آخر إن وجودك عليه أن يكون وجودا للآخرين أو وجودا من أجل الآخرين، وليس فقط وجودا لنفسك أو من أجل نفسك، إنه حب الآخرين ومساعدتهم والتعاطف معهم عندما يكونون في لحظات الضعف والهوان. ومن أغرب ما في هذه الآية أنها تعتبر وتقرر أن ما ستجود به على عابر السبيل ليس منة منك، بل هو حق علوي يجب أن تأتيه عن طيب نفس لتكون إنسانا كما أرادك رب الإنسانية.

التأمل القرآني الثالث: سورة الإسراء 2، سورة الحكمة

(حكمة الفقر عدو)

جاءت سورة الإسراء حبلى بالوصايا ذات الصلة بالإحسان والصدقة في مواقع متعددة، وكان هدفها هو تأثيث نفوس المؤمنين بأسلحة لمواجهة جائحة الفقر إن على المستوى الفردي أو الجماعي. قال عز وجل: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" **(الآية 26 سورة الاسراء).**

وقال تعالى: "وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ابْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا" **(الآية 28 الإسراء).**

إن للفقر لغة أو لغات، كما أن له جوانب عديدة وأبعاد متنوعة. فالمتضررون من الفقر ليسوا ضحايا عاجزين، وليسوا مقطوعين من الامتداد في التاريخ بل بالتأكيد لديهم تاريخ طويل وربما حافل جدا أكثر من تاريخ غيرهم، بل ربما هم حفدة أغنياء وأسياد زمانهم، لذلك فاختزالهم في لحظات ضعفهم دليل فقر أخلاقي ومنهجي، كما يمكن أن يكونوا من نسل عائلة كبيرة ممتدة نجهلها وقد يجهلونها، زد على ذلك أنهم مثل غيرهم لديهم اهتمامات وكفاءات لا نعرفها وربما هم أيضا لا يعرفونها، كما أن من يسعى ويطلب المساعدة منهم يحترق بالتسول ليعيش غيره من أبنائه أو آبائه في عزة وأنفة ولا يمدون أيديهم لغيرهم. إنهم يتطوعون بالتصدق بكرامتهم ليعيش من يحبون بكرامته. وهذا أفق إنساني عظيم، وإن من الحكمة في التعامل مع عيال الله الفقراء ألا نقول لهم إلا خيرا عندما نعجز عن مساعدتهم ماديا. إن القول الميسور للإنسان المعسور موصل إلى رحمة العفو الغفور. بل إن القول الجميل يقوم مقام التصدق نفسه. وهذا موضوع سنأتي إليه إن شاء الله.

إن الفقراء يتعرضون نتيجة فقرهم لضغوط وجودية، الأمر الذي يتطلب في التعامل معهم نهجا حساسا ومتعاطفا يتضمن التعامل بشكل احترافي بانٍ للنفس، لأن الفقر كحالة معيشية هو تراكم للحرمان، وتدهور اجتماعي، وعجز على مستويات متعددة، وهيمنة للآخرين على الشخص الفقير، وفقدان للمكانة والسلطة، وإن التصرف تجاههم بحكمة يعني التصرف

بطريقة هادفة وموجهة نحو المنفعة ومحافظة على الكرامة. ومن أغرب ما وجدت في هذه السورة الكريمة، أنه ما أن ذكر الله الترف الذي يقابله الفقر حتى أتبعه بالتوحيد، وبر الوالدين، والإحسان للمحتاجين...وفي ضده قد تظهر أضداد نراها تمشي حية في المجتمع. إنني أعتقد أن إشارة الآية إلى الحاجة أي الفاقة والفقر والتعاون والمساعدة ليست فقط من باب الحث على فعل الخير وتبيان الوضعية الاجتماعية التي قد يعاني منها بعض الناس، بل أكثر من ذلك إشارة واضحة للإنسان أن عليه أن يفكر في الفقر والحرمان والفاقة ويجعل محاربتهم تدخل في إطار عمله الفردي والجماعي والمؤسساتي، فالفقر بالنسبة لي سواء كمفهوم فلسفي أو كمفهوم من علوم الإنسان والمجتمع أعتبره كثيفا وصلبا وشديدا وقويا أو لنقل أنه مفهوم صلب وثخين، نظرا للكثافة الدلالية التي يمكن أن يستقيها من حقول معرفية مختلفة مثل الفلسفة والدين وعلم الاجتماع والسياسة والاقتصاد وعلم النفس...إنه محط بحوث متعددة المشارب. لنقل إن الفقر مفهوم سميك، وسمكه راجع إضافة إلى ما ذكرناه لحجم وعظم المآسي والمصائب والحاجات التي يحبل بها إن مضمونا أو تجليات.

إن السؤال (الكانطي) "ماذا يجب أن أفعل؟"، وإن كان غير جديد في السياق الإسلامي، إلا أنه مهم للتفكير في الجانب العملي بعد استيفاء مقتضيات النظر والتأمل. فالنبي صلى الله عليه وسلم كان يتصدق، ويأمر بالصدقة والزكاة في المجتمع المسلم الأول باعتبارهما آليات جديدة آنذاك، تأسست على مقتضياتها مؤسسة الزكاة فيما بعد، أما نحن اليوم، فالأمر يحتاج منا إلى تصورات جديدة تغني القديمة أو تفرعها. ذلك أن الفقر حياة لا إرادية تتم في ظروف الحرمان المادي وفي معظم الحالات تتجلى فيها كل أشكال الضرر المعنوي والظلم الاجتماعي وانعدام استحضار آلام الآخر في أعمالنا وتفكيرنا، بل لربما في مخيلتنا.

وبناء على ذلك يجب أن ينتقل تفكيرنا من الانطلاق في إتيان السلوك من الكرم والإحسان إلى الواجب، فالفقر بالتأكيد منتوج جماعي بشكل من الأشكال، فأينما وجد الفقر وجد غنى، وغنى فاحش، بل وظلم اقتصادي واجتماعي. لذلك فالخيار الأساسي الذي أمامنا هو السعي لتأسيس مجتمع التضامن المستمر لا فقط مجتمع التضامن اللحظي المؤقت أيام الجوائح العامة، التي سرعان ما ننساها بعد انتهائها، بل وينسينا زوالها الجوائح الخاصة التي تمس غيرنا وتبقى معه طول حياته، يجب أن نفرق في أذهاننا وفي سياستنا بشكل أساسي وواضح بين المحظورات، والمتطلبات القانونية، والأخلاقية، والمعنوية.

وفي هذا السياق يمكن أن نمارس نقدا بناء مستمرا على الظروف الهيكلية غير الموحدة للسوق العالمية الحرة التي تتعارض مع عدالة التوزيع العالمية، إذ أن الدول الغنية تؤثر على السوق العالمية لصالحها وعلى حساب الدول الفقيرة، وكذلك السياسات الوطنية التي تنتج الفقر، بل وتعمقه بدل أن تحاربه، ولا أعتقد أن مشكلة الفقر يمكن أن نفصلها عن مشكلة العدالة الاجتماعية بأي شكل من الأشكال. ولا ننسى في هذا الإطار أن سورة الإسراء أوردت إشارة قوية مفادها: "وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا" (الآية 16 سورة الاسراء)؛ ومدارها حول لطيفة مركزية هي: أن الترف غير المسدد بالأخلاق والمسيج بالقانون يؤدي إلى الفجور والفسوق. والترف كما تعلمون دليل على وجود فقر في جهة وغنى في جهة أخرى، وتبعا لذلك ستصبح الفئة الفقيرة موضوع فسوق وفجور المترفين. وبذلك ستعاني الفئة الفقيرة من التأثيرات المجتمعية للمترفين والتي ستولد انعدام الثقة سيكولوجيا، وارتفاع عدد المرضى النفسيين، ومدمني الكحول والمخدرات، وانخفاض متوسط العمر المتوقع بين الفقراء، وارتفاع معدل وفيات الرضع، وانخفاض مستوى الأداء المدرسي للأطفال، وتراكم أعداد حمل المراهقات، وتكدس السجون، وارتفاع نسبة الانتحار... وعليه، فالحل يكمن في مأسسة اجتماعية قانونية سياسية للآية الكريمة من سورة الإسراء: "وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا" (الآية 26 سورة الاسراء).

وكثيرا ما يؤدي الترف غير المسدد بالأخلاق والمسيج بالقانون إلى العدوان والصراع والعنف والنشاط الإجرامي في الجهتين، جهة المترفين وجهة المحرومين، فالأشخاص الذين يعيشون في فقر وكذلك الذين هم مترفون يجدون أنفسهم في حالات الطوارئ الاقتصادية والعاطفية بخلفيات ودوافع متباينة سواء حرمانا أو تخمة، فتحاول كل فئة إشباع حاجاتها بالأفعال المحظورة قانونيا. وعادة ما ينظر المجتمع إلى هذه الحقيقة على أنها خطأ شخصي للشخص المعني، إذ لا يمكن أن يكون الفقر والترف عذرين للسلوك غير القانوني، ولكنهما أحيانًا يكونان محفزان على إتيان ما يدمر سيرورة تطور المجتمع أفرادا ومؤسسات. فتأملوا قول الله تعالى: "وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ "(الآية 31 سورة الاسراء)؛ فقد يؤدي الفقر إلى القتل، قتل فلذات الكبد وقد يكون قتلا حقيقيا أو معنويا أو هما معا..

اللهم وفقنا لنكون علماء ومفكرين عمليين مرتبطين بقضايا الناس، وأبعدنا عن كل علم ليس فيه من العمل شيء.

التأمل القرآني الرابع: سورة الإسراء 3، حكمة الوسطية أمر عزيز، وحكمة المال هرمون سعادة وتعاسة

"وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" (الآية 29 سورة الإسراء).

بعد أن وضح رب العزة طرق التعامل معه ومع الوالدين والأقربين والإنسانية، انتقل إلى عالم الأشياء، وهكذا يكون التدرج الرباني انطلق من التعامل مع العالم العلوي إلى عالم الإنسان ثم بعدهما عالم الأشياء، وأهم ما يخالط قلوب الناس في عالم الأشياء هو المال، ولنا في نفس قصة قارون إشارات عميقة لسلطة المال على النفس، ونستكمل قصته من سورة القصص قال تعالى: "إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِن قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿76﴾ قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِن قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَن ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿78﴾".

لقد كتب الفيلسوف وعالم الاجتماع الألماني (جورج زيمل Georg Simmel) كتابين مهمين في هذا الإطار، "**في فلسفة المال**" و "**في علم نفس المال**" منذ أكثر من 100 عام. ومما أورده في هذا الصدد أن النقود، تأخذ مكان الله. وتشعرك بالهدوء والأمان الذي يوفره امتلاك المال على عكس جميع الممتلكات الأخرى مما يجعلك تحس نفسيا بما يحسه المتدينون، بل وتجد في النقود نشوة ما يجده المؤمنون في إلههم. لذلك تأله قارون، بل وأحس بتفوقه لامتلاكه سلطة المال. إن هذا الأخير ينشط نظام المكافأة في الدماغ مثله مثل النشويات والحلويات والأدوية المحفزة، ويتم بناء على امتلاك المال تحرير الدوبامين الناقل العصبي. الشيء المهم هنا والمرتبط بالمال هو أن هرمون السعادة ينطلق بمجرد أن يعدك أحد بمبلغ من المال. وعليه، فإن البنية النفسية للإنسان تتأثر بالفعل بامتلاكنا للمال وفقداننا له. ألم يقل ربكم: "**وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ**" **(الآية 177 سورة البقرة)** وقال: "**وَتُحِبُّونَ ٱلْمَالَ حُبًّا جَمًّا**" **(الآية 20 الفجر)**. نعم أيها الناس إن المال محبوب ومعشوق والكل مغرم به حتى الصبابة.

غالبا ما نعتقد أنه عندما يتعلق الأمر بالمال فالأمر بسيط، أي هو قضية امتلاك أو عدم امتلاك للمال لا غير، لكن لو تأملنا سلوكاتنا عندما تكون محفظتنا مليئة بالمال ونتصرف فيه بحرية وكذلك عندما تكون فارغة من المال سندرك أننا مفتونون بالمال وسذج في التأمل الذاتي في علاقتنا بالمال. فقد نتصرف ونحن أشخاص بالغون مثل الأطفال، بل ويمكن أن يتلاعب بنا غيرنا بسهولة في حال حاجتنا إلى المال. لذلك من المفيد جدا أن نطور بيداغوجيا المال أي أن نعرف بعض الحيل والآليات والطرق لاتخاذ قرارات عقلانية تجاه كل ما هو مالي. هنا تأتي الالتفاتة الربانية قال عز وجل: "وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا" **(الآية 29 سورة الإسراء)**، ومدارها حول كيفية التعامل مع المال، ويمكن بسطها على المنوال التالي:

إن بإمكان سلطة المال أن تجعل الشح يسكنك، وقد يكون شحا متمددا ومتجددا، فخوفك من الفقر والحرمان يستبد بك، وليس هذا من الحكمة ولا من العدل إن كنت مؤمنا برب المال، وقد يوصلك إلى اللوم والحسرة هنا وهناك عند رب السماء. لماذا؟ لأنك ستمنع السعادة عن غيرك ممن يحتاجون بعض المال لتطوير الإحساس بالفرح والسعادة ولو بشكل مؤقت، وفي نفس الوقت انتبه، فالإسراف المتمدد والمتجدد ليس من الحكمة وقد يوصلك إلى اللوم والحسرة عند الناس ورب الناس، لأن هذا الأخير لا يريد أن يسلبك الإحساس بالفرح والسعادة الناتجة عن المال، وفي نفس الوقت لا يريد من المال أن يستبد بك فيتحول من وسيلة إلى غاية ومن عبد إلى معبود. إن المال رغم أنه مسكون بإنتاج وتطوير السعادة يمكن أن يكون وبالا على صاحبه، ذلك أن التعامل الخاطئ مع المال يؤدي في كثير من الحالات إلى تراكم الدين، والإفلاس الشخصي، والأزمات الوجودية، والفقر. وكثيرا ما يؤدي إلى النزاعات والإحباط، والتوتر، بل والاكتئاب، مما يجعلك بعد أن كنت غنيا تتحول إلى عبئ كبير على نفسك وأسرتك ووسطك الاجتماعي. وتتطور بداخلك أمراض نفسية واضطرابات الشعور بالذنب والعار والعديد من الأعراض النفسية والجسدية، وتتحول حياتك من حال الميسور إلى حال المعسور الذي يعيش في ظروف صعبة للغاية. لذلك: نعم المال الصالح للمرء الصالح.

ويمكننا بعد هذا أن نوسع من دلالة الشح والإسراف ونجعلهما يلامسان كل شيء، الماديات والمعنويات، بل ويلامسان العواطف حبا وكرها.

وفي هذا كله يتحرى الإنسان الحكيم العدل والوسط المبنيان عن وعي تام بتخوم التطرف السلوكي، والمعرفي والعاطفي والمادي، فالإنسان الحكيم لا يريد أن يلام ولا أن يتحسر في ملكوت السماوات والأرض وأمام رب الأرباب بسبب نزوع نفسية نحو الشح أو الإسراف.

ولهذا أعتقد أن الوسطية باعتبارها مسلكا ربانيا هي في الأصل منهج العلماء والحكماء، فالوسطية أو الاعتدال في الأمور كلها، ليست صفة جاهزة، بل نعتبرها كفاية عالية التركيب ومكتسبة، كما أنها ليست جامدة بل متغيرة بتغير النوازل والوضعيات، وتغير الأزمنة والأمكنة، وهي كفاية لا يكتسبها إلا من ألمَّ بالطرفين المتناقضين اللذين يحيطان بها، جنسا ونوعا وصفات، ومعرفتهما تعني كذلك الإلمام بجوانب قوتهما وضعفهما، وصوابهما وخطئهما، ومعايير الحكم عند كليهما، وفي هذا نحتاج إلى رزمة من المعايير العلمية والعقلية والدينية، أي إلى منهج مركب في التفكير والنظر، بعيد كل البعد عن التفكير الأحادي البعد. لذلك لا نكتسب الوسطية إلا بعد طول عمر وتجربة وانغماس في العلم وأخطاء في التقدير والسقوط الكثير في التطرف، ولا طريق إليها بدون الانفتاح الدائم على المخالف، والمراجعة المستمرة للذات إن في المنطلقات أو في المعايير أو في المناهج أو في بعض هذا أو كله. وهذا بالضبط ما يجب على أهل أمة الاسلام: "**وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا**" **(الآية 143 سورة البقرة).**

إننا نعتقد أننا كائنات عقلانية وذات إرادة حرة وندافع عنها، لكن تراودنا جميعا لحظات لا نرى فيها لإرادتنا الحقيقية دورا مركزيا، بل نجد أن سلطة المال كانت حاضرة سواء في حالة الامتلاك أو وضع الحرمان وبشكل جنوني، نتصرف بدون وعي في المال وكأنه هو من يقود ولسنا نحن، على الرغم من أننا نؤمن بالإرادة الحرة. ولا أخفيكم أنه اتباع الحشد من الناس في بعض الأحيان (ما يسمى غالبا بالقطيع، وأنا أفضل الحشد) وفي بعض السلوكات أفضل من الاعتقاد بقوة الإرادة والسير وراء شهوات الذات، لأن هذا الحشد طور سلوكات اجتماعية تراكمت نتيجة تجارب واقعية لكثير من الناس وفيها كثير من الصواب، فتراهم انزاحوا بعيدا عن الإنفاق في مجال أو مكان تعتقد أنك بإنفاقك فيه أذكاهم، فإذا بك تكتشف أنك أبلدهم لأنك أتيت من بعدهم ولم تستفد من انزياحهم لكنك في الأخير التحقت بهم اضطرارا لا اختيارا -لكن ليس دائما. لقد كان بإمكان قارون أن يسلك مسلك من سبقه من الأغنياء المؤمنين، لكنه اعتقد أنه أذكى وأعلى وأفهم: قال عز وجل: "**قَالَ إِنَّمَآ أُوتِيتُهُۥ عَلَىٰ عِلْمٍ عِندِىٓ** "**(الآية 53 سورة القصص).**

وختاما فإن الوصفة الإلهية المعتدلة الجامعة بين سعادتك وسعادة غيرك والجامعة بين العقل والدين تجعلك إن سلكت طريقها أقل عرضة للمعاناة من الأفكار والدوافع غير المرغوب فيها والمرتبطة بالمال غنى كان أو فقرا، وتمكنك من الشعور بمزيد من الثقة في النفس لا في المال، بل وتحيي فيك الأمل للانتقال السلس بين الإنفاق وقبض اليد، وتقيك من صدمات المال والتوترات والمخاوف، وبذلك تتحسن صحتك المالية وأنت في مأمن من الإسراف والتقتير، بل وتحس معها بأنك طورت مشاعر السيطرة والاستقلالية التي تنتج عن الإدارة المالية المعقولة والمشروعة والمخطط لها، مستندا على حقيقة أن المال وسيلتك وليس غايتك، وأنه عبد وليس ربا، وأنك تعلو وتسمو فوقه وليس العكس، وغاية سعيك أن تكون بالمال من الأبرار: قال عز وجل: " لَيْسَ الْبِرَّ أَنْ تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَى حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَى وَالْيَتَامَى وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ ". (الآية 177 سورة البقرة).

تأملات في بر الوالدين
والسلوكيات الايمانية النبيلة

التأمل القرآني الأول: الدنيا والآخرة

متعلقتان بالوالدين

- "وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا"(الآية 23 سورة الاسراء)؛

-"وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ"(الآية 17 سورة الأحقاف) ؛

-"قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا "(الآية 151 سورة الأنعام) ؛

-"وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا" (الآية 36 سورة النساء)؛

-"وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا اللَّهَ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا" (من الآية 83 سورة البقرة).

يتميز الإسلام بدينامية توجيهية تلامس جميع مراحل عمر الإنسان، وتتضمن توجيهات تعانق كل مرحلة عمرية بدون استثناء، من الولادة حتى الوفاة، ومن لطائف هذا الدين أن خصص للأصول العرقية مكانا خاصا، وخصوصا الوالدين، فما أن يبدأ الشعر يتحول من السواد إلى الرماد إلى البياض حتى تبدأ حركية القيم والمعايير والقواعد الإسلامية المرتبطة بالكبر في السن تدب فيها الحياة وتلاحق الأبناء وتؤطر رؤيتهم تجاه من بلغ بهم منحى العمر مرحلة النزول والتناقص والقرب من الديان، تلاحظ وأنت قد بلغت أشدك أن والديك تغير لون شعرهما، وبدت التجاعيد تهاجم محياهما، وتتناقص أمامك كتلة عضلاتهما، ويغزو الجفاف أمام عينيك بشرتهما،

وتتهاوى أمامك مفاصلهما، وتلاحظ بأم عينيك هبوط طاقتهما، ويشد اهتمامك شعورهما السريع بالتعب، ويتساقط بين يديك شعر رأسيهما، بل إن نمط ملابسهما أصبح يبدو لك قديما، كل هذا عليه أن يلقي في روعك بطريقة مباشرة على الأقل أربعة أمور :

-**أولا :** إنك أمام والديك، فلحمك ودمك وعظامك ومالك منهم؛
-**ثانيا :** أنهما في مرحلة الضعف ويحتاجانك كما كنت أنت في مرحلة الضعف تحتاجهما؛
-**ثالثا :** أنك أمام إنسانين لديهما خبرة لا يستهان بها في الحياة، ولا يمكن تجاوزها بسهولة؛
-**رابعا:** أنك أمام مرحلة عمرية حساسة جدا؛

وكلما تقدما في العمر ظهرت أمامك أسئلتهم لتوقظك من الغفلة، فتسمع منهم: أين نحن يا بني أو بنيتي؟ أو ينادونك باسم أخيك، فتلاحظ علامات الضعف متجلية أمامك في الضبط الزماني والمكاني وكذلك في الأسماء الشخصية والشهور والأيام بل قد يتطور الأمر إلى فقدان كامل للذاكرة، والعيش المستمر في الماضي، فلا يرون أحداث اليوم بل لا يستحضرون إلا ما مضى، وتبدو لك الآية الكريمة التالية حية تمشي وتتكلم: "**وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْ لَا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ**" **(الآية 70 سورة النحل)**، ومع كل هذا قد لا يقبلون ضعفهم، ويصعب عليهم سيكولوجيا التحول من وضع القوة إلى حال الضعف، فتتشابك خيوط نفسياتهم، ويكونون في حاجة إلى مصاحبة ورعاية لا محاسبة وعقاب. إنهما في مرحلة نفسية يجرحهما فيها الكلام، ولو كان حرفين اثنين: أف .

إن هذا المنحى من الحياة واكبه الله بالتأطير الأخلاقي والعقلاني ولم يتركه مهملا، بل كان فيه عز وجل واضحا وصريحا وحاسما: "**وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا**" **(الآية 23 سورة الاسراء).**

لقد قرن الله في كل آيات الوالدين هذين الجوهرتين باسمه عبادة وشركا، ووصف السلوك المطلوب تجاههما بوصف الإحسان، والإحسان هنا هو أعلى مراتب الأعمال، لنقل أعلى مدارج السلوك الراقي؛ بل وصف الله شكل التواصل المنطوق والإشاري تجاههما بأن يكون كريما. ومعروف أن الكرم هو جماع الفضائل.

إن كبر الوالدين يرسل إليك رسالة جد مهمة عليك كذلك أن تلتقطها ومفادها: إنك أنت أيضا تكبر، وحياتك تتحول وتتطور وتسير في نفس منحى والديك، التقط الرسالة بدون خوف ولا هلع بل بمسؤولية ووعي وتصالح مع الذات. أما موتهما فيخبرك بمصيرك الآجل، وليس هناك أفضل من هذه الرسالة التي ستدفعك إلى اتخاذ أفضل القرارات في حياتك، واجعلها قرارات إيجابية عليك وعلى محيطك. يعلمك كبر والديك وموتهما قيمة الوقت وقيمة العمل وقيمة الخير .

يبدو أنه مع مرور الزمن نتبادل الأدوار، فبعد أن شاب شبابهم في تربيتنا، سيشيب شبابنا في تربية أبنائنا ورعايتهم.

تحدثوا مع أنفسكم حول حقوق والديكم، واستعدوا لأدائها وأنتم تشاهدونهم يكبرون أمامكم، اسألوا أنفسكم:

- ✓ هل أنا مستعد نفسيا للتضحية من أجلهما ومساعدتهما حسب استطاعتي؟
- ✓ هل أنا مستعد نفسيا لتحمل ضعفهما ورحمتهما ومساندتهما؟
- ✓ هل أنا مستعد للتجاوز عن سلوكات الضعف الصادرة عنهما؟
- ✓ هل أنا مستعد نفسيا وعمليا لإشعارهما بأهميتهما دائما وأبدا؟
- ✓ هل أنا مستعد لو تخلى كل العالم عليهما أن أحتضنهما؟

ما لم تفكك أنانيتك تجاههما فإنك لم تبلغ القيم التي أوصاك ربك بها تجاههما: الرحمة، الإحسان، الكرم .

ما لم تفكك أنانيتك تجاههما فإنك معني بتبعات تمركزك حول ذاتك أمام ربك الذي قرن طاعته وعبادته ورحمته بهما.

شيء أضمنه لك: لو علم آباؤنا وأمهاتنا أننا لن نكون في المستوى حين حاجتهم لنا لكان رد فعلهما تجاه سلوكنا هو: المسامحة. ولا تنس أن فضلهم عليك يمتد إلى ما بعد العالم المشهود، قال عز وجل: "وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ" (الآية 21 سورة الطور).

وبهذا تكون دنياك وآخرتك معلقة بهما. وأخيرا: رب ارحمهما كما ربياني صغيرا.

التأمل القرآني الثاني: الشعور بالذنب

(مراجعة النفس)

تعتبر مراجعة النفس والاعتراف بالخطأ، بل والشعور بالذنب معايير داخلية لتصحيح الاضطرابات السلوكية التي نأتيها في سيرورة تفاعلنا ضمن النسق الاجتماعي الذي نعيش بين عناصره المختلفة، الملموسة منه والمجردة. وتحيل ردة فعلنا تجاه أخطائنا على نوع الشخصية التي تسكننا، هل تلك التي تتعايش مع نفسها ومحيطها في أمن وأمان؟ أم تلك التي تنتج المشاعر المزيفة تجاه محيطها؟ إن النوع الأول ينبثق منه كل ما هو إيجابي، ويخلق البهجة، بل ويشفي بتفاعله النفوس العليلة، والنوع الثاني يخيف وقد يؤذي، ويطور كاريزما مدمرة وسلبية. وقد يبدو هذا التصنيف سهلا لأنه مال إلى الازدواجية في التقسيم، لكنه ضمنيا يحيل على امتناع وجود هذين النوعين على إطلاقهما. لكن يمكن القول إنه لا مجال لنفي أن كل واحد منا وإن كان يحب الخير ويفعله يمكن أن يصدر عنه الشر، إنه الجانب المظلم من شخصيتنا الذي نعمل على الدوام على تهذيبه. ويعتبر الذنب شعورا له علاقة بأعمق لغز في الإنسان إنه، الجانب الآخر من حريتنا، إنه جانبها المعياري، نتجنب ضمنيا أن نكون مخلوقات مدمرة حتى وإن ارتكبنا التدمير، نجد وفاءنا للبناء أكثر منه للتدمير، ونخاف أن يؤدي الشر الذي يمكن أن يصدر عنا إلى المزيد من الشر والشر المضاد، وهكذا نصبح متورطين في عواقب وتبعات السلوكيات المدمرة، ونخاف أكثر من ذلك من تصدير الهشاشة لباطننا في شكل إحساس بالذنب لأن الشعور بالذنب هو أعمق جرح يلامس جوانيتنا، ذلك أنه يذكرنا بالشر الذي يسكننا، ويذكرنا بالظلم الذي فعلنا، ويذكرنا بالضعف الذي يلازمنا لدرجة أننا لا نسيطر على أفعالنا في وقت وجب أن نكون في مستوى التحديات التي تعترضنا. إن شعور آدم وحواء بالذنب وطلب مغفرة الله "**قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ**" **(الآية 23 سورة الأعراف)** دليل على أن الجهاز النفسي للإنسان يستشعر ذبذبات الخير والشر ويقيسها وله معايير للحكم على صوابها وخطئها. وهو نفسه ما قامت به امرأة العزيز عندما شعرت بأن جانب الغواية من شخصيتها استحكم فيها فاعترفت بذنبها "**وَمَا أُبَرِّئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ** " **(الآية 53 سورة يوسف)**، بل هو نفس الإحساس الذي عانق شغاف قلوب إخوة

يوسف لما تعرفوا على نبي الله وما وصل إليه، فطلبوا من أبيهم أن يستغفر لهم: "قَالُوا يَا أَبَانَا اسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا إِنَّا كُنَّا خَاطِئِينَ" (الآية 97 سورة يوسف) ذلك أنه من طبيعة النفس الإنسانية أن تحاول مجاراة هواها في لحظات غوايتها، ومن طبيعتها كذلك أن تتنبه لخطئها ولو فات الأوان كما في قصة فرعون: "وَجَاوَزْنَا بِبَنِي إِسْرَائِيلَ الْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُ بَغْيًا وَعَدْوًا حَتَّىٰ إِذَا أَدْرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ آمَنتُ أَنَّهُ لَا إِلَٰهَ إِلَّا الَّذِي آمَنَتْ بِهِ بَنُو إِسْرَائِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ" (الآية 90 سورة يونس).

وستلاحظون من خلال سيرورة حياتكم ومن خلال القصص القرآني أن الشعور بالذنب قد يضرب بقوة وعمق، حتى يصبح ثقيلا على النفس وتحاول الهروب منه أو تناسيه، لكن هيهات هيهات.

لكن لماذا أصلا الشعور بالذنب؟ ألم يتجه علم النفس المعاصر إلى نهج طرق للتخفيف منه ومقاومته؟ أليس هذا الميل للتقليل من الشعور بالذنب صحيا؟ بل يمكن أن ندعي أننا أكثر من ذلك محكومون بجيناتنا الوراثية، وخاضعون للتأثيرات البيئية الاجتماعية والثقافية، والتعليم، وما إلى ذلك... فيغدو السؤال الأعمق: هل نحن أصلا مسئولون عما نقوم به؟ ألسنا تحت رحمة ظروفنا واستعداداتنا النفسية، وغرائزنا، وبيئتنا بشكل لا يمكننا معه أن نفعل إلا ما نفعل؟ وفي هذا الإطار هل يمكن تبعا لذلك أن نسمي ذنوبنا أصلا ذنوبا؟

أين هو الفرد والإرادة والحرية؟ ألا ينبغي للإنسان أن يتصرف وفقا لضميره بشكل مستقل؟ وهل انتهاك القواعد الأخلاقية التي قد لا يرى المرء أن لها معنى أمر سيء أم جيد؟ ولماذا لا تمنعنا قناعتنا العميقة بالصواب وضمائرنا من فعل الشر وعصيان الأوامر ولو كانت أوامر إلهية؟ ألا نأتي ذنوبنا ونحن نعلم الصواب علم اليقين؟ ما هذه النفس التي تؤمن بشيء وتفعل ضده؟ ألا يعني هذا أننا ننصت أكثر لصوت الهوى أكثر من صوت الضمير؟ ألا يمكن اعتبار ذلك زحفا لأنانيتنا في جانبها الشرير على شخصيتنا؟ وألا يمكن اعتبار الشعور بالذنب بعد ذلك عملية ترقيع نفسية للحفاظ على توازن شخصيتنا؟ أليست الحرية هي غايتنا؟ إذا كان الجواب بنعم: فلماذا نطور الشعور بالذنب عندما نمارسها بالتمام والكمال؟ ألا يعني هذا أن الحرية تتضمن جانبا مظلما يحيي فينا الشعور بالذنب؟ أين المسؤولية من هذا كله؟ ألا يرتبط العيش المشترك

بالمسؤولية أكثر من الحرية؟ أليس الشعور بالذنب هروبا من الهروب الذي سلكناه تجاه معاييرنا؟ أعتقد أن ما فعله أبونا آدم، وامرأة العزيز، وإخوة يوسف ممارسة للحرية بطعم المسؤولية وهو عين الصواب.

تأملات في الوجود

﴿الله سبحانه وتعالى﴾

التأمل القرآني الأول: ما الله؟

نعتقد أنه من الطبيعي أن يسأل الإنسان نفسه في لحظات غير قليلة بسؤال محير مفاده: ما الله؟

وقد يتوجه بهذا السؤال إلى غيره ممن يثق في ذكائهم الإيماني، ويعتقد في كونهم موهوبين ومؤمنين، أو يسكت ولا يسأل مخافة أن يعترض على سؤاله طرف غيره، أو أن يرمى بما هو بعيد عنه. لكن من غريب اللطائف أن هذا السؤال اعتبره الله طبيعيا وعاديا ومشروعا، بل وأعطى إجابات متنوعة عن هذا السؤال الوجودي، فقال لنبيه صلى الله عليه وسلم: "وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ" **(الآية 186 سورة البقرة)**. بل من الجمال واللطف والمحبة والعلو الرباني أنه سمح به لأنبيائه، فقد قال موسى لله مباشرة: " قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ " **(الآية 143 سورة الأعراف)**، إن موسى لا يسأل فقط عن الله أو من هو الله، بل يريد رؤيته مباشرة.

لكن الناس تسأل عن الله مراراً وتكراراً بهدف معرفته، أو بنفوس مليئة بالأمل والحنين والشوق لرب جميل يحسونه في دواخلهم، وأحياناً أخرى بوجدانيات مليئة بالخوف منه أو من واقعهم، بل وقد يسألون عنه في حالات اليأس العميق، وفي بعض الأحيان قد يصمت هذا السؤال ولا يخرج إلى الوجود وإن كان يملأ الصدور، بل يغمرها، وهناك من الناس من يعيش بدون الله لدرجة أنه لا يسأل عنه إما حسما مع نفسه في ألوهية ذاته، أو فقط لأنه لا يهتم بوجود الله من عدمه مع أنه جوانيا على يقين من أن الله موجود. لكن ماذا يعني في الواقع أن نطرح هذا السؤال؟

إنني أعتقد أن من يطرح سؤال الله، يطرح سؤال الوجود، يطرح سؤال هذا الكل المركب الذي يلفنا ونلفه، يطرح سؤال البدايات والنهايات والسيرورات والانتقالات والأزمات والتطورات والعلوم والحيوانات والجمادات والنباتات، لكن هناك أمر أعمق من هذه الموجودات الظاهرة، إن السؤال عن الله هو سؤال عن الإنسان، سؤال عن النفس كذلك، سؤال عن ماهية الإنسان، سؤال عن حريته، وإرادته، وخيره، وشره. ويكاد يكون سؤال الله هو أهم سؤال على الإطلاق في الوجود، لأن ما دونه متعلق به وتابع له لزوما. ومن عظمة الإنسان أنه هو الكائن الوحيد (على الأقل فيما نعرف حتى الآن) الذي يمكنه أن يطرح هذا السؤال، وقد يمكنه الجواب عنه من إيجاد إجابات تهمه مباشرة كإنسان، فهو سؤال حول الله، لكن أجوبته تعانق الإنسان جملة وتفصيلا في

أعماله، وأفكاره، وإنتاجاته المادية والمعنوية، في وجوده ومصيره، وسر حياته، بل في معنى ودلالة وجوده، وطريقة عيشه، ومسالك تنفيذ خطوات برنامج حياته.... لذلك وإن كان يظهر أن هذا السؤال تجريديا فهو في نفس الوقت مرتبط أكثر من غيره بالواقع العملي للإنسان. ولأن السؤال جد مجرد، وجد عملي، ومركب من أعلى درجات التركيب، فلا يمكن لمن يتحدث عن الله أن يقول إنه يعرفه معرفة مطلقة أو أن الله واضح له وضوحا جليا لأنني أعتقد أن الأمر فيه وضوح وغموض، كما أظن أن في هذه الازدواجية في الماهية تتجلى عظمة الله، ويحلو النظر في سؤال: ما الله؟ لأنه لو كان جليا لانتهى الأمر، لكن لكونه جلي وغامض استدعي الإيمان لا العلم، ففي الإيمان بالله شطر علمي وشطر إيماني، والشطر الإيماني هو مربط الفرس. ذلك أن الشطر العلمي متاح كوسمولوجيا ومنطقيا وتجريبيا ولو بنسبة معينة لكل الناس، والشطر الإيماني مخفي، وإخفاؤه هو بؤرة الإيمان ولبه، إذ بالعلم تستوي الحقائق عند الناس وبالعلم والإيمان تتفاوت القناعات والمعتقدات، فيقترب من يريد الاقتراب ويبتعد من يفضل الابتعاد.

لكن أين يمكن أن نجد الجواب عن سؤال: ما الله؟

نحن أمام مسلكين: العلم والدين، ولأن العلماء قالوا لنا بأن أمر الله يتجاوز أدواتهم وهم عاجزون عن فهمه وإيجاد تفسير له، تركوه للأديان بالأساس وللفلسفة بعد ذلك.

أعتقد أنه أمام سؤال: ما الله؟ تنهار وتتفكك لغة الإنسان ومفاهيمه، وتعجز عن بلوغ ماهيته، وبالرجوع إلى الدين وهنا أقصد الإسلام بالخصوص باعتباري مسلما، أفترض أن الجواب عن سؤالنا يقتضي منا البحث لا في كيف فكر الإنسان في الله (الفلسفة-علوم الدين...) بل كيف عرف الله نفسه للإنسان؟ ماذا قال هو عن نفسه عز وجل؟ وسيكون تحليلي مشدودا ومسيجا بإيماني به، لا بشكي في وجوده، فلا يهمني من شك، لأنني مؤمن به، والإيمان عندي من مقتضيات معرفة الله، فكل مقطوع عن الإيمان مقطوع عن الجواب عن سؤال: ما الله؟ ذلك أن العلم أعلن منذ زمن أن الله يتجاوز منهجياته وأدواته وحتى دائرة بحثه واهتمامه.

يتحدث الله عز وجل عن نفسه بأنه نور السماوات والأرض، وأنه حي قيوم، وبأنه رحيم، وبأنه شديد العقاب، وبأنه خافض ورافع، ومحيي ومميت...كل الصفات والأسماء تقول الكثير مما نفهمه من دلالاتها، كما قد يصيبنا العجز في فك دلالات ما نعتقد أنه يتناقض منها، بل إن الله عز

وجل يحمل صفات نعتقد أن الإنسان يشاركه فيها، بل أكثر من ذلك يوجد في كل شيء، وفي كل الاتجاهات، وفي نفس الوقت لا نراه وليس كمثله شيء، لهذا قلت أن اللغة والمفاهيم تنهار أمام الله فهي لا تسعه عز وجل، فكما أنه أخبرنا بهذه الصفات أخبرنا كذلك بأنه لم يلد ولم يلد، وأنه لا شبيه له، وأنه لا كفء له، إنه من خلال سورة الإخلاص ينزع الشبه عن نفسه بالإنسان بالمطلق، وبذلك يزيل المصداقية عن منهج تفكيرنا فيه وهو قياسه على الإنسان. مما يجعل تصورنا عنه يهتز ويرتعد ويسقط لأن سُمك وكثافة مفهوم الله عالية ومتجاوزة لماهية الإنسان. وهنا يجتمع في النظر إلى الله وماهيته عز وجل جانب فيه شيء من الوضوح قياسا على معرفتنا بالإنسان، وجانب فيه إخفاء لا ندرك عناصره لأنه يستدعي الإيمان لا العلم بمعناه المعاصر، فالله لا يُعرف تجريبيا بالحواس والملاحظة والقياس. وما أن نواصل البحث حتى يزداد الأمر تعقيدا في قصة إبراهيم مع الكواكب والنجوم، لينزع الله عن نفسه الشبه بالكائنات الأخرى لأنه يعلم أن الخيال الإنساني قد يذهب به إلى أبعد مداه في تخيل الإله القاهر الكبير العالي المتعالي في السماء. هنا يضعنا أمام تحد فكري واعتقادي ومنهجي آخر ومفاده أن كل أنواع القياس التي ستخطر على بالكم ليست مناسبة لي وأنا لست ما تتصورون، سبحانه. أما مع قصة موسى ورؤية الله، فقد زاد الأمر كثافة وعمقا، إذ نزع الله إمكانية رؤيته من أصلها في هذه الحياة الدنيا جملة وتفصيلا من طرف الإنسان في وضعه وإمكاناته الحالية، إذ كان كافيا فقط أن يتجلى الله إلى الجبل فينهار هذا الأخير، وينهار معه موسى عليه السلام ويفقد وعيه، ليقول لنا عز وجل: إنكم غير مجهزين في الدنيا بأية أدوات حسية يمكن أن تدركوني بها، فلا يبقى أمامكم إلا الإيمان. وبآية "**لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ** " **(الآية 11 سورة الشورى)**: نزع الشبه عن أي شيء نعرفه، وانهارت أدواتنا بالتمام والكمال ولم يبق إلا الإيمان أو الكفر.

وعليه، يمكن فقط أن نقول ما ليس هو الله لكن لا يمكن أن نقول بالضبط ما هو الله لأنه أخفى نفسه عنا في هذا الوجود المنظور ليظهرها لنا يوم لقائه في الوجود غير المنظور، واكتفى في هذه الدنيا بإعطائنا أدلة منطقية وأخرى علمية توصلنا إلى احتمال وجود الله ولا تفي بالاقتناع العقلي العلمي المطلق إلا إذا عانقت الإيمان، ولو جعل الله الأمر علميا وتجريبيا بالمطلق لأصبح شيئا وظاهرة قابلة للبحث، بل لما أصبح إلها ولدخل في زمرة الأشياء التي يسيطر عليها الإنسان بالعلم، وهو منزه عن ذلك لأنه "**سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ**" **(الآية 159 سورة الصافات)**، فكما أن الإنسان حر ويمتلك إرادة ، فإن حرية الله وإرادته لا حدود لها حتى أضحت حرية الإنسان

وإرادته من فيض الله على الإنسان، وبناء عليه يفعل الله ما يشاء في الوجود ويتنزه في ملكه ويظهر ما يشاء ويخفي ما يشاء. أليس هو: "بَدِيعُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ وَلَدٌ وَلَمْ تَكُن لَّهُ صَاحِبَةٌ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ" **(الآية 101 سورة الأنعام).**

إنه عز وجل مختلف تمامًا، بل يكاد يكون غريباً على الجميع وفي نفس الوقت معروفا للجميع، يظهر نفسه ويخفيها بعلامات أو الهامات أو أحداث. لكن هذا بالضبط هو ما يجعلنا نعتقد أن التفكير في الله يستدعي التحدث إليه لا عنه، وبما أراده هو لا بما نريده نحن، ولم لا أن ننخرط في قصة إيمانية معه عز وجل كقصة رمضان وأيامه، أو قصة الحج، أو قصة أزمات الخوف، أو الفرح.... إن الجواب عن سؤال ما الله؟ يفترض بناء عليه، أن نكون على استعداد للبحث عنه تعالى في ملكه، لاكتشافه كما يقدم نفسه هو لا كما قدمه لنا غيرنا من خلال تأملاتهم واجتهاداتهم، وأن نكون أكثر جرأة في طرح سؤال جوهري مهم: هل واقعنا التجريبي منفصل عن المعنى؟ وهل سلوكاتنا منفصلة عن المعاني؟ وهل ما نعتقد أنه واقع تجريبي هو بالفعل الواقع الحقيقي أم أن اجتهادات غيرنا فصلت الواقع بناء على أدوات القبض عليه، فما أمسكت به اعترفت به، وما تجاوزها استبعدته؟ وهل استبعاده يحيل على كمال المنهج أم العكس؟ وكيف السبيل إلى مناهج أعمق وأدق تتصف بالتكامل لا بالاختزال؟ دعونا نحلم معكم ولا تحاسبوننا على أمانينا وآمالنا، ونتمنى أن تقبلوا منا تأملاتنا، والله ولينا جميعا.

التأمل القرآني الثاني: مع الله

إن صنائع الله في الوجود لا حصر لها، فالإنسان الأول لم تكن عنده أدوات ولا إمكانات الإنسان المعاصر، إذ كان في مواجهة الطبيعة لوحده فقط، وبدون تراكم معرفي سابق، فاكتشف النار، والزراعة...وفكر في الله، وأراد أن يعبد، وعبد بالتأكيد ما علمنا وما لم نعلم من الآلهة، فكان بالتأكيد موحدا، وكان منه من عبد الشمس والحجارة والأصنام والنار...، ألا يقول هذا التواتر في البحث عن إله أن الفجوة بين الأصل ومكان التواجد كبيرة لا تملؤها مظاهر الوجود، فيسعى الإنسان إلى البحث عن أفق أعلى وأرحب لتجاوز فجوة الوجود المادي، ألا يدل ذلك على وجود الله؟

أليس في حقيقة استمرار الخوض في هذا الموضوع على امتداد تاريخ البشرية دليل متواتر لحقيقة الألوهية التي تسكن هذا الكائن، فهو إما أن يَعبُد أو يُعبَّد؟ أي إما أن يبحث عن إله أو يتألّه، إن ملايير الناس مقتنعون في جميع الأعمار ومن جميع الثقافات وعبر كل الأزمنة بوجود إله. بل إن هذه الملايير من الناس تتشكل من مجموعات متنوعة وواسعة من الخلفيات الاجتماعية والفكرية والمستويات التعليمية تبحث دائما وأبدا عن إله يستحق العبادة. إن مجرد وجود هذه الحقيقة التاريخية الممتدة عبر الزمن يعطي للوجود الإلهي شرعية وقوة وإن كانت من طبيعة الحال غير كافية، وفي الدراسات الأنثربولوجية المختلفة يظهر أنه حتى أكثر القبائل البعيدة في الزمن لديها إيمان بالله. في أقدم تاريخ للشعوب وأساطيرهم، هناك دائما إله خلق العالم. في حالة الأديان الشركية أيضًا، تشير الجذور إلى إله أعلى ومبدع.

لا يقنعني شخصيا التفسير النفسي التحليلي للدين والذي يعتبره وهما طفوليا. إذ يتم التعبير عن رغبات الطفل العاجز عن الحماية من أخطار الحياة، فيرى أن سر قوة الدين هو قوة هذه الرغبات الجامحة في الحماية، وما يصدق على الأفراد يمكن تعميمه على البشرية جمعاء. وعلى الرغم من أن سيرورة التفكر في الله مثيرة للإعجاب، ورغم ممارستها لكثير من التشويش على الأديان فإنها لم تستطع إنهاء تسلل الله لكل شيء في الوجود، إذ أن جميع الحجج ضد الإيمان بالله التي أثيرت خلال الوقت السابق، من مثل أن الله هو شكل من أشكال ملء الفجوة التي نتجت عن الأسئلة والمشكلات العلمية التي لا يمكننا تفسيرها في الوقت الحالي، أو أنه كمقولة دينية سيختفي مع تقدم العلوم (الوضعية) ؛ أو أن الله ليس سوى إسقاط الإنسان لرغباته وشوقه...(.L

Feuerbach) كلها باقية لكنها تترنح أمام ظهور أشكال جديدة من التدين خارجة حتى عن الأديان السابقة مما يعني أن فكرة الله تستعصي على الإمساك بها علميا وفكريا لسمكها من جهة، وسرعة حركتها من جهة ثانية، وثقل مضمونها من جهة ثالثة، ونعومتها أثناء ملامستها لشغاف القلوب، بل وسحرها الذي يغري بخوض التجربة الذاتية مع المتعالي والاطمئنان إليه وملء فجوة وجودية لا انفصام لإنسان عنها.

وبناء عليه، فكل ما سبق يجد صعوبة في الصمود أمام الواقع التجريبي الذي يفيد يقينا أن الأقوياء، وأصحاب السلطة بالقوة أو بالمال أو العلم...(فرويد) متدينون رغم أنهم لا يحتاجون لحماية بل هم من يحمي ويهدد، بل إنني أعتقد أن الذي يتغير هو شكل التدين لا جوهره، ففي حالة ما كانوا يعتقدون في قوتهم فإنهم إما يتدينون باتباع دين معين أو يخلقون عبيدا لهم ينتظرون منهم تقديم طقوس الطاعة والعبودية فيتربون ويتحولون هم إلى آلهة، وبذلك يتدينون على منوالهم الخاص، وما يهمني هو أن الدين يسكنهم عابدين أو معبودين، فلا ينفصل التأله عن الإنسان أبدا، وأعتقد أن فكرة الله هي التي تكمن وراء كل هذه التمظهرات، وكأني بفكرة الله تغدو دواء أو شقاء للأفئدة الهواء، فتشفي الجروح النفسية للفراغ العبودي المتمكن من النفوس رغم مدافعتها له ولو بكَبْته أو تبريره، ويمكن أن نعتبر التفاسير المختلفة التي تعطى للدين ولو كانت ضد فكرة الإله نفسها أدلة على وجوده لأنها لا تخرج عن جدال أزلي حول الله، إننا باستدخالنا وتفعيلنا لفكرة الله في دواخلنا يمكننا عبور الحدود النفسية التي يشكلها فراغ المعنى ويزكيها الخوف من هزيمة محققة يقينية هي هزيمة الموت.

إن من وراء الدين واختلاف طرق ممارسته، فكرة محورية واحدة هي: الله. التي لم نستطع اختراقها علميا ولا فكريا لأنها أعز من أدواتنا ومناهجنا، ولم يترك لنا إلا خيار الإيمان به كسبيل للقرب منه جزئيا، وسبيل العلم والفكر للقرب منه كذلك جزئيا، لأن أعمال الله في الوجود وصنائعه توفر المتعة الفكرية والعلمية لمن يبحث عنه، وقد نكتفي فقط بالسعادة التي تكتنفنا ونحن نكتشف خبايا صنائعه، دون الوصول إليه، لأنه يحجب نفسه عنا دون تفعيل خاصية الإيمان فينا، فبالإيمان تزول كثير من تلك الحجب، ولا نستغرب أن هذه الحجب قد تستمر مع المكتفي بذاته وتمتعه والمستغني عن الله حتى في العالم العلوي: قال عز وجل: "كَلَّا إِنَّهُمْ عَن رَّبِّهِمْ يَوْمَئِذٍ لَّمَحْجُوبُونَ"**(الآية 15 من سورة المطففين)** ، وعليه، لا أمل في الوصول إلى الرب

الرحيم بنهج الاكتفاء بواحد من مصادر البحث دون تطوير الإيمان وفك عقدة التكبر، وهكذا يبقى الإيمان إيمانا مركزيا ولا يحل محله أي شيء آخر إلا شيئا يمكن أن يكون مسلكا موصلا إليه.

إن التفكر والنظر وممارسته باستمرار يوصلك إلى حقيقة مهمة وهي أن التفكر نفسه برهان الله على وجود الله، ذلك أن العقل وإعماله يجعلك تستنتج ما لا يمكن استنتاجه بدون بذل جهد النظر، لكن ما أن تبدأ في التأمل حتى تحس وكأن أسرابا من الأفكار تهاجمك، إنه نور العقل الذي يمكن أن يتحول إلى قوة الفعل، إنها المعادن والثروات المعرفية والوجدانية والسلوكية المطمورة في دواخلنا، إنني اعتقد أن وراء هذا المجرد قوة لا قوة بعدها، إنها سيرورة تؤكد صدق قول الله عز وجل للملائكة: "فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ" **(الآية 29 سورة الحجر)**.

لماذا أنت بالضبط، أيها الإنسان دون غيرك من ينبجس من داخله نور العلم إما تأملا، أو قياسا أو تجريبا؟ لأنك يقينا مزود بجهاز قوي لمعالجة الأفكار من جهة، ومعالجة معطيات العالم الخارجي من جهة ثانية. ولا تنس أنك بفعلك هذا تحقق قوله عز وجل لملائكته " قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ" **(الآية 30 سورة البقرة)**، وهنا مرة أخرى أعتقد أن فكرة الله وراء كل هذا، بل أعتقد أن الله يكشف لك عن نفسه من خلال ما أودعه فيك من قدرات لا توجد في غيرك، فهل تحسست وجوده؟

إن منهج الإخفاء الرباني المقصود واكبه أمر جوهري في تاريخ البشرية وهو الكشف عن صنائعه وأعماله بوضوح وتقرير لا مساومة فيه ومعه، وأوامر ونواهي منها المحكم ومنها المتشابه ليساعدنا على اكتشاف خطته ورؤيته، وذلك من خلال أشخاص مختارين بشكل فردي مثل إبراهيم وموسى ومحمد صلى الله عليه وسلم وباقي الأنبياء، وحتى اختياره لهؤلاء جاء غالبا على عكس ما اعتادت عليه أقوامهم في كل شيء، سواء في معايير اختيار الشخص، أو مضامين التعاليم الدينية، إلى طرق تبليغها، ولقد ألبس كل شيء لباس الألوهية الكامل لا لباس الإنسية، فلا دوران ولا تنازل، قال تعالى: "إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي" **(الآية 14 سورة طه)**، لا أريد منك أي شيء آخر إلا أن تنتبه لمن هو معبودك، وإذا اخترتني كمعبود فعليك أن تأتي بمقتضيات العبادة طوعا لا كرها، وإذا اخترت غيري فلك ما تريد، وسأفعل ما أريد

بعدل وبدون أي ظلم. لذلك لا يمكن لمؤمن أن يشترط على الله، بل يطيعه، ولا يمكن لمؤمن أن يقول لله ما عليه أن يفعل، وكيف عليه أن يفعل، ولم فعل ما فعل ولم يفعل ما كان عليه أن يفعل وفق ما أريده أن يفعل، أتعرفون لماذا، لأنه وضع قاعدة إلهية عليا لا نقاش فيها للمؤمنين:" **لَا يُسْـأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـأَلُونَ** "**(الآية 23 سورة الأنبياء)**. أما غير المؤمنين فغير ملزمين بها ولا بمقتضياتها لأنهم لازالوا في مرحلة تِيهٍ أو بحث أو تجاهل. أو تدين لإله آخر له صفة الضعف والزوال ويُتحكم فيه وفي أقواله.

وأنا أقرأ في العلوم العصبية وإمكانات دماغ الإنسان هالني ما وجدت، فالعقل البشري يعالج كميات هائلة من المعلومات بالتوازي. يدرك دماغنا الألوان والأشكال المحيطة بنا، ودرجة الحرارة من حولنا، والضغط الذي تلمس به أقدامنا الأرض، والموسيقى التي تستمع إليها بالتوازي، وجفاف فمك وأنت جالس أو تمشي صائما أو مفطرا، وحتى نص هذه المقالة التي تقرأها. إن دماغك يتذكر ويستحضر العواطف والأفكار والذكريات، وفي الوقت نفسه، يتحكم دماغك في جميع العمليات اللازمة للبقاء على قيد الحياة: التنفس، ونشاط القلب، وتجهيز الطعام وتحويله بداخلك. بل إن دماغك أيها الإنسان يقوم بمعالجة أكثر من مليون معلومة في الثانية الواحدة. ويفحص جميع المعطيات التي يصادفها، إنه جهاز يمكنه معالجة مليون وحدة معلوماتية، وفي نفس الوقت يختار ما هو مهم ويضع الأفكار موضع التنفيذ ... هل يمكنك أن تدعي بعد هذا أن مثل هذا الجهاز الخطير القوي جاء صدفة أم ماذا؟ إن فكرة الله شخصيا هي التي يمكنها أن تجيبني عن هذا التساؤل، ولمن شاء أن يقتنع بجواب آخر فله ذلك، لكن كيفما ما كان الجواب فالله هناك، قال عز وجل: "**قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاء لاَ يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلاَ ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَى وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُواْ لِلّهِ شُرَكَاء خَلَقُواْ كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ**" **(الآية 16 سورة الرعد)**.

التأمل القرآني الثالث: الله نور

هكذا تكلم الله عن نفسه في سورة النور، فحتى السورة أخذت هذا الاسم الجليل.

"اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ"

(الآية 35 سورة النور).

تأتي الظلمات في التنزيل الحكيم بصيغة الجمع لكن النور يحضر دائما بصيغة المفرد، فنور واحد بإمكانه اختراق حجب كل أنواع الظلمات، فالله نور يخترق ظلام الكفر، وظلام التكبر، وظلام الظلم والاستبداد، وظلام الفقر، وظلام الجهل، وظلام المرض، وظلام العبث، وظلام الوجود مجموعا ومتفرقا، إنه يخترق كل هذه الظلمات ويكشفها لخطورتها، ويعريها لأضرارها الكامنة فيها، لأن الظلمات لا تكشف عن نفسها بنفسها فلا نور يسكنها.

إن الله باعتباره نورا ومصدرا للنور يزودنا عبر رسائله بأدوات إضاءة معرفية واعتقادية وسلوكية، والإضاءة الجيدة هي الطريق الأسلم لجودة حياة أفضل. لأن الأنوار المعرفية الوجدانية السلوكية تعمل على تأثيث ساعتنا الضوئية الجوانية التي بها نرى ونقيس ونحكم ونتخذ القرارات صغيرها وكبيرها، سهلها وصعبها.

إن من طبيعة الأفكار والأفعال والأماكن المظلمة أنها باردة، وغير مريحة، فهي إن كانت مكانا فإنها قبر أو غار أو سرداب، ولا يعيش فيها ولا معها أي إنسان براحته، أما إن كانت سلوكات مظلمة فهي كل قبيح من الأفعال، والقبح لا علاقة له بالحسن لا في صورته ولا في ماهيته ولا في نتائجه ولا في مآلاته، فهي بشعة، بل إن بشاعتها تلف هوية من يأتيها من الناس إلى درجة أنه يمكن أن تسمى باسمه ويسمى هو باسمها. أما إن كانت أفكارا، فإنها أبشع وأكثر فظاعة، لأن الفكرة البشعة المظلمة هي التي أنتجت السلوك القبيح، بل ربما كانت وراء بناء الأماكن المظلمة من زنازين ومغارات وسراديب. لا شيء أقبح من الفكر المظلم أيا كانت خلفيته. وكل مظاهر الظلمة هذه يجليها خيط نور واحد فتنبعث فيها الحياة لأنه لا حياة في الظلام، ولأن الله نور ومصدر النور فهو حقيقة لا مجازا يناقض الظلام، إذ النور عدل وخير ورؤية واضحة... أما الظلام فلا يشير إلا إلى

الشر والظلم والفواحش. إن نور الله ينبسط ويقتحم من يعانق رسائل الله، حتى أن: نورهم يسعى بين أيديهم ويطلبون منه المزيد بل يطلبون كمال النور: "نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَانِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَاغْفِرْ لَنَا إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ " (الآية 8 سورة التحريم).

إن نور الله يوفر من خلال إضاءته التوجيه ويزيل الخوف والعتمة على المعتقد فيه. إن نور الله عندما نُفَعِّله في وجودنا يصبح بوصلتنا. ولأن النور فيه أشعة وحرارة فإنه يمدنا بالطاقة التي لا غنى للحياة الإنسانية عنها. تصوروا معي لو أن النور ذهب، فماذا سيبقى؟ ظلمة وبرودة وانتهاء الحياة، سيتجمد كل شيء. ولكي نواصل في نفس السياق أتساءل معكم، لماذا كان دليل موسى إلى الله عز وجل نارا؟ في قوله تعالى: "إِذْ رَأَىٰ نَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا لَّعَلِّي آتِيكُم مِّنْهَا بِقَبَسٍ أَوْ أَجِدُ عَلَى النَّارِ هُدًى" (الآية 10 سورة طه). أليس في النار دفء يحتاجه موسى في رحلته هذه التي كانت في فصل الشتاء؟ بل أليس في النار نور أضاء لموسى الواقع المنظور وسينير له الوجود غير المنظور. والجميل في الأمر أن ما أثار موسى هو الضوء المنبعث من النار، وكأن النور بطبيعته ينادي ويدل على نفسه. إن موسى نفسه ربط وجود النار بأملين مهمين: التدفئة من البرد، وإيجاد الهدى، والهدى جاءت نكرة، وهي دليل على انفتاح الاحتمالات الموسوية على كل الإمكانات الإيجابية المؤدية إلى الرشاد في عمومه دينا ودنيا.

لا أشك لحظة في أن نور الله اخترق كيان موسى وجعله يختار طريقا معينا، واتجاها معينا، ومكانا معينا للبحث عن الهدى، ونور الله هو ما سدد عقل موسى الذي كان مؤمنا بالله عز وجل فقد تعرف على الله من سيرته الذاتية قبل بعثته، نعتقد أن ملكة العقل قوة خفية تمارس الضغط على الشخص نفسه ليستفيق، فأشعتها ساطعة في الداخل، ولا يمكن أن تتهرب منها، وتريد هذه الأشعة أن تلامس الخارج وما عليك إلا أن توجهها وجهتها الصحيحة، ووجهتها على ثلاث مراتب: الذات المفكرة العاقلة نفسها باعتبارها محل تفكر، المجال الطبيعي الإنساني الذي تعيش فيه هذه الذات باعتباره موضوع تدبر، و أخيرا أصل هذه الذات وأصل مجال فعلها ومآل هذا الكل الذي تتفاعل فيه مع غيرها من الذوات. لقد كان هذا المقصد والنهج ديدن موسى والأنبياء عليهم السلام.

إن الله تعالى هو البيان المطلق، إذ لا توجد معه أماكن الظلام، بل ولا الأماكن الرمادية لأنه أحصى كل شيء عددا، ووسع كل شيء علما. وأود أن أقول بأن صفة النور هذه تذكرني باستعارة عصر التنوير لنعت النور المتضمن في الأساطير والأديان والفلسفات القديمة. إنها مرحلة من تاريخ البشرية تم فيها تفعيل العقل وسلطته بحزم وفعالية مع ما دونه من مصادر المعرفة، ويمثل بحق صراع المعرفة ضد الجهل، بل ويتم فيه عزل الخرافات عن العلم بغرض جعل الجهل شفافا أمام نور العقل.

وعلى رأي (جون لوك) أنه إذا كان الله ينير العقل بالضوء الخارق، فإنه لا يطفئ الضوء الطبيعي الممنوح لنا في حدود تجربتنا. إن الفحص الذاتي الاستطرادي لهذا الضوء الطبيعي عن طريق العقل هو القاضي الأعلى والقائد في كل شيء، لذلك ومن باب الانسجام مع قناعته جعل (لوك) قضايا الدين وغيرها خارج إطار العلم التجريبي كما في مقاله الشهير (**مقال في الفهم الإنساني**). وهذا نفسه من نور الله، أن نستطيع أن نعرف ونعترف بحدود كل منهج في التعاطي مع العالم المنظور والعالم المستور.

لكن دعوني أسألكم كيف يخترق نور الله أدمغة الناس؟ وهل كل الأدمغة تتفاعل مع نور الله؟ جاء في التنزيل الحكيم: "**أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ، وَلَكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ**" **(الآية 46 سورة الحج)**، وتحتوي الآية على منبهات لغوية وأخرى حسية وثالثة طبيعية، فمن تلقاها تفاعل معها كإشارات يمكن أن توصله إلى الله أو يمكن ألا توصله إليه حسب الجهد ودرجة الانفتاح على المتعالي، وهناك من لا يستقبل هذه المنبهات أصلا ولا تعني له أي شيء.

إن هذه الإشارات تهدف إلى جلب الضوء إلى الدماغ أو لنقل نور الله إلى دماغ الإنسان، ووسيلتها هي التأمل الذاتي من جهة، وفحص المنطوق ودلالته، وإخضاع المرئي للبحث والتفكيك، أو على الأقل خلق وتطوير افتراضات معينة، أو إخضاع الافتراضات المسبقة الناتجة عن التجربة الثقافية للسؤال؟ وعليه، فنور الله، يبدأ بأمر بسيط هو استشكال الأشياء اليومية البديهية. إن هذا النهج أصله نور رباني ومخرجاته أنوار عقلانية مسددة بمعية الله، إذ يصبح معها ما كان مظلما مضيئا، إنها خطوات إيجابية تسير بنا إلى ما يرغب فيه الله وهو: إعمال العقول وتشغيل الأحلام (جمع حِلْم أي العقل). وعندما لا نسعى لاكتشاف أنوار الله في الوجود نتحول إلى كائنات

مظلمة، استقالت من التفكير، فهي إما تابعة لأجدادها الذين فكروا لأنفسهم وأوقاتهم، أو ميتة خربة تعيش حياة الأنعام أو ربما أضل.

لا يمكن أن يكون لنور الحقيقة في العقل سوى دليل الحقيقة بناء على المعطيات التي يمكن للعقل التحقق منها بسبب وضوح وصحة برهانها، ولا يمكن أن تكون نتيجة ما يصل إليه الناس من حقائق علمية مصادمة لنور الله إلا في أذهان من لم يستوعب هذه الحقائق أو لم يستوعب كلام الله أو لم يستوعبهما جميعا. ولذلك أينما كان نور العلم كان نور الله لأن هذا الأخير هو الأصل، أما نور العقل فهو قبس بسيط في لحظة زمنية من علم لا نحيط به ولن نحيط به أبدا، وذاك هو معنى قوله عز وجل "**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ** " **(الآية 255 سورة البقرة)**، أما الإحاطة بأصل النور فمحال كما قال عز وجل في الآية السابقة.

إن تكوين جهاز سليم لاستقبال نور الله يتم من خلال الانضباط الذاتي المحرج لما نعتقد أنه حقيقة، لأن العقل السليم متمرد بطبعه على التقليد والتبعية لأي كان، لكنه مع ذلك يحتاج إلى تهدئة الوجدانيات الثورية المنبعثة بسبب شكوكه حتى يتخذ القرارات الصحيحة لأن النور قد يتحول إلى نار، فيحرق ويحترق، فلا ظهرا أبقى ولا أرضا قطع، وفي نفس الوقت عليه من جهة أخرى أن يقوي القدرات والمشاعر الأكثر نبلا كي تكون حركته بالفعل تحمل نورا وتضيء لغيرها، ذلك أنني أعتقد أن العقل نفسه قد يسعى للتمرد على أصل النور بل على نفسه، فيعتقد بأنه هو النور وأصل النور، ولقد سبق أن أوضحنا أن الإنسان نزاع إلى الألوهية إما عابدا أو معبودا. يحتاج العقل إلى إعمال نفسه في نفسه، والاعتراف بحرية الآخر وبإمكانية ظهور النور على يد الغير، بل يحتاج العقل إلى التدرب وهو في طريقه لمعانقة الحقائق النورانية على التسامح مع الجهل وفي بعض الأحيان قبوله إذا كان مسلكا مؤديا للغرض النبيل، كما عليه أن يعانق الصعوبات بصبر لمعانقة المزيد من النور. بمعنى أعم وأدق لا عقل بدون أخلاق. إن النور هو القطب المعاكس للظلام، والعقل غير المتخلق مظلم لأن غايته مظلمة، ومسلكه مظلم ونتيجة فعله أكثر عتمة وظلاما، وفقط باستحضار مصفاة الأخلاق نكون قد نجحنا في استيعاب نور الآية الكريمة التالية، وتجنبنا مضمونها: "**الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا**" **(الآية 104 سورة الكهف)**.

التأمل القرآني الرابع: شروط الجدال في الله

"وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يُجَادِلُ فِي اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ".

(الآية 8 من سورة الحج)

تحيل هذه الآية الكريمة على أن الجدال في الله لا يخيف الله، ولا يخيف المؤمنين بالله بشرط أن يكون مستوفيا لشروط تجعله يرقى إلى مستوى الجدال الباني النافع، وهذه الشروط كان أولها: العلم وجاء في الآية نكرة، ويقصد به حسب فهمنا أي علم يساعد المتجادلين على الوصول إلى الحق، والشرط الثاني، جاء كذلك نكرة وهو (هدى)، والمقصود به هنا كل ما يمكن أن يهدي المتجادلين إلى نور الحق أيا كان، وفي الأخير كتاب منير، وهو كذلك نكرة، أي كتاب يمكن أن ينير طريق المتجادلين في الله، وقد يكون وحيا كما يؤمن به المؤمنون أو قد يكون كتاب علم مادي، أو كتاب منطق، أو كتاب حفريات، أو كتاب فيزياء أو أي كتاب منير، أي كتاب يحوي علما يوجه بوصلة التفكير ويحدد اتجاهاتها في جدالها في الله.

وعندما نتحدث عن العلم فإننا نعني أنساقا معرفية ممنهجة، وجهازا مفاهيميا دقيقا، ويبدو أن مصطلح "علمي" يشير دائمًا إلى نهج محدد يتم من خلاله تحقيق هدف محدد واكتشاف قوانين سيرورات الحياة على مستوياتها المختلفة.

ويفترض في هذا السياق أن يكشف العلماء عن نهجهم الذي استثمروا للوصول إلى نتائجهم لكي يتمكن الآخرون من التحقق من كل خطوة عمل وكل تكرار لنتيجة معينة، فطبيعة العلم تتطلب الشفافية المعرفية والمنهجية لتجنب الادعاءات غير الصحيحة المبنية على المغالطات المنطقية أو بيانات القياس غير الصحيحة أو الاستنتاجات العبثية. وعليه، فكل جدال في الله لم يستوف الشرط العلمي يكون لغوا لا غير، لأن غاية العلم هي الفهم والتفسير، والله يريدنا أن نفهم ونفسر لكن بأعلى درجة العلمية الممكنة نظرا لتعقد الخلق على جميع المستويات بناء وتطورا ومآلا. لم يحدد لنا الله عز وجل علما معينا في هذه الآية، بل فتح أمامنا كل الاحتمالات العلمية وجنبنا كل أشكال الانطباعية والعبثية.

هب أنك لم تكن عالما، ولا تمتلك كفاية التعاطي مع دقائق العلم، فإن لك في الآية تحديا آخر مفاده، ابحث عن (هدى)، أي عن موجه، أو طريق، أو علامة تساعدك على التموقع العقدي الوجودي لا المكاني أو الزماني، إنها بالفعل مسألة جد معقدة عندما نتحدث عن (هدى)، وكأني بالله عز وجل خلقنا في عالم متعددة وكثيفة ومتزاحمة أفكاره ومعتقداته، كثافة توصل من يتيه فيها إلى الظلام الدامس من المعتقدات، لكنه حملنا رغم ذلك مسؤولية البحث عن النور الذي يسكنها، والنور هنا هو الموجه للتوازن العقدي والموصل إليه، إننا مسافرون وسط كم هائل من الأنوار الحقيقية والأنوار الزائفة التي ما أن تصلها حتى تجدها سرابا وظلاما، والمسافر المتمرس منا هو ذاك الذي يميز مع مرور الزمن وغنى التجارب الشخصية بين الأنوار الحقيقية والزائفة. ولا أستبعد شخصيا أن تكون الأنوار الموصلة إلى الله كثيرة ومتعددة وغنية غنى الغني الحميد. إننا لكي نتوازن عقديا نحتاج إلى معرفة اليمين واليسار العقدي، والصالح والطالح العقدي، والأعلى والأسفل العقدي، إنه تموقع في أمكنة الكينونة الوجودية المتعددة، إن التعدد إرادة الواحد، والمطلوب الخروج من الاعتقاد في المتعدد إلى الاعتقاد في الواحد. إن إيجاد الهدى الموصل للتموقع العقدي، هو إيجاد للنفس المشتتة بين المتعدد وتجميع لمكوناتها.

لا غرابة إذن أن يكون فقدان الهدى دليل اضطراب داخلي وتيهان خارجي يستمر معنا حتى يجد كل واحد منا في لحظة من لحظات حياته ما يعتقد أنه الهدى الذي يبحث عنه، وعليه، فالهدى الذي جاء في الآية نكرة دليل على أن لله في كونه أدلة كثيرة تهدي مختلف أصناف الناس إليه، من عالمهم إلى إنسانهم البسيط الذي لا يعرف حرفا ولا يخط رسما. والجدال في الله يستدعي أن يكون جدالا هاديا لوجهة منيرة، وعلى صاحبه أن يعرفها ويتأكد من كونها تحمل صفة الهدى وإلا فإن الجالسين على طريق التضليل أكثر من الجالسين على طريق الهدى، فالجدال في الله نفسه طريق للهداية عند الله لمن سعى إليه. وأعتقد أن الله يثق في عقولنا إذا ما اشتغلت بعلم واستنارت بهداية أيا كان هذا العلم وتلك الهداية لأنه أينما تولى الإنسان بفكره فتم وجه الله ما صلحت نية البحث عن الحق.

وآخر شرط للجدال كان في الآية: "**وَلَا كِتَابٍ مُنِيرٍ**" **(الآية 8 من سورة الحج)**، وحتى هذا الشرط جاء نكرة، أي أنه يتضمن كل ما دونه الإنسان أو أوحاه الرحمن ويمكن أن ينتشلك

من الاضطراب إلى الهدى. الجدال في الله من أخطر وأصعب القضايا التي تحتاج على الأقل التسلح بعلم أو نور يهدي، أو كتاب منير، لكن ما هو الكتاب المنير؟

إنه أي كتاب يحمل نورا بداخله، يحمل علما بين ثناياه ويدلك أو يساعدك على فك رموز الوجود وفهم واجد الوجود، إذ يمكن أن يكون كتاب الكون، أو كتب الوحي، أو كتب العلم على اختلاف تخصصاتها، فأينما وجد النور فتم الطريق إلى الله. أليس الله نورا؟ وعليه فكل نور هو من نور الله، فنور العلم، ونور العمل، ونور الاعتقاد كلها أنوار. لكن خلف كل هذا هناك قضية منهجية مهمة هي التي ستوصلك إلى مختلف الأنوار، إنها الشك الدافع إلى البحث عن النور وإلا ما أنزل الله هذه الآية أصلا في كتابه الكريم، أليس السعي للجدال نابع من شك معين؟ لكن الآية نفسها تدقق أكثر عندما تمكننا من أن نستنبط من خلالها أنه ليس كل شك شكا، بل كثير من الشكوك هي خيالات وظنون وأوهام لأنها لم تتسلح لا بعلم ولا بهدى ولا بكتاب منير.

التأمل القرآني الخامس: الله، الإنسان وإرادة الحرية

تحيل بعض الآيات القرآنية الكريمة على لطيفة سيكولوجية تعرف بالتفاعل العكسي، أو ما يمكن أن نطلق عليه: المقاومة النفسية .

إنني أعتقد شخصيا أن الله لم يفاجئه أبدا سلوك آدم عليه السلام، ولا معصيته لأمره، بل كان يعرف تماما أن آدم سيعصي، بل ومعصيته أمر لا مفر منه لأنها سبيل الهبوط إلى الدنيا، واعتقادي هذا نابع من كون الله عالم كل شيء من جهة، ومن جهة ثانية مكننا علم النفس من اكتشاف آليات اشتغال النفوس، ومن هذه الأليات آلية الاستجابة العكسية أو التفاعل العكسي عندما يتعلق الأمر بالمنع أو الحظر أو التضييق .

تأملوا معي قوله عز وجل: في سورة البقرة: "وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ" (الآية 35 سورة البقرة).

وفي سورة الأعراف: "وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ" (الآية 19 سورة الأعراف).

لم يحرم الله على آدم من المأكولات أي شيء إلا ثمار شجرة واحدة، وتخيلوا معي الكم الهائل من المأكولات التي لم تُمنع، إنها تعد بالملايين أو على الأقل بالآلاف، والمنع طال شيئا واحدا ووحيدا. إن ما يوجد أمام آدم من أنواع الأشجار لا يعد ولا يحصى، فهناك أشجار اللوزيات، والحمضيات، والنخيل، والرمان، والزيتون والصنوبر....وما لا نعلم لأن فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.

لكن لماذا يا ترى يختار آدم ما لا يحتاجه أصلا وهو مستغن عنه ويعصي ربه؟

أعتقد أن فعل المنع الذي ربطه المولى عز وجل بشجرة واحدة من دون كل الأشجار كان هدفه اختبار آليات اشتغال النفس الإنسانية باستحداث وضعية إشكالية تستدعي استجابة معينة حسب نظام الصناعة الربانية، فالبديع المتعال يعلم يقينا أن هذا المخلوق يجب وفقا لمكونات وآليات اشتغال نفسه أن يكون رده عكسيا على أمر يمس حريته ولو كان هذا الأمر إلهيا،

فكان ما أراد الله، وثبت في الجنة عند الرحمن الرحيم البديع المتعال أن الإنسان مارس حريته كاملة بعصيان أمر إلهي يحد من هذه الحرية، فتأكد الإنسان من حريته في الملكوت الأعلى وغفر الله له خطيئته في الملكوت الأعلى بممارسته لحريته، لكنه عمل على إنزاله إلى الأرض لممارسة هذه الحرية ممارسة تضمن له البقاء، والتطور والتفوق وفق قوانين علوية تجلت في الرسالات السماوية، وكذلك تجلت في قوانين وضعية تتمثل في اجتهادات الإنسان لتطوير الضوابط والقواعد القانونية التي تضمن له العيش المشترك. إن ممارسة الإنسان لحريته تجاه أمر رباني يحيل على قدسية مبدأ الحرية عند الله ممارسة وحفظا من كل شطط، وعلى الإنسان أن يدير حياته وفق قواعد تحفظ هذه الحرية وتحفظ من شططها .

إن النفس الإنسانية تتفاعل عكسيا مع كل الأوامر التي تضيق من حريتها، وهي بهذا السلوك تسترجع ما تعتقد أنه مهدد بالنهب والاحتيال، بل والسحب النهائي وهو: حرية الوجود. فالإنسان صممه الله ليعتقد يقينا أنه حر ويريد ممارسة حريته، وعليه فإما أنه سيمارسها علنا وفق القوانين، أو يمارسها سرا خوفا من القوانين السالبة لها، أو يعمل على تغيير القوانين بالقوانين أو بالثورة على القوانين. وهذه من اللطائف التي تسكن آية المنع الرباني في الجنة. فالمنع يتضمن حدا من الحرية التي نعتقد أنها غاية وجودنا، والله أوكل لنا بتوجيه منه مسؤولية ضبط منحنيات هذه الحرية بشكل لا تطغى فيه حرية البعض على حرية البعض الآخر.

لكن ما معنى قوله عز وجل:"فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ " **(الآية 20 سورة الأعراف)؟**

لقد كان دور إبليس هو تحريك الآلة النفسية لتكتمل سيرورة البناء واتخاذ قرار تجاوز المنع، إن التفاعل العكسي مع الأوامر يكون حسب السيكولوجيا مرتبطا بإحساس الإنسان بالتضييق على حريته من جهة، وكذلك إذا أحس أن هذا المنع سيفقده ميزة معينة لا سبيل للوصول إليها إلا باقتحام حائط المنع. إن منهجية التفاعل هذه تشير إلى التأثير النفسي الذي تمارسه المغريات على سيرورة اتخاذ القرارات التي تظهر فيها البدائل الجديدة الممنوعة أكثر جاذبية، ومع عنصر الحظر أو المنع تصبح الأمور الجذابة أكثر جاذبية إذا ظهر للإنسان أنها

محدودة وممنوعة. وعليه، جمع الله لآدم سببين كافيين ليمتحن إنسانيته لا ملائكيته ولا شيطانيته، فكان جليا أن هذا المخلوق حر ويقرر بنفسه، وعليه فقد صمم الله عز وجل مخلوقا من نوع خاص، فكما عصى هذا المخلوق ربه، يمكن أن يعصي شيطانه، ويمكن أن يعصي نفسه ويستقل بقراراته وفق منطق إنساني حر. الإنسان مخلوق مؤهل ربانيا ليعيش حرا.

التأمل القرآني السادس: لغة الملكوت الأعلى مدهشة وشمولية

إن قراءتي للآيات القرآنية المتعلقة بالحوار العلوي بين الله والملائكة وآدم وإبليس جعلني أطرح سؤالا لا أملك له جوابا، لكن يمكنني على الأقل أن أتأمل فيه، ومفاده: ما هي اللغة التي تكلم الله بها وفهمها الإنسان والجن والملائكة في الملكوت الأعلى؟ بالتأكيد هي لغة جامعة واحدة تفهمها كل هذه المخلوقات لأن الحوار الذي تم في الملكوت الأعلى حضرته كل هذه الكائنات، وعليه، أعتقد أنها لغة شمولية يمكن أن تكون أصل جميع اللغات الأرضية المتعددة، لغة تتضمن القوانين التي تسربت إلى باقي لغات العالم، ولأنني لست لغويا بالدرجة الأولى فلا يمكنني إلا أن أفترض افتراضات لا يمكن التحقق منها، إنها افتراضات تقع على رأي (كارل بوبر) خارج دائرة التجربة وبذاك لا يمكن تكذيبها ولا تأكيدها، لذلك أدخلها في دائرة التأملات الإيمانية الخاصة بي، وهذا الفضول المسيج بالإيمان قديم قدم الأديان، وهو نفسه ربما الفضول الذي يدفع علماء اللغة إلى البحث عن اللغة الأصلية الأولى بالبحث في القواعد النحوية في أدمغتنا. إنهم يعتبرون هذه القوانين الخفية شفرة مهمة يجب اكتشافها بتفاصيلها وتفكيك عناصرها لأنها ربما تنتمي لشيء فطري خلق فينا. بمعنى أن هناك اعتقادا بوجود كيان تجريدي يتجاوز الكلام إلى نظام رمزي مبثوث في الإنسان اسمه اللغة الأصل، وربما ما أكتبه أنا الآن لا يعدو أن يكون شكلا من أشكال اللغة الأصل، بل حتى الباحثين في اللغة ستكون لغتهم نفسها شكل من أشكال اللغة اليومية المتعارف عليها بين فئة معينة من الناس ولا تحتوي إلا على رموز محدودة من اللغة الأصل، وبناء عليه، أعتقد أن الإنسان مزود بنظام فطري جد مركب يتم تفعيل بعض مكوناته في بيئة اجتماعية معينة حسب الرموز اللغوية السائدة فيها، وأذهب أبعد من ذلك لأدعي إلى أن الذي يحمل اللغة الأصل أو النظام المركب الشمولي ليست عقولنا أو أدمغتنا بل أرواحنا التي نعلم اسمها لكن نجهل هويتها. فالنفخة الروحية ذات الأصل الإلهي هي التي تحتوي على النظام اللغوي الكلي، أما عقولنا أو أدمغتنا فتعالج مجموع الرموز التي استدخلناها في تنشئتنا الاجتماعية، وقد تكون رموزا عربية، أو إنجليزية، أو أمازيغية، أو فرنسية، أو هذا كله أو بعضه حسب السياق الثقافي والاجتماعي الذي نتواجد فيه.

فما ينتجه أو يعالجه الدماغ من معطيات لغوية ليس إلا ما يمكنه منه سياقه الثقافي، وكلما اتسعت مدخلات الدماغ كلما استثمر مكنونات الروح اللغوية الشمولية المبثوثة في روحه

وفعَّل كثيرا من عناصرها. وكلما انغلق الإنسان واكتفى بلغة واحدة سقط في فقر لغوي وهوياتي يناقض كينونته التعددية الروحية.

إن المعتقد الإيماني يمدنا بمعلومات نؤمن بها وغير ملزمة للعلماء، لكننا كمؤمنين يمكننا أن نتأملها، فقد تكلم الله مع إبليس والملائكة والإنسان بلغة فهمها الكل، وتعلم سليمان منطق الطير، بل حاور الحيوانات مجتمعة في قصة ملكة سبأ، فما هي العناصر اللغوية التي تم تفعيلها في نبي الله سليمان لكي يفك كثيرا من الرموز اللغوية الحيوانية والجنية؟ هل الأمر يتعلق بالوحي أم بالتعلم: "وَوَرِثَ سُلَيْمَٰنُ دَاوُۥدَ ۖ وَقَالَ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ ٱلطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَىْءٍ ۖ إِنَّ هَٰذَا لَهُوَ ٱلْفَضْلُ ٱلْمُبِينُ" (الآية 16 سورة النمل).

يبحث اللغويون في لغة الإنسان فوق الأرض، وتفسيراتهم تتجه إلى فهم نشأة اللغة عند الإنسان بعدما نزل واستقر فيها، وسؤالي حول لغة الله مع مخلوقاته المتنوعة في الملكوت الأعلى قبل النزول إلى الأرض؟

يبدو أن هناك الاحتمالات التالية:

- ✓ أن الله تعالى خلق في الملكوت الأعلى مجمل مخلوقاته بإمكانات لغوية مركبة أي أنها متمكنة من كل اللغات؛
- ✓ أن الإنسان والجن والملائكة كانوا يتكلمون كل اللغات في الملكوت الأعلى؛
- ✓ أن الله جعل هذا التركيب قابلا للتفكيك والاختزال والتضييق على الأرض؛
- ✓ أن هذه المخلوقات بعد اتصالها بالأرض يمكن لعناصر تركيبها أن تستقل عن بعضها وفق نظام المجتمع الذي ستعيش فيه، فلا يتم تفعيل إلا ما يتيحه المجتمع من إمكانات؛
- ✓ أن الملكوت الأعلى له لغته الخاصة الجامعة للشتات اللغوي فوق الأرض.

ومما أعتقد في صوابه أن الإنسان وغيره من المخلوقات فوق الأرض مزود فقط برموز معينة ومحروم من رموز أخرى، فنحن لا نفهم الحيوانات إلا في ما تمكنا من تعليمهم إياه، والعكس صحيح، كما أننا لا نرى جميع المخلوقات فبصرنا نفسه محدود، ولا نسمع كل الأصوات فسمعنا محصور، زد على ذلك ان كل المخلوقات أعطي لها وصف قرآني مثير في سورة الأنعام

للتفكير والدهشة: "وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُم مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ " (الآية 38 سورة الأنعام)، فما معنى أمة؟ أليست ثقافة، لغة، نظام، مجال جغرافي...؟ دعونا نتأمل.

تأملات في شروط وخصائص

الدين والتدين

التأمل القرآني الأول: التدين سمو ونظر إلى الأعلى

كما يظهر من خلال الآيات الكريمة التالية:

-"سَبِّحِ ٱسۡمَ رَبِّكَ ٱلۡأَعۡلَى" (الآية 1 سورة الأعلى)؛

-"إِلَّا ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِ ٱلۡأَعۡلَىٰ" (الآية 20 سورة الليل)؛

-" قَدۡ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجۡهِكَ فِي ٱلسَّمَآءِ " (من الآية 144 سورة البقرة)؛

التدين سمو ونظر إلى الأعلى، سمو ذاتي إلى الأعلى، سمو بالحياة في معارج العلو، نظر متواصل إلى الأعلى. إنه تجربة تمتد إلى ما وراء الحدود لتشمل جميع عمليات الحياة عارجة بالكل إلى الأعلى. لكن شرط تحقق العلو معانق لشرط تحقق الإيمان، فلا علو اعتقادي لمن لا إيمان له. إن العلو خروج من النفس وبقاء فيها لأنه خروج داخل حدود الإنسان، فهو تسامي وخروج لا يتجاوز حدود المحدود، ولكنه يمكن أن يعالج شرطية وغموض الحياة البشرية ككل باعتبارها ذات كينونة ميتافزيقية يستهويها رغما عنها وباختيارها الاستفسار عن اللانهائي وإن لم تجد له جوابا ماديا. العلو يجذبنا لأننا كائنات خلقت أصلا في العالم العلوي وتحن إلى كينونتها الأصلية.

لماذا ننظر إلى الأعلى عندما نريد أن نتنهد؟ نركز؟ نتأمل؟ ندعو الله؟ ولماذا يتولد لدينا شعور غريب عندما ننظر من أعلى؟ ولماذا نتحدث عن فهم أعلى وفهم أدنى؟ ولماذا نصبو إلى الصعود إلى الأعلى؟ أليس في محاولتنا للصعود دليل على سعينا للاقتراب بوعي أو بدون وعي إلى من نتوجه إليه؟ إلى من نعتقد بأنه في الأعلى؟

إن العلو سمو في المكانة والمكان، وعليه فإن سلوكاتنا مؤمنين وغير مؤمنين تحيل على عملنا المتواصل لبلوغ مكان ومكانة كلنا نريدها : إنها القرب من الأعلى، وقد نسعى لتحقيقها هنا فتتحقق، ولكن ما أن نبلغ علوا حتى يبدو لنا بأن هناك من هو أعلى وبأننا أدنى، ثم نعاود المحاولة في التسلق وهكذا دوليك .

لكن إذا كان هناك أعلى، ونسعى كلنا لهذا الأعلى مكانا ومكانة فلماذا نفر من الأسفل؟ من الأدنى؟ نفر من الأسفل في المال، في الترتيب، في المجتمع.....أيها الناس هناك أسفل و أعلى في كل شيء....ويقينا أن التفكير في الملكوت الأعلى أعلى شكلا ومنهجا ومضمونا من التفكير في ما دونه لكن لا يلغيه. فقط لا تسعوا لعلو يطغي أو يختلط بفساد. فالناظر من أعلى إن كانت نظرته منشؤها تموقعه في مكان أعلى وغير مرتبطة بشعور استعلائي فتلك غاية أهل العلو العقلاني الأخلاقي، وإن كان علوه مولد لشعور بالاستعلاء فقد صدق عليه قوله عز وجل: إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي

الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ ۚ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ (4).

تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ (83) القصص

قد يورث العلو الفساد والظلم أيا كان نوع هذا العلو ولو كنت مسؤولا فقط عن أسرتك أو نفر قليل من الناس يعتبرونك أعلى.

أضيف إلى ما سبق أنه يوجد بين العالم الحقيقي الذي نعيش فيه والعالم العلوي الذي نسعى لبلوغه عالم ثالث في منزلة بينهما، يتضمن هذا العالم البيني بعض عناصر العالم الحقيقي وبعض عناصر العالم العلوي، لذلك تلاحظ في كثير من وضعيات عيشك انك تتعالى وتتسامى بأفكار وقيم لا قبل للعالم الواقعي بها، كما تتدنى بقناعات وسلوكات لا سبيل للتعالي والتسامي بمعانقتها، بل تجرك إلى الحضيض والدناءة جرا، والعالم الواقعي المعيش من صنعك وصنع بني جلدتك، والعالم البيني عالم التقاء العالمين، والعالم العلوي عالم مستقل ينفتح عليك ويزودك بالزاد المناسب حسب درجة تأملك وعمقك وصدقك. العالم العلوي مصدر للتسامي، ألا ترون أننا حينما نريد أن نفكر وندقق ونضبط ننصرف بأعيننا عن الأسفل وننظر إلى الأعلى. إن نظرتنا إلى الأعلى إلى السماء سعي لا واعي للتسامي وبلوغ العالم العلوي. العالم العلوي عالم جذاب بذاته. والإنسان مخلوق مجبول على الانجذاب لكل ما هو جميل وعال وحسن وفي نفس الوقت يمارس عليه العالم السفلي جذبا خاصا وقويا نحو القاع. اللهم قربنا إليك، اللهم اجعلنا ممن يسمو على سفاسف العالم الدنيوي ويعرج إلى العالم العلوي فكرا ورحا وعقلا.

التأمل القرآني الثاني: الصالحون مؤمنون وعاملون

"وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَنُدْخِلَنَّهُمْ فِي الصَّالِحِينَ"

(الآية 9 سورة العنكبوت).

تشترط الآية القرآنية محل التأمل اليوم شرطين أساسيين للصلاح أو للدخول إلى نادي الصالحين: الإيمان والعمل الصالح، فلنقف مع كل واحد منهما بادئين أولا بالإيمان:

الإيمان علاقة مباشرة بخالق الكون، علاقة ناتجة عن دهشة المخلوق من صنائع الخالق وتعددها وتنوعها وتنظيمها وامتدادها في الأزمنة والأمكنة، إنه إحساس بوجود سر خفي تنتظم فيه كل مكونات بنية الكون المستمر في الاتساع، دهشة مسكونة بأسئلة الأصل والحضور والاختفاء والمصير، يكاد أن يكون الإيمان إصرارا لا يفارق الإنسان بأن هذه الحياة لا يسكنها العبث ولا تنتهي في المشهود من الأمور، بل تخفي وراءها عوالم لا يوصل إليها إلا الإيمان، وعليه يغدو الإيمان جواز عبور لعوالم غير عالمنا، إن الإيمان إذن تعبير جواني عن إرادة الاستمرار في العالم الميتافزيقي، إن الإيمان إرادة بل إنه عند المؤمنين يقين جازم بالاستمرار في الوجود في عالم علوي مفارق للوجود العيني. ومن أجل استمرار استحضار قوة الإيمان كدافع استشراف لحياة علوية أنقى وأزهى وأعدل، يكون إيمان المؤمنين معرضا على الدوام لهزات الشك المنبعثة من تغيرات الوجود وتطوراته ومستجداته، وعليه، لا يثبت الإيمان ولا يكون حيا إلا إذا كان هو نفسه قابلا للتغيير والتطوير، فإيمان الأمس ليس هو إيمان اليوم، وإيمان الغد لن يكون هو إيمان اليوم، فبقدر ما يتقدم العلم ويتعمق فهم الواقع يتطور ويتغير ويتعمق الإيمان، الإيمان يقين مسكون بالشك المتواصل المؤدي إلى تجديد الإيمان وتعميقه. لكن الإيمان لا يشير إلى شيء يمكننا إثباته أو حسابه أو قياسه لأنه متفلت ومتجاوز لأدوات بحثنا، بل إن العلم نفسه بمناهجه اعتبر الإيمان خارج دوائر اهتمامه لأنه لا يمكن الإمساك به منهجيا، فالإيمان ليس معرفة علمية، أو تاريخية، أو أسطورية، أو أدبية، أو تقنية، لكن المؤمن يمكنه أن يستأنس بكل هذه المعارف لتثبيت إيمانه وتجديده وتعميقه لأنه مسكون بالشك ومعرض للتناقص، بل للتبديل. ضمنيا ومن خلال ما سبق

يمكن أن نعتبر الإيمان طريقا طويلا من البحث، إنه بحث في الوجود، وبحث عن واجد الوجود، وبحث في الذات نفسها ومنحنيات تقلباتها .

لكن لا يكفي أن نبحث عن المجرد فقط، بل إن الإيمان الحقيقي يدفعنا إلى البحث عن العيش الجميل الهادئ السعيد، يدفعنا للرفع من جودة حياتنا بناء على مضمون قيم ومعايير وقواعد معتقدنا الذي نومن به، زد على ذلك يدفعنا إلى البحث عن سبل إسعاد غيرنا لأن في سعادتهم سعادتنا العاجلة والآجلة.

إنه بالإيمان المتلبس بالإنسانية نرفع نوعية العيش المشترك بيننا، لأن إيماننا يهذب نفوسنا، ويمنعنا من إذاية غيرنا، والكذب عليهم واستغلالهم وأكل أموالهم والاعتداء عليهم، بل إن الإيمان يفتح أعيننا على عالمنا بشرا وحجرا وشجرا وحيوانا وتفاعلات... إيماننا يسائل هذا الوجود كاملا لكن كذلك يفعل فيه الخيرات ويقاوم فيه الشرور، وعليه، فكل نفس جرداء من القيم الإيمانية تكون أقرب إلى الشر منه إلى الخير، لكن انتبهوا: كل هذا يحتاج إلى البحث المستمر في مضامين إيماننا ومتعلقاته والعمل الدائم على تطويره كما وكيفا.

إن إيمانا من هذا النوع هو الذي يدخلنا في زمرة الصالحين، وليس الإيمان البارد، أو الإيمان النرجسي أو الإيمان المبني على الكراهية أو الإيمان النفعي بمعناه الانتقائي... الإيمان مليء بالأمل هنا وهناك، وغارق في الحب للناس والموجودات وواجدها.

بعد أن تناولنا خاصية الإيمان باعتباره أحد الشرطين للدخول في زمرة الصالحين، نمر إلى الشرط الثاني الذي جاء في الآية محل التأمل وهو خاصية العمل الصالح، ونقول بإذن الله ما يلي:

أعتقد أن العمل الصالح يتضمن كل أفعال الخير تجاه الموجودات وتجاه النفس، ومعيار الصلاح يتضمن بالأساس مجموع ما تعارف عليه المجتمع الذي نعيش فيه من أفعال الخير وتقييمه لها على أنها أفعال صلاح. ولأن المجتمعات تتطور وتتغير فإن مضمون الصلاح هو أيضا يتغير ويتطور، فصلاح اليوم ليس هو صلاح الأمس ولن يكون هو صلاح الغد وإن كان بينهم جميعا خصوص وعموم. وعليه، فالصلاح نسق من الأفكار والأفعال التي تتقاسمه جماعة ما والتي يعتقد أفرادها على أنها كذلك وفق معايير وقيم توجيهية معيارية لماهية الصلاح التي تشكل جملة المبادئ التي تتحاكم إليها أمة من

الأمم اعتقادا ومآلا. لكن الصلاح جاء في الآية موصولا بالإيمان، مما يدل على أن الإيمان لا يمكن أن يدل على الشر أو الفساد أو الإفساد، ومن ثم فإن أي مؤمن أوصله إيمانه إلى عكس الصلاح فإن ما يؤمن به أو مضمون إيمانه أو هما معا مدخولان قيميا ومعياريا وفيهما أو في أحدهما قول.

قلنا إن العمل الصالح يتوجه بتأثيره على الأقل إلى نفس فاعل الصلاح من جهة، وإلى محيط الفاعل من جهة ثانية/ كيف ذلك؟

إن كل فعل نقوم به سواء كان صالحا أو فاسدا نكون نحن أول المستفيدين أو المتضررين منه، فكل الأفعال التي يأتي بها الإنسان هي أولا أفعال في نفس هذا الإنسان قبل غيره، فأثرها فيه سابق عن أثرها في غيره، ذلك أنه حسب الجشطالتين فإن المعرفة والسلوكات وكل شيء مرتبط بغيره وله علاقة به أيضا، فلا وجود لمُنعَزِل، وعليه، فالإنسان مطالب باستحضار هذه العلاقة التأثيرية التأثرية وامتداداتها، فكل شيء جشطالت بما في ذلك أنت في علاقتك بنفسك وسلوكاتك. فلو أخذنا سلوك الاستكبار مثلا، فهو بداية استكبار في النفس، أي أنه إعجاب بالنفس وغرور جواني/داخلي يحس معه المستكبر باستعلاء غاية في النشوة والاستمتاع نتج عنه استكبار خارجي تجلى في إتيان سلوكات تحقيرية تبخيسية تجاه الآخر كيفما كان. إن الاستكبار الخارجي هو تجل لاستكبار داخلي. وهو ما سمي في آية قرآنية أخرى: بالعتو. إنه تجاوز في التعامل مع الغير. والمستكبرون لا محالة هم عتاة "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا" **(الآية 21 سورة الفرقان)**. إن شرط العمل الصالح إذن كان الهدف منه الاستمرار في التأثير على الذات أولا وبشكل إيجابي لتنتج فيما بعد سلوكات بانية للمحيط، وعلى هذا كان شرط العمل الصالح سبيل دخول نادي الصالحين، لأنه فعل يزكو بشكل مستمر بالنفس من جهة، ومن جهة ثانية يؤدي إلى فعل إيجابي في الواقع. فالأشخاص السعداء جوانيا أي داخليا هم الأقدر على تصدير السعادة لغيرهم، والعكس صحيح، ذلك أن التجربة الإيمانية المولدة للأفعال الإيجابية تجعلنا نتجاوز حدود ذواتنا لنؤثر إيجابيا على محيطنا. لكن هل الصلاح معناه الخلو من الشرور؟

لا تعني حقيقة أن الإنسان صالح أنه لا يوجد فيه شر، بل أعتقد أن نواياه ودوافعه دائماً صالحة، بل يغلب عليها مقصد الخير، ويسعى إلى فعل الصواب، لكنه قد يخطئ في الفعل لا

في النية ويفاجئه الواقع بما يجعله أقرب إلى الزلل منه إلى الصواب، لذلك نعمل على جعل صلاح النية يمتد الى كثير من أفعال الصالحين تغليبا لمقاصدهم على سلوكاتهم.

إن الأفعال الصالحة إذن مطلوبة لأنها شرط استمرار صعود الإيمان في النفس وبالتالي في المجتمع، وبديهي في السيكولوجيا المعاصرة أن فعل الخير يبني التوازن في النفس ويحسسها بالمتعة ويشكل بنياتها لدرجة أنه أصبح هذا الموضوع جوهريا في السيكولوجيا الإيجابية منذ 1998 تاريخ تَرَؤُّسُ السيكولوجي الكبير (Martin Seligman) لأكبر هيئة نفسية أمريكية. وبناء عليه، افعلوا الخير تصحوا، وزاوجوا بين الإيمان والعمل الصالح، فهما متلازمان لا يفترقان، وابتعدوا عن الشر فإن يعديكم ويلوثكم جوانيا، ويبسط سيطرته على سلوكاتكم خارجيا، ويخرجكم من زمرة الصالحين.

التأمل القرآني الثالث: الدين في مواجهة الغباء الإيماني

"وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ"

(الآية 179 سورة الأعراف)

يعتبر الغباء انحدارا في الفهم، وضعفا في تلقي إشارات العالم الخارجي والداخلي والعمل على فك رموز مواضيع الفهم. وحسب القرآن الكريم يلامس الغباء الإنس والجن، فكثير من الإنس لا يعقلون وكثير من الجن لا يفهمون، ولقد دفعني هذا الأمر إلى التفكير في فرضية وجود علاقة أو صلة أو قرابة في طبيعة هذين المخلوقين، خصوصا وأن الرواية الإسلامية والمسيحية واليهودية تسلم بقصة الخلق بشكل يكاد يكون متطابقا وما لعبه الشيطان من دور في نزول آدم عليه السلام، فالملائكة سجدت، وإبليس من الجن رفض.

وعليه، فالغباء الإيماني أمر قديم قدم هذين المخلوقين، والاعتقاد بأن الإنسانية المعاصرة فيها غباء أكثر من الماضي لا يمكن التسليم به أبدا، فليس هناك أغبى من مخلوقات رأت المعجزات، وعاصرت الخلق، ورأت الأنبياء، واستمعت للرسالات وهي تتنزل ولم تؤمن، الغباء الإيماني ربما ذاهب إلى التراجع مثل الغباء العلمي، فالإيمان يتقدم بتقدم العلم والعكس صحيح، ويكفي أن ننظر إلى الوراء في تاريخ الإنسانية لنعرف منسوب الغباء والهمجية والظلم فيما نقله التاريخ إلينا بغض النظر عما طمسه الزمان. الإنسان في الماضي كان بالتأكيد أبلد من الإنسان المعاصر، وهذا لا ينفي وجود استثناءات مبهرة كانت هي الطريق الرباني لاستمرار التطور والانعتاق من سيطرة البلادة على الإنسانية، حتى أن من مأثورنا أن نسمع أنه يجب أن ننتظر مئة عام ليبعث الله لنا من يجدد ديننا، وعلى المستوى الماكرو ننتظر قرونا لمعايشة قفزات في الرياضيات والبيولوجيا والفيزياء...للتطور والتغير. لقد أكد (داروين) على أننا نشارك أو نتشارك مع أنواع أخرى بعض الأصول، وإن كان في نظريته شيء من الصواب فربما تصلح أن نقول عن أنفسنا بمسحة إيمانية أننا نشارك الجن في بعض خصائصها ذات الصلة بماهيتها وطرق تفكيرها. ربما لم يفكر (فرويد) في الجن لأنه متفلت ولا يستطيع العلم ولا التحليل النفسي الإمساك به، لكن ندرجه

نحن من باب توسيع نطاق التفكير في الغباء الإيماني. هذا الاخير الذي يعني عندنا انتفاء الشعور والإحساس بالإيمانيات والعجز عن فك رموز الإشارات العلوية واستيعابها، وكأن على حاسة الإدراك عند بعض الإنس والجن غبارا يغطيها ويحول بينها وبين الفهم، ولا غرابة أن تكون كلمة الغباء في اللغة العربية تعني الغبار الذي يكون فوق الأشياء ويواريها. وكما أن الذي لا يفهم في الرياضيات يزعج الرياضيين، والذي لا يفهم في الفلسفة يزعج بضجيجه الفلاسفة...فالعلماء الربانيون، بل وكل المؤمنين يجدون إزعاجا من الأغبياء إيمانيا. إن الإنسان لا يمكن أن يكون فقط كائنا منطقيا وعلميا واجتماعيا ونفسيا وسياسيا واقتصاديا ولا يكون كائنا دينيا، بل الأكيد أن الذي ينفي الصفة الإيمانية لوحدها عن الإنسان فيه بلادة وغباء إيماني. ولو نظرتم إلى قصص القرآن والعهد القديم والجديد، بل وتاريخ البشرية لهالكم عدد الاغبياء إيمانيا، بل ولو انطلقتم تلاحظون وتراقبون عدد الأغبياء في مختلف الميادين لعلمتم أن الغباء لا يتسلط علينا فقط في المجردات، بل في كل لحظة تحدثنا فيها بما لا نعلم ولا نتقن، فتجد الغبي في الطب، والغبي في السياسة، والغبي في التجارة...ولأن أمر الإيمان ميتافيزيقي ومصدره علوي، فإن أي حشر لذات الإنسان فيه باعتبارها ذاتا عالمة لا يؤدي إلا إلى الكشف عن غبائها الإيماني. ولا تتعجبوا إن تأكد لكم مع مرور الزمن أن كثيرا ممن تعتقدون بذكائهم ونباهتهم سرعان ما يظهر غباؤهم في أول امتحان فيما لا يتقنون، بمعنى آخر، إن الغباء صفة تلازمنا عندما نتطاول على ما يتجاوزنا. ومن فوائد الغباء تعميق البحث في فهمه من جهة، والتصدي له من جهة ثانية، وتعميق العلوم البيداغوجية لتسهيل إكساب المعرفة لمن يعانون من صعوبات التعلم في مختلف التخصصات بما فيها الإيمانية من جهة ثالثة.

يكاد يكون الغباء خاصية اجتماعية ملامسة لكل المجتمعات البشرية، وحبذا لو تكرم أهل السوسيولوجيا للبحث في سوسيولوجيا الغباء وأهل السيكولوجيا في سيكولوجيا الغباء...إنني أجد في بعض الأحيان أن الإنسان يتفوق على نفسه في غبائه، بمعنى أن نفسه لم تكن تتوقع من نفسها أن تأتي من الأفعال والأقوال ما يصدر عنها في لحظة غبائها، حتى أنه عندما نخلد إلى النوم يهاجمنا ذكاؤنا الإيماني ليقول لنا: إنني لا أفهمك، ماذا قلت؟ كيف وصلت إلى هذا الرأي؟ هل تفكر بأداة أخرى غير التي نشترك فيها؟ الذكاء مسكين لا يعلم أن النسق أكبر من عناصره. زد على هذا أنني أعتقد أن احتمال أن تكون غبيا إيمانيا لا علاقة له بمستواك الدراسي ولا الاقتصادي ولا نسبك ولا حسبك، بل له وصل مباشر بقدرتك على زيادة تراكم الغبار فوق الأدلة المتاحة أمامك والتي لا

تدركها، بل لا تريد أن تدركها، لأنك تملك إرادة تحريك الغباء لا تفعيل الذكاء. ومن غرائب اللغة أن يكون الذكاء في اللغة العربية هو لهيب النار، إنه يحمل النور المضيء الذي يستطيع إذابة الغبار، أي الغباء الراكد فوق مثيرات العالم الخارجي والتي تدل على الإيمان. الغباء ليست له ثقافة ولا جنسية ولا حضارة بعينها، الغباء معطى موجود بالبداهة، فإما أن ترفعه أو يزداد سمكا. لا تتعجبوا إن وجدتم أن الغباء يسكن بين الفقراء والأغنياء، والطلبة والأساتذة والسياسيين والتجار...ما من مجال إلا ويعاني من أغبيائه، وهناك دراسات علمية دلت على هذا الأمر وليس المجال هنا للحديث عنها.

وفي الإيمانيات يأتي الأنبياء على مر التاريخ بالمعجزات والأدلة العقلية والمنطقية والكسمولوجية واللغوية والتاريخية الموثقة بالدليل، بل التي عايشوها ورأوها ورغم كل ذلك فالأغبياء إيمانا لا يؤمنون، الإيمان ذكاء ميتافزيقي خاص بأهله، يشتركون مع غيرهم في الذكاء المنطقي والعاطفي ...ويتميزون بالذكاء الإيماني. ولا يفوتني أن أدعي أن الإيمان نفسه إن بقي متوازنا دل على ذكاء، وإن انزاح تحول هو الآخر إلى همجية باسم الإيمان، كما تتحول العقلانية إلى بربرية باسم العقل من خلال تبرير كل أشكال الاستغلال والظلم. فنكون آنذاك أمام بربرية مبنية على غباء إيماني وهمجية مؤسسة على غباء عقلاني.

إن الشي الذي يؤكده تاريخ الإنسانية هو أن الإنسانية حافظت بشكل استثنائي على تكرار نسبة الغباء في جميع محطات تاريخها حتى أن أتعس لحظات التدمير هي تلك التي يصل فيها الأغبياء إلى السلطة ويقررون في الحرب والسلم، وكما تعلمون أن معاشرة غبي وتحمله يكون شيئا مؤلما للنفس فما بالك إن أصبح هو من يقود ويسوس وعليك أن تطيعه، فالشخص الغبي يؤذيك ويلحق الضرر بك وهو في أعلى درجات الانشراح والنشوة بل والاعتقاد في الذكاء وخدمة البشرية، وهنا فقط وفقط بإعمال العقل نزيح الغباء من كل جوانب حياتنا بما فيها الإيمان.

ولو بسطت لكم الآيات التي تحدث فيها الله عن الغباء من خلال رسالاته لاستنتجتم كثيرا من خصائصهم التي لا أملك التفصيل فيها الآن، وتكفي الآيات التالية كإشارة لمن أراد أن يتعمق في الغباء الإيماني وأنواعه وخصائصه.

"إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِندَ اللَّهِ الصُّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ" (الآية 22 سورة الأنفال)؛

"وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ" (الآية 24 سورة النمل)؛

"وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ" (الآية 171 سورة البقرة)؛

"وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ" (الآية 42 سورة يونس).

التأمل القرآني الرابع: الدين والعيش المشترك وخطر الخداع

يتحدث كتاب الله تعالى في قصار السور عن نماذج متعددة من السلوكات، ونماذج متنوعة من البشر، ومما أثار فضولي استعمال الله لمصطلحات دقيقة من مثل : الخراصون، والكذابون، والمرجفون...، صفات نعت الله بها من واجه الحق بطرق ملتوية غير مبنية على صدق ولا أخلاق ولا علم، وغاية سعيهم تدمير ما يعتبرونه سيئا وهو في حقيقته جميل، لكن التشوهات النفسية والأخلاقية والفكرية التي أصابت دواخل النفوس جعلتهم يرون كل شيء بالمقلوب مع اعتقادهم أنهم لا يفعلون إلا خيرا، يمارس هؤلاء أنواعا متعددة من الخداع على الناس، فهم جناة يرون أنفسهم على عكس حقيقتها، ويبررون أفعالهم بطرق جهنمية. إن التمزقات الفكرية والمعرفية التي يعيشونها توحي إليهم بآليات مختلفة لتضليل السذج. إذ يحتالون ويتلاعبون بالآخرين وفي الوقت نفسه لا يخافون ولا يستحيون، إنه مزيج من جنون العظمة والغباء الاجتماعي، والوضاعة الأخلاقية. إنهم محترفون ومحتالون ومتقنون لتلاعباتهم، فتراهم يتعاطفون مع من يريدون التلاعب بهم، يقفون معهم بل ويساعدونهم بغية السطو عليهم "**قَالَ فِرْعَوْنُ مَا أُرِيكُمْ إِلَّا مَا أَرَىٰ وَمَا أَهْدِيكُمْ إِلَّا سَبِيلَ الرَّشَادِ**" **(الآية 29 سورة غافر)**، لذلك يتحدث علم النفس الإجرامي عن آلية الشك في كل تعاطف يصدر عن شخص بشكل أوتوماتيكي بدون وجود ماض يستدعي ذلك. إن الذين يكونون في حالة ضعف أو حاجة لاتخاذ قرار الإيمان أو الكفر أو حتى الوقوع في كربة من كرب الدنيا هم أفضل الضحايا الذين يسقطون بسهولة بين مخالب المتلاعبين بالعقول والمستنزفين للمال والعواطف والحاجيات الإنسانية، وهذا أمر يلامس كل مؤسسات المجتمع بدون استثناء، فأينما تواجد الناس واجتمعوا وتواصلوا سواء في أمر ديني أو دنيوي إلا واخترقهم الخراصون والمرجفون والكذابون المنتشون بوضعهم. فالمتواجدون في أزمات الحياة سواء الاعتقادية أو المادية أو العاطفية أو الاجتماعية هم أفضل الأهداف، فصاحب الحاجة أعمى أيا كانت هذه الحاجة. أساليبهم بالتأكيد مكيافيلية، إذ يدفعون الناس إلى أن يفعلوا ما يريدون مع إيهامهم بالاعتقاد أنهم فعلوا ما يريدون هم بأنفسهم. وتزداد معاناة الضحايا إذا كان المرجف أو المتلاعب أو الخراص ذو شخصية كارزمية أو له موقع سلطة سياسية (قصة فرعون) أو معرفية أو معنوية أو مالية، فيجتمع الاستغلال والخوف والتلاعب على الضحية حتى أنه يتيه ولا يعرف ماذا يفعل ، إذ يوقعه المتلاعب في شباك محكمة البناء والعُقد والضيق والترتيب، فتراهم

يتبعونهم في الدنيا ويتبرؤون منهم في الآخرة، "وَقَالُواْ رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُونَا ٱلسَّبِيلَا " (الآية 67 سورة الأحزاب)، وما يصدق على العالم العلوي الإيماني يصدق على العلاقات الإنسانية في أي سياق اجتماعي يخترقه كل كذاب أشر، ولا ننسى أنهم يمتلكون خاصية سيكوباتية عميقة تتمثل في عدم قدرتهم على التعاطف والإحساس بآلام الآخرين لأن أدمغتهم حسب علم نفس الإجرام تشكلت بطريقة معكوسة في معالجتها للمحفزات العاطفية . نعم، هناك خيط رفيع بين أدوات المحتالين والمسوقين التجاريين المحترفين والسياسيين المحنكين والمحامين المتمرسين...، وهناك العديد من المهن التي تستخدم هذا النوع من التقنيات طوال الوقت إن في جانبها الإيجابي أو السلبي، لكن المحتالين على أدمغة الناس ومعتقداتهم وأموالهم وأجسادهم... لا يستعملونها إلا في بعدها السلبي الاستغلالي بالأساس. محترفون هم في الكذب المتقن والمغلف ببيان مغلوط ينتهي برمي مسؤولية أي قرار على الضحية تحت قناعة مزيفة مفادها أن ما فعله كان باختياره بالأساس "وَمَا كَانَ لِيَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِي فَلَا تَلُومُونِي وَلُومُوٓاْ أَنفُسَكُم مَّآ أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِيَّ إِنِّي كَفَرْتُ بِمَآ أَشْرَكْتُمُونِ مِن قَبْلُ إِنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ" (من الآية 22 سورة إبراهيم)، والآية تحيل هنا على خاصية الظلم كخاصية إضافية ملازمة للمحتالين، إذ أن المرجفين المحترفين ظالمون بامتياز. وفي أمر المعتقد تكون النهاية بينة إذ يتوجه المظلومون إلى بيان قوة التأثير التي مورست عليهم أمام الله "وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ بَلْ مَكْرُ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَآ أَن نَّكْفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُۥٓ أَندَادًا " (من الآية 33 سورة سبأ)، ومكرر الليل والنهار دليل حرص وعمل شاق ودؤوب يقوم به المتحايل، فهو صادق في الإغواء، أما في المكر الدنيوي الذي يلامس أمور الحياة الدنيوية فغالبا ما يكون رد فعل المظلوم بالسمو على المرجفين، أو باصطياد عثراتهم والانتقام منهم، أو بالتوجه إلى القضاء بعد تسجيل تجاوزاتهم وتوثيقها، وهم في كل الأحوال خاسرون إن عاجلا أو آجلا.

يمتلك الكذابون نية مبيته في الخداع وبوعي، فلا شيء يتقنونه أكثر من الإرجاف والتخريص لكن بعلم إبليسي، فمن قوة مكر أهل الشر أن وصفه الله تعالى بقوله: "وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ " (الآية 46 سورة

إبراهيم)، إنه مكر عال في الحجم، وضخم في المضمون، وقوي في التأثير، مكر تزول من شدته الجبال فما بالك بنفوس مظلومة يعتدي عليها الخراصون بأدوات إبليسية.

قد تستغربون من أن هؤلاء قادرون على نسج علاقات جديدة في كل مرة، لكنهم غير قادرين على الحفاظ على صداقاتهم أبدا، لأن انكشافهم يعري عورتهم أمام الناس، زد على ذلك أنهم يمتلكون كذلك القدرة على اكتشاف أصحاب الحاجات لجرهم إلى مجالهم المغناطيسي وممارسة التأثير عليهم واستغلالهم، لا يعرفون للضمير طريقا فكل شيء مباح عندهم وبوقاحة لا نظير لها، نشيطون بشكل مثير يسمى في علم النفس بفرط الحركة الطفولي. ومستعدون للرد وبسرعة على أي اعتراض أو شك لأنهم تملكوا أدوات بناء سياج الأمان حولهم حتى يخترقوا نفوس الآخرين. انظروا إلى حواراتهم في مجمل قصص الانبياء، واعتراضاتهم وحججهم، لم يتركوا أي لون من ألوان الدفاع إلا وظفوه ضد الحق، لكن مما يجب التنبيه عليه، ما ورد في الآية التالية: "**قَالَ ٱدۡخُلُواْ فِيٓ أُمَمٖ قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِكُم مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ فِي ٱلنَّارِۖ كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ** " (الآية 38 سورة **الأعراف)**، إذ لا يكفي أن تكون ضحية لنجد لك المبرر وتنجو من تبعات قراراتك، بل وجب أن تعمل عقلك وأن تكتشف أهل الكذب في محيطك العقدي والدنيوي وفي أي سياق، أعمل عقلك لأنهم يتقنون التمويه والتلاعب، لا تتبع أو تصدق أحدا حتى تشك وتشك ثم تشك. إن حاجتك هي وقود ثقة المحتال بنفسه وطريقه لخداعك إن عقديا أو في أي سياق اجتماعي آخر، لذلك تعلم أن تشبع حاجتك بنفسك حتى وإن طالت وامتدت في الزمن، أو على الأقل قارن بين من تشك فيه وغيره، واسأل غيرك ممن هم أكثر منك تجربة قبل الإقدام على تسليمه نفسك، ولا تبالغ أبدا في تقدير ذكائك، زد على ذلك لا تحسن الظن من أول وهلة، بل اجعل شكك موصل إلى حسن الظن. واعلم أنك لست إلا رقما عند المحتالين ينضاف إلى عدد التابعين والضحايا ولا تشكل لديهم أي استثناء يجب الحفاظ عليه، وفي اليوم الذي تبدو عليك علامات الذكاء والفطنة سينقلبون عليك، بل سيعادونك، فالبعد السيكوباتي في هذه الشخصيات مزمن، وإشباع نزواتهم المادية والمعنوية أكبر عندهم من كرامة الناس ونبل السلوكات والهداية إلى الله.

تأملات في مقولة

"التي هي أحسن"

التأمل القرآني الأول: التي هي أحسن و أثرها النفسي

قال عز وجل: " ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ"

(الآية 34 سورة فصلت).

تدخل (التي هي أحسن) ضمن منظومة الحسنات، وتفارق بشكل كلي منظومة السيئات، فـ (التي هي أحسن) جماع أفعال الخير كلها ظاهرها وباطنها مكيفة مع سياق توظيفها أو إنزالها ثقافة ولغة وقيما، وزمانا ومكانا ومعتقدا. (التي هي أحسن) عنوان مفارقة العبثية في التواصل مع الناس والمحيط عموما. (التي هي أحسن) تحيل على حقيقة مفادها: انتبه إلى ما تقول فالكلمات تشكل في نهاية المطاف هويتك. الكلمات في علم النفس يمكن أن تشكل طريقة تفكيره، لذلك اختر من بينها: (التي هي أحسن) ليكون فكرك وتفكرك راقيا رقي (التي هي أحسن). وعليه، فمن كان قاموسه سيئا كان تفكيره سيئا، ومن كان معجمه متشائما كان أداؤه محتشما أو منعدما. تغليف كلماتنا بلغة (التي هي أحسن) رسالة إلى دواخلنا ودماغنا ومحيطنا مفادها أننا مستعدون للرقي في معارج الإيجابية سلوكا وفكرا وعاطفة.

وهذا يعني أنه يمكنك استخدام كلماتك للتأثير بشكل إيجابي على مزاجك ودوافعك وثقتك وكذلك مزاج الآخرين: ادفع بـ (التي هي أحسن) يمكن أكثر من ذلك أن تقلب العداء صداقة وولاء، كما في قوله تعالى: "ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ" **(من الآية 34 سورة فصلت).**

وعليه، فالناس يفكرون بطرق مختلفة نظرا لتكلمهم للغات متباينة. لا أميل إلى التيار الذي يدعي أن التفكير مستقل عن اللغة رغم أن الموضوع أكبر من كونه فقط لغة، بل يتعلق الأمر بالأسئلة الأساسية حول جوهر الإنسان، وتصوره لنفسه، والحياة، والآخر.

تتيح اللغة الإبداع اللانهائي في أشكال التواصل والقرب من الناس إن انتقت كلمات (التي هي أحسن) وإشارات (التي هي أحسن) وابتسامات (التي هي أحسن). إننا بذلك نحول اللغة إلى محرك

للتفكير، محرك قوي ذي سعة كبيرة وعزم عال على الأداء والتأثير في المحيط؛ إذ يستطيع المعانق للغة (التي هي أحسن) جعل الكلمات القصيرة تكبر وتتمدد ليولد منها أفكارا دقيقة وجميلة ومؤثرة في المحاوِر.

إن (التي هي أحسن) هي استعمال لغة تفتح شهية التواصل وتساعد على انطلاق التفكير وإلا انقلبت اللغة إلى سجن للتفكير، إذ أن لغة (التي هي أسوء) يمكن أن تنتج المعيقات المعرفية والنفسية، بل والاجتماعية وفي أدنى أثر لها يمكن أن توصل إلى برودة التفكير ولا مبالاة الآخر، وفي هذا الإطار فأولئك الذين يتعلمون لغة إيجابية جديدة يكتسبون بالتأكيد طريقة جديدة للتفكير ورؤية جديدة للعالم إلى حد ما، وسيكون أفقهم أغنى ممن يعيش في أفق لغة واحدة وفي جانبها السلبي.

مقولة (التي هي أحسن) استثمار للغة بمعناها الواسع، وفتح لمغاليق لا وعيك، فالحياة السعيدة هي نتيجة تعلم طرق وتقنيات الولوج إلى عالمك الداخلي وعالم الآخرين، ومفتاحك قبل كل شيء هو اللغة، وباللغة نشكل مفاهيمنا التي يمكن اعتبارها هرمون دماغنا الذي لا يتوقف عن التفكير إلا بمزيد من التفكير. (التي هي أحسن) تمدنا بطاقة وسلطة على سيرورة الحياة، بل وتحررنا منها لأنها تجعلنا ننظر نظرا شموليا لا تجزيئيا إلى الوجود، ونراقب من الأعلى لا من الأسفل. تسبح بنا (التي هي أحسن) في أحلام تثاقفية وتواصلية رائعة مع الآخر لننتج في دواخلنا الأمل المستمر بالوصول إلى التوافقات والتفاهمات.

زد على ذلك أن (التي هي أحسن) تغرينا بالاستمرار في النبش في الآخر والانفتاح عليه. التي (هي أحسن) يمكن أن تكون مجموع آليات وتقنيات التواصل التي توظف بشكل منهجي أسرار اللغة المنطوقة والمكتوبة والإشارية بهدف توسيع دائرة الأصدقاء وتضييق دائرة الأعداء والاستحواذ الكلي الإيجابي على الوضعيات التواصلية. يمكن أن ندعي أن (التي هي أحسن) يمكن في بعدها اللغوي أن تكون المحرك لتطوير الذات بإنتاج سلوكات تواصلية تستجيب لانتظار القيم المبثوثة في مقولة: (التي هي أحسن).

وكذلك يمكن اعتبار (التي هي أحسن) هي المدخل الآمن لحياة فردية أو أسرية أو مهنية ناجحة لأنها تستحضر كل سياق بخصوصياته.

وفي إطار تفصيل بعض جوانب (التي هي أحسن)، أضيف إلى عنصر الاختلاف الذي أشرت إليه فيتأمل سابق، عنصرا آخر ورد بشكل ضمني في الآية محل التأمل: وهو ما يجمع المتحاورين من نقاط التقاء، إنه ما أسميه بالمشترك، هذا المشترك نبحث عنه في كل حوار لكي نؤسس عليه، وعليه فـ (التي هي أحسن) تطرح عليك أسئلة مهمة تساعدك على استثمار الوضعيات اليومية المعيشية أو المهنية باحتراف، من مثل:

- ✓ هل تبحث في إطار أية وضعية تواصلية على المشترك بينك وبين مخاطبك؟
- ✓ هل تبني تواصلك مع الآخر على المشترك الثقافي الذي تبين لك؟
- ✓ هل تبحث أثناء تواصلك مع الآخر عن المشترك المعرفي؟
- ✓ هل تبني تواصلك مع الآخر على المشترك المعرفي الذي تأكد لك؟
- ✓ هل تبحث أثناء تواصلك عن نقط الاختلاف وتستحضرها بتأجيلها أم لا؟
- ✓ هل تراعي في تواصلك الاختلاف الثقافي باستحضار النسبية في الحكم على أدائكما؟
- ✓ هل تبحث عن التفاوت المعرفي الذي يمكن أن يكون بينكما؟
- ✓ هل تراعي في تواصلك التفاوت المعرفي بتقريب الهوة في الاتجاهين؟
- ✓ هل استحضرت سياق حواركما أشخاصا وزمانا ومكانا وموضوعا...؟
- ✓ هل تراعي اثناء فعلك التواصلي سياقه الذي يدور فيه بالتركيز على خصوصيات السياق؟

إن (التي هي أحسن) كما أفهمها تدفعنا لمساءلة منهجنا التواصلي، والغرض من ذلك هو تطوير الذات في انسجام تام مع خصوصيتها، إذ لا يوجد شخصان يفكران ويشعران ويتصرفان بنفس الطريقة، لذلك فـ (التي هي أحسن) يمكن أن تكون جماع الجميل من الأفعال والأقوال الذي نغرف منه كل ما يمكننا من السمو في التواصل مع الآخر.

(التي هي أحسن) ليست معطى جاهز أو تمني حالم، إنها كفاية تكتسب وتبني باستمرار، لكن كيف؟

هذا ما سنعرفه إن شاء الله في التأمل المقبل.

التأمل القرآني الثاني: التي هي أحسن

كفاية مركبة ومكتسبة

قال عز وجل: "وَمَا يلقاها إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ "

(الآية 35 سورة فصلت).

إن مقولة (التي هي أحسن) ليست معطى جاهزا، بل كفاية **مركبة** لا نصل إليها بالتمني، ولا بالشكوى، بل بالعمل المقترن بالألم الموجب للصبر .

يرتبط الصبر كقيمة إيمانية عليا بضبط النفس، وبالمثابرة، وبالقدرة على إنتاج السلوكات المتسامحة، والقدرة على تدبير الأحاسيس السلبية، وتجنب الإحباط خصوصا وأن الصبر يرتبط بالانتظار، انتظار شيء ما أو فعل ما أو قول ما دون تسرع، فالصبر والسرعة لا يلتقيان أو بالضبط الصبر والتسرع لا يجتمعان. ألا يعني هذا أن قيمة الصبر تستبطن الذكاء والخوف؟

الذكاء في تقدير نتائج الانتظار، والخوف من نتائج الانتظار. ألا يرتبط الصبر كذلك بالضغط؟ ضغط الانتظار، ضغط الوقت، ضغط التحدي أو المشكل الذي نواجهه، ضغط من نصبر لضغطهم؟ الصبر يعلمنا أن نبقى مركزين على أهدافنا رغم طول الانتظار، الصبر هرمون القوة النفسية التي علينا أن نكتسبها عندما نمر من وضعيات حرجة، لماذا يقول الله لنا: اصبروا وصابروا؟

لأن الذين لا يصبرون يصلون أثناء مواجهتهم للتحديات إلى تطوير نوع من العجز والعمل الزائد في مواجهة الوضعيات الصعبة والظروف المختلفة. إنهم يتقدمون ببطء أكثر مما كان مأمولا أو مخططا له، لكنهم لا يستطيعون تغيير أي شيء حيال ذلك ويكافحون من أجل ذلك. يتم وضع صبرهم على المحك، وغالبا وعلى أبعد تقدير عندما يتقطع خيط الصبر، نصل إلى العجز الذي ينقلب إلى غضب. وهكذا تفقد الشخصية توازنها وتضيع الأهداف مع الغضب.

لقد عرف الفيلسوف الأمريكي (جوزيف كوبف Joseph Kupfer) الصبر بأنه موقف الانتظار دون عناء، والانتظار دون تململ داخلي أي دون اهتزاز جواني. فالصابر بالنسبة لهذا

الفيلسوف يتميز بكونه في طور الاستعداد النفسي الخالي من التذمر لقبول تأخير قضاء احتياجاته الخاصة، بمعنى أن الصبر موقف واع مسدد بالاستعداد للتحمل.

لقد ذكر الصبر في الآية محل التأمل في سياق التعامل مع الآخر، أي في سياق تواصلي بامتياز، لأن الوضعية التواصلية تسكنها وجوبا منغصات التآلف المبنية على قانون الاختلاف، فالتواصل يعني الاحتكاك الذي قد يصل إلى درجة الأذى المعنوي أو المادي، وفي مثل هذا الوضع نلجأ إلى المخزون السيكولوجي الذي نتوفر عليه لامتصاص ضربات المحيط، ومخزون نفسي ليس فيه صبر، مخزون غير نافع وهش. يكاد الصبر أن يكون قيمة القيم، أو لنقل القيمة الملك، فالصبر له وصل بالراحة النفسية، والاتزان، وإدراك الاختلاف والتفاوت، والقدرة على التحمل، ومرتبط بالعزيمة، ويسكنه الإصرار، وينبجس منه الهدوء، ويصدر عنه اللطف، ويوحي بالقوة والجلد، ويتضمن ذكاء، ويحيل على القدرة على حساب الربح والخسارة، ويتضمن فهما للتدرج والاستعداد لاستقبال التغيير والتطور.

إن التحلي بالصبر هو أكثر من مجرد الانتظار. فهو قوة دافعة تجعل من الناس معتدلين وكرماء تجاه بيئتهم ووقتهم وأنفسهم-ولكن دون الاستسلام والرضوخ. إن الصابرين لا يهتمون بما سيحدث بالضبط لكنهم مستعدون للتعامل معه بأحسن طريقة.

قد يتساءل المتسرع سؤالا مشروعا وهو: ما الفائدة من التحلي بالصبر؟ وأجيب بقولي إن أهمية ومنافع الصبر لا يمكن أن ندركها في الحال بل هي نفسها تحتاج إلى صبر لإدراكها، لأن مزايا الصبر تدرك بعض انقضاء قضاء الحاجات، أما التسرع فهو بالمقابل ليس مزية لأنه متاح لأي أحد، بل يكاد التسرع أن يحيلنا على الطفل الذي يكسننا، الطفل الذي لازال في مراحل نموه الأولى، ولازالت بنياته المعرفية والعاطفية والسلوكية في طور التشكل. إن التسرع هو الطريقة الأسهل لأنه ردة فعل، كما أنه لا يتطلب قدرا محترما من الانضباط.

ويمكن أن ندعي أن الصابرين ينجحون يقينا في تحقيق مزية عميقة لأنفسهم بأن يجنبوها ضغوطات التسرع وعدم الانضباط وتحمل تبعات التوترات المختلفة، والأكثر من ذلك فالصابرون يحققون أهدافهم خصوصا الطويلة الأمد والمحدثة للتغيير النوعي في الحياة عكس المتسرعين، يكاد التسرع أن يكون مرادفا للغباء الشجاع .

وأضيف مزية أخرى مفادها أن مَلِكة القيم أي الصبر تقلل من الأعداء والصراعات وبالتالي يطور صاحبها علاقات أفضل من غيره في الدنيا والآخرة، ويكفي أن نعلم أن هذا الهدوء النفسي وراحة البال أكبر فرصة لإنتاج وتطوير حلول أفضل لمشاكلنا التي تواجهنا، إن الصبر يمنحك فرصة التؤدة لاتخاذ قرارات أكثر موضوعية وإنتاجية، ولا ننسى أن آثار كل هذا على صحتنا النفسية والعضوية والاجتماعية جد إيجابية، إن هذه المزايا لا يلقاها بالفعل إلا ذو حظ عظيم. وقديما جاء في مثل صيني أنه إذا كنت صبورا في لحظة الغضب، فاعلم أنك سوف تقتصد لنفسك مائة يوم من الحزن، لأن ضريبة التسرع تورث البلايا النفسية والاجتماعية والعضوية. وغالبا فمن لا يستطيع الصبر على الأمور الصغيرة لا يجب تكليفه بالمشاريع الكبيرة، فمنسوب الانضباط جد منخفض عنده.

(التي هي أحسن) لا يلقاها إلا الذين يصبرون وذووا الحظ العظيم، ولكن هل الحظ هو ما يعرف عندنا بالصدفة الجميلة، صدفة نلتقي بها وتكون نتائجها وردية، أم أنها تلامس شخصيتنا وتعتبر جزءا منها؟ أميل إلى الاعتقاد ان الحظ العظيم يعني العمل النفسي الذاتي العظيم، العمل في النفس وتدريبها على السمو أثناء التعامل مع المخالفين، ذووا الحظ العظيم هم أولئك الذين جاهدوا أنفسهم ضد التسرع وعانقوا الصبر للوصول إلى معانقة (التي هي أحسن)، وعليه، فعلى قدر بذل الجهد يزداد نصيبك من الحظ، وعلى قدر تكاسلك يتراجع منسوبه في دواخلك، فالحظ هنا هو النصيب الناتج عن الكسب الفردي وبذل الوسع وليس نصيبا مصدره خارجي لا أسباب وراءه، لأن هذا عبث، وفي ديننا كل شيء بقدر ولا مكان للعبث.

لا تستغربوا إن علمتم أنه في مجال علم النفس، غالبا ما يترجم الصبر بضبط النفس. ويربطونه غالبا بمدى استقرار البيئة أو عدم استقرارها في مرحلة الطفولة. ولذلك ينصح السيكولوجيون أن يتعلم الأطفال ضبط أنفسهم أي الصبر من خلال برامج تعليمية تكسبهم حقيقة مفادها أنه من المجدي انتظار شيء ما، ونعمل بيداغوجيا على مكافأتهم على انتظارهم المعقلن. وبالنسبة للكبار لا يوجد سبيل لتعلم الصبر إلا بمعانقة الأهداف والعمل على تحقيقها والتعايش مع مشاكلها وتعلم الصبر عليها، فالصبر كفاية تكتسب وتنمى باستمرار. وعليه، فالصبر إذن بالتصبر أو من يتصبر يصبره الله كما في الحديث الشريف.

تأملات خصائص الانسان الكوني

من خلال قنوم سورة الفرقان

التأمل القرآني الأول: تخوم سورة الفرقان 1، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (خاصيتا التواضع والتسامي)

"وَعِبَادُ الرَّحْمَٰنِ الَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى الْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلَامًا"

(الآية 63 سورة الفرقان).

صراع المتناقضات وفك الارتباط وتبيان الحدود: مد وجزر يغلب فيه الجانب الخير من النفس الإنسانية.

القرب من الإله المتعالي يستدعي خاصيتين:

- ✓ خاصية التواضع مع الخلق أيا كانوا حجرا وبشرا وحيوانات؛
- ✓ خاصية التسامي عن الجهالات عن أي صدرت.

تكمن الأنا الهشة ذات عقد النقص الحقيقية خلف الواجهة المتغطرسة، وراءها يعشعش انخفاض الثقة بالنفس إلى جانب قبح نرجسي. مشيتك و مظهرك المتعجرف يحيل على انخفاض قيمة الآخرين في دواخلك، ذاتك تحتاج منك أن تحميها من نفسها، فوراء الغطرسة إحساس مزيف بالعلو والتفوق يخفيان انخفاضا حادا في تقدير الذات، وعباد الرحمن فوق كل اضطراب نفسي مبني على اعتقاد بالسمو فوق الناس، عباد الرحمن رحماء بأنفسهم وبالآخرين، لذلك سماهم ربهم عباد الرحمن. عباد الرحمن أهل تواضع وخفض جناح لأنهم علماء بواقع الناس وحدود أنفسهم. عباد الرحمن يتصرفون وفق سلم قيمي عالي جدا، ولو تجرأ عليهم جاهل ما فإنهم لا يردون بالمثل تجنبا لتجييش المشاعر السلبية لديهم ولديه، لا تخلق هجمات الجهال لديهم هاجس المقاومة، ولا يدفعهم تنمر الآخر بهم إلى التعامل معه بأخلاقه بل يتمسكون بأخلاقهم. إنهم يعلمون أن غطرسة الآخر لها أبعاد اجتماعية عميقة، وذات منحى سلبي، يتميزون بتفكير وتحكم ذاتيين عميقين، جوابهم يكون بسيطا وعميقا عن كل تحرش بهم، فهو على مستوى القول السلام، ومقتضاه أنك لن تسمع منا ما يخدش سلامتك النفسية، ولا ما يعكر مناخ التعايش، وعلى مستوى الفعل ينسحبون بابتسامة الواثق من صحة سلوكه بدون احتقار للآخر ولا تهرب منه، بل بالحفاظ على مسافة أمان نحتاجها جميعا في حالة الاختلاف. لا يتغطرس عباد

الرحمن أبدا لأن التكبر رديف الجهل، ولأنه دليل خواء داخلي وتدمير لعلاقة عباد الرحمن بالرحمن.

إن سلاح التجاهل الإيجابي للجاهل سلاح سيكولوجي مهم في علم النفس ومهم قبل ذلك كآلية نفسية ربانية نصح بها الرحمن عباده.

إن تجاهل الشخص الجاهل يسحب منه بساط إرادة الإزعاج وبداية معركة خاسرة، فالجاهل مولع بإبداع المعارك التي يعتقد أنه يحقق من خلالها ذاته. ومن خصائص الجهال أنهم أعداء العلم من جهة، بل إنهم يرفضون التعلم. فهم لا يسمعون، ولا يريدون أن يتعلموا، بل ولا يريدون أن يفهموا. فالإصغاء يتطلب التعاطف مع الآخر واستحضاره واحترامه، ويتطلب الانفتاح عليه، والتفكير يتطلب الاحترام والتسامح والاشتغال على الذات، وقبول الصواب، والتفاهم يتطلب الذكاء. وكلها خصائص منعدمة ومتمنعة على الجاهلين الذي هم عند أنفسهم علماء، لكن مع الأسف تفضحهم سلوكاتهم تجاه أهل الحكمة، تجاه عباد الرحمن. ومن لطائف الآية أن عباد الرحمن سيبتليهم الله بالجاهلين يقينا لا شكا، وهو ابتلاء تمحيص وتقوية للمناعة الداخلية لعباد الرحمن، فأن تكون عبدا للرحمن معناه ألا تكون هشا جوانيا نفسيا وسلوكيا، بل أن تستثمر كل وضعيات الجهالات لمزيد من المناعة التي تسمو بك في مدارك عباد الرحمن.

عباد الرحمن يشتغلون أفقيا على أنفسهم ومع الناس، وعموديا مع الرحمن. فنظرهم موجه إلى السماء.

التأمل القرآني الثاني: تخوم سورة الفرقان 2، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا

(الجانب الخير من النفس الإنسانية)

صراع المتناقضات وفك الارتباط وتبيان الحدود: مد وجزر يغلب فيه الجانب الخير من النفس الإنسانية، قال تعالى: " **وَٱلَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَٰمًا**" **(الآية 64 سورة الفرقان)**.فالقرب من الإله المتعالي يستدعي خاصية الارتباط به ليلا عند انعدام مشوشات ومعيقات التدبر والتركيز .

إن من خصائص الليل العتمة، والظلام على مستوى الرؤية، إذ تنعدم فيه رؤية الألوان وتترنح فيه الرؤية بين البياض والسواد، أما على المستوى البيولوجي فهو زمان العمليات البيولوجية ذات الصلة بالنوم والصمت والهدوء، الليل سواد لافت وقد يكون جد حالك أو تكسره أنوار القمر. يرمز الليل كذلك إلى اللحظات التي يختارها الناس لفعل ما لا يريدون الكشف عنه، الليل يصبح وسيلة للتستر سواء كان الفعل مقبولا أو مكروها أو حراما، الليل يحيل على ضبابية وفوضوية في الرؤية مع ما يرتبط بذلك من عدم إدراكنا بوضوح لما نرى، وخصوصا لتفاصيل ما نرى، ويرتبط الليل أيضا بانعدام الشمس وانخفاض درجة الحرارة، أي أن الليل والبرودة متلازمان. ومع كل هذا فإن للظلام أناسه، وحيواناته، ونباتاته، وحركته. فهناك حيوانات وطيور وحشرات تحتمي بظلام الليل لأداء مهامها، وأخرى تحتمي ببرودته لأداء واجبها، لكن على العموم فإن مخلوقات الظلام مجهزة ومكيفة للعيش وفق مقتضياته الطبيعية، وغيرها يتكيف فقط لفترة معينة ليعود إلى وضعه الطبيعي وإذا أطال المكوث الليلي أصابته اضطرابات متعددة .

هذه الآية من سورة الفرقان تنبهنا إلى ضرورة الانقلاب أو تغيير نمط الحياة الطبيعي في بعض الأحيان لمعايشة لحظات تخرجنا من روتين الحياة الطبيعية، والتغيير المنشود هنا هو تغيير في زمن العبادة، ومقتضاه أن تتقرب إلى الله في الوقت الذي تتحرك فيه مخلوقات أخرى ليست من جنسنا ولا من طبيعتنا، إنه تقرب إلى الله ليلا لأن عوالم الليل تخرجك من عادات النهار التي من إدمانك عليها يمكن أن تفقدك حلاوة تذوق الإيمانيات. احتمي بالليل من شراسة الآخر والذات

لتحقيق خلوة صافية من كدر المعيش اليومي وإعجاب النفس بنفسها. إنني أعتقد أن الإنسان تشكل بطريقة مزدوجة تجمع بين خصائص مخلوقات الليل وخصائص مخلوقات النهار، فهناك عناصر في الإنسان ربما لا تنشط ولا تتطور ولا تكون دينامية إلا بالليل مثل بعض الأزهار التي لا تتفتح إلا ليلا فترسل من عبق ريحها ما يذهب بالألباب، وبعض الطيور التي لا تصطاد إلا ليلا، وعليه، فلا أستبعد أن أبعادا من الإنسان تبقى مستترة وجامدة ما لم نوفر لها جوا يساعدها على الظهور، ولا استبعد أن يكون القرب من الله له وصل مباشر بلحظات الليل التي ينعدم فيها البصر وتتفتح فيها البصيرة، وينعدم فيها الزحام والضجيج ويسيطر فيها الهدوء. كما تحيل هذه الآية إلى احتمال آخر مفاده أن بعض أبعاد العوالم الميتافزيقية منغلقة نهارا أو صعبة الاختراق، لكنها منفحة ليلا ويسهل اختراقها. وعليه، كان الليل زمنا مظلما من جهة الوجود المنظور وربما مضيئا للوجود المستور. وبناء عليه، نفترض إيمانيا أن سياق الظلام والنور يحركان فينا طرقا ومسارات مختلفة لإدراكنا للأشياء، أي أن طريقة معالجتنا لعالمنا المنظور وعالمنا المستور يؤثر فيه النور والظلام بطريقة ما، ولا أستبعد تكامل هذه الطرق والمسارات الإدراكية. إنني أفترض أن الظلام نظرا لغياب إدراك تفاصيل الأشياء المادية يحرك فينا مسارات الإدراك التجريدي، والنور يحرك فينا بطريقة أكبر مسارات الإدراك المادي نظرا لتجلي ووضوح الماديات أمامنا. ولأن الله ممتنع عن الماديات لوحدها، وممتنع عن المجردات لوحدها كانت المزاوجة بين الليل والنهار في القرب من الرحمن أسلم منهج بيداغوجي. ألا يحيل الحديث الصحيح على هذا الفهم: ينزل ربنا تبارك وتعالى كل ليلة إلى السماء الدنيا حين يبقى ثلث الليل الأخير، فيقول: من يدعوني فأستجيب له من يسألني فأعطيه من يستغفرني فأغفر له. لماذا الثلث الأخير؟

لكن كيف يجب أن يكون هذا التقرب الليلي؟

هذا ما سنراه إن شاء الله في التأمل اللاحق.

التأمل القرآني الثالث: تخوم سورة الفرقان 3، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (التقرب الليلي من الله)

صراع المتناقضات وفك الارتباط وتبيان الحدود: مد وجزر يغلب فيه الجانب الخير من النفس الإنسانية. **قال الله تعالى: "وَالَّذِينَ يَبِيتُونَ لِرَبِّهِمْ سُجَّدًا وَقِيَامًا" (الآية 64 سورة الفرقان).**

القرب من الإله المتعالي يستدعي خاصية الارتباط به ليلا عند انعدام مشوشات ومعيقات التدبر والتركيز، ولقد حدد الله تعالى في الآية المذكورة أعلاه شكل القرب بعدما حدد زمانه، فأراده سجودا وقياما، والسجود معناه السكون والانخفاض وفيه تعظيم لله وتواضع أمامه، إنها لغة الجسد أمام الله، كما أن السجود خروج واع واختياري من الأنا ودخول واعي في علاقة تراتبية يكون الله سيدها، يسود فيها الانفتاح على عوالم أكبر وأعظم لكنها غير منظورة لأنها مجال الإيمان وليست مجال التحقق العلمي التجريبي، وعليه، يغدو حال السجود حالة تأمل وتعميق للإيمان، فالانخفاض أرضا ووضع الجبين على التراب يحيل على تحول النظر من الأعلى إلى الأسفل، فالأسفل يحمل حقائقه كذلك، يحمل خصائصه التي تميزه عن العلو، له دلالاته، السجود انكماش مقصود لنرجسية الإنسان، ورجوع مقصود لوضعية المخلوق، فكما أن الله موجود في السماء فإنه قريب جدا منك وأنت تعانق بجبهتك تراب الأرض، السجود إذن اقتراب يحيل على أن الله في كل مكان حتى في أخفض نقطة تصلها جبهتك. بل إن حالة الانخفاض أي السجود هي أفضل وضعية للكلام مع الله وسؤاله والهمس له بآلامنا وآمالنا، وشكرنا وثنائنا على أفضاله، وطمعنا في زياداته ومغفرته. السجود معناه أن الله هنا معك فتتحدث إليه وأكثر ما استطعت رغبا ورهبا. السجود طريق للشفاء السيكولوجي في حال الإكثار من الذنوب، السجود عمل إنساني غير عبثي، بل إنه لحظات يعترف فيها المومن بوصوله إلى حدوده القصوى في العالم المنظور. السجود خروج من حالة الصمت والكبت إلى حالة الكلام والبوح، فقد تعترينا المشاكل والمعاناة ونهرع إلى العلاقة بالله للتخفيف السيكولوجي على أنفسنا التي تتألم أو تأمل، إن السجود تفريغ مقصود يورث راحة نفسية عند المؤمن لا عند غيره، السجود تحرر ونظافة داخلية نقوم بها عن وعي وإرادة واختيار، لا مكان فيه للتخدير لأنه فعل إيماني واع ومنضبط ومنفتح وملموس ومحسوب على الأقل عند المومن به. السجود لحظة ربط العالم المعيش بالعالم المتعالي ربطا واعيا ومقصودا. يعترف فيه المخلوق بنجاحاته أمام مولاه، ويعترف فيه

بإخفاقاته في دنياه، يعترف فيه بما أخفاه على كل الناس وأسر به لرب الناس، السجود لحظة ثقة عالية نضعها في ربنا، وحسن ظن به لا حدود له. إنها لحظات نغذي فيها ضميرنا من مصدر علوي بأعلى القيم لمواجهة أدنى الوضعيات المعيشية، إنه خروج واع من اللايقين واستبداله بيقين إيماني. فالسجود تعبير عملي عميق عن إيماننا، لكن لا نسجد فقط لنقول لله ما نأمل فيه وما نتألم منه، بل كذلك لنستمع إليه، فطوال لحظات السجود والقيام والقعود والركوع تتجاذبك أفكار وأحاسيس ومشاعر لا تأتيك إلا في الصلاة، وما أن تخرج منها حتى تتركك وكأنها لصيقة بالصلاة في مجملها، هذا التجاذب المتضارب يوصلك في آخر صلاتك إلى قناعات معينة أو قرارات معينة إما دنيوية لحظية أو مصيرية بعيدة المدى، فتحس بنشوة داخلية نابعة من انتصارك على التخبط الذي كنت تعيشه قبل الصلاة، وكأن ربك ألهمك طريقا ما فاستمعت إليه بدون أصوات ولا همسات. يقينا لا نخرج من صلاة كما دخلناها، خصوصا إن سيجناها بتركيز عالي. السجود قد يكون في جماعة أو بشكل فردي، لكنه في كل الحالات قرب من الله.

إن القرب من الله لا يأخذ فقط شكل السجود، بل كذلك وضع القيام ووضعا ثالثا بين القيام والسجود وهو القعود، وهذا ما سنتناوله في التأمل الموالي بإذن الله.

التأمل القرآني الرابع: تخوم سورة الفرقان 4، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (التقرب إلى الله بين السجود والقيام والقعود)

لقد أوردنا في التأمل السابق أن القرب من الله هو من خصائص عباد الرحمن الذي لا يأخذ فقط شكل السجود، بل أيضا القيام والجلوس والانتقال بين هذه الوضعيات. ولما كان السجود انخفاضا فإن القيام اعتدال ووقوف، القيام انتصاب، القيام تأمل فيه علو، القيام علو، إننا نبدأ الصلاة بحالة انتصاب، ونتدرج في الهبوط مرورا بالركوع ووصولا إلى السجود، وفي حالة سجود التلاوة الذي فيه استحضار لعظمة الله وطاعة مطلقة يلغى الركوع ونمر من حال الارتفاع إلى وضع الانخفاض، لغة الجسد في الصلاة مُرَمَّزَة إيمانيا. إن وضعية القيام أو الوقوف هي لغة تحيل على الثقة في النفس والأمن والأمان، وضع القيام يعبر عن حضور الأنا بنفسية واثقة من نفسها، وقوية ومتواضعة أمام الله، لا يريدك الله في وضع الانطلاق في الصلاة ميتا مهانا ضعيفا، بل قائما واثقا من نفسك وثوق المؤمنين. لا يريدك أمامه متماوتا وبهيئة ذليلة فيها إهانة، بل منذ اللحظة الأولى نبدأ بنطق الله أكبر، ونرفع أيدينا إلى الأعلى كحركة جسد تحيل على طرح كل ما دون الله عند إنزالها إلى الأسفل، لقد اختار الله انطلاق الصلاة في وضع انتصاب ورفع يد ورفع صوت مكرما عباده بهيئة تقدير واحترام لعباده تورثهم الثقة والرفعة، فهو قيام لا غطرسة فيه ولا إذلال. إن علاقة النفس بوضعيات الجسد وبمنسوب الإيمان وتجلياته علاقة كثيفة كثافة العالم العلوي الذي نتوجه إليه، فالجسد وحركاته جزء من الصلاة، فتجربتنا في الصلاة مع المتعالي تتجسد في حركات أجسادنا، ولأن حركات الصلاة عندنا في معتقدنا توقيفية فلا يسعنا إلا أن نتساءل ونفكك الحكمة والفلسفة الثاوية وراءها لأنها مقصودة. إن أجسادنا هي الجهاز الذي نعبر به عما يعتمل في النفس عاطفيا ومعرفيا وإيمانيا، إنها مرآة أرواحنا، إن أجسادنا تصلي كما تصلي أرواحنا، ومن لطائف الآية أن الله لم يفصل حركاتنا عن إيماننا، ولا عن مشاعرنا، بل عمل من خلال حركات الصلاة على تفعيل كل مكونات الإنسان لتتفاعل مع البعد الميتافيزيقي فيه. فكما أن العقل يتابع قراءة السور ويحللها، والوجدان يتفاعل معها خوفا وطمعا فإن الجسد تتحرك أطرافه لتعكس ما يعتمل في أبعاده المعرفية والوجدانية، وذلك في كل ركعة، بل إن الركعات نفسها تختلف من صلاة إلى صلاة، بل والصوت نفسه كوظيفة جسدية يحضر بارزا أو خافتا حسب كل الصلاة، بل يختلف داخل صلاة واحدة بين الجهر والسر، إن أداء أعضاء الجسم متنوع بتنوع الصلاة فلا شيء يعرف

الرتابة. إن الوقوف أي القيام الشامخ أمام الله هو انتصاب فوق أرض صلبة هي إيمانك بالذي قال: "ولله العزة ولرسوله وللمومنين". (الآية 8 سورة المنافقون)

ومن لطائف الآية محل التأمل أن الأمر يتعلق فيها بالانتقال بين حالتي الانخفاض والارتفاع الذي نعتبره إضافة إلى كونه لغة جسد إيمانية طريقا للتأمل في منحنيات النفس بين حالتين سيكولوجتين بانيتين هما الاعتدال في التعامل مع الناس ورب الناس، وحالة تضخم الأنا واحتقار الغير، وحالة تواضعها. وليتحقق ذلك وجب الهروب إلى زمان غير زمان المنخفضين دائما والقائمين أبدا. إنه الليل، إنه زمن الخروج من ضغط الجمع، إنه وضعية توفر شروط إنتاج أعلى درجات التركيز. إنه وقتك مع بُعْدِك الميتافزيقي.

ومن أغرب ما يمكن أن نلاحظه في سيرورة القيام والسجود أن الدخول في الصلاة يكون انتصابا والخروج منها يكون جلوسا لا سجودا ولا قياما، أي أن الخروج حال التسليم يزكي الحالة الوسطى التي يجب أن تكون عليها بوصلتك في الحياة وميزانك في العلاقات مع الله ومع الناس، أي أن صيغة الجلوس هي الوسطية الإيمانية الواقعة بين الأنا الشامخة حال القيام والأنا الخاضعة حال السجود، إن حالة الجلوس هي وضعية فيها شيء من السجود وشيء ومن القيام. وأخيرا فإن الخروج من الصلاة أي من حالة القيام والسجود والجلوس يكون بحركة الرأس والعينين يمينا وشمالا، حركة تعكس تعدد الوجهات حال الخروج من الصلاة وأحادية التوجه حال ممارسة عبادة الصلاة، فأثناء الصلاة يكون التوجه إلى الأمام، يكون التوجه واحدا غير متعدد، وبعد التسليم تتعدد وجهاتنا بين اليمين والشمال، فنسلم أولا على اليمين عسى أن نكون من أصحابه، ونؤخر الشمال عسى أن نتجنبه .

التأمل القرآني الخامس: تخوم سورة الفرقان 5، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (في الدين والتدين)

يؤمن عبد الرحمن بالعالم الآخر، فهو واضح في إيمانه، فالحقيقة الإيمانية شخصية، لها وصل بدواخل الإنسان، والحقيقة العلمية موضوعية، لها وصل بالعلم، وقد يلتقيان أو يختلفان حسب منسوب ودرجة الانسجام التي تطورت في نفس الباحث عن الحقيقة بين الواقع المنظور ومقتضياته والعالم المجهول ومتعلقاته. لكن المؤمن مؤمن، وله وصل بالعالم الآخر كما له علاقة وطيدة بالعالم المشهود، ومع وجود حقيقة وجودية لا ترتفع وهي الموت وما يرتبط بها من احتمال الحياة بعد الموت، يأمل الكثير من الناس بحس براغماتي في تقليل منسوب الخوف من الموت وتجنب ما لا يطاق من تبعاته. وهذا أمر مفهوم إذا ما نظرنا إلى الإنسان باعتباره كائنا ميتافيزيقيا أو حتى كائنا سياسيا، فالإنسان يقف حائرا أمام سكوت العلم سكوتا مطلقا عما بعد الموت لأنه غير خاضع للتجريب، العلم يتحدث عن حدود الحياة، ولا يتناول حدود الموت وما بعدها، لذلك تعتبر هذه القضايا إيمانية بامتياز، فإما أننا نؤمن أو لا نؤمن، وفي كلتا الحالتين هو قرارنا الحر والمتاح أمامنا. يمكن أن تعتبر الدين وهما أو أسطورة أو خرافة، أو تعتبره حقيقة أو تتيه بين المعتقدات، لك الحق في كل أنواع الاعتقاد من ألحدها إلى أعمقها روحانية، كما يمكن أن تعتقد أنك ولدت ملحدا أو محايدا أو مسلما، عندك متسع لا حدود له من الاختيارات التي تتصارع أمامك وتهاجمك في عمق تفكيرك واعتقادك، لكن عليك يوما ما أن تقرر وتصل إلى عقيدة ما لتخرج من عقيدة وعقدة التيهان، وهذه الخطوة ستقوم بها إما عن قناعة أو تقليدا أو استسلاما لكثافة وتركيب وتعقيد أمر المعتقد أو اضطرارا واقعيا. وقد تصل إلى قناعة مفادها أن العلم شفاك من مرض الدين، أو أن الدين شفاك من مرض العلم، أو أن الدين والعلم أنجياك من مرض الضلال الوجودي، أو تصل إلى أن الدين دين وله مكانه، وأن العلم علم وله مكانه، أو أن الحياة كلها لعب وتيه ولا وجود للحقيقة أصلا. أو أن الله موجود أو أنه غير موجود، لكن كيفما كان اختيارك فذاك معتقدك، إنه دينك. وهذا يعني ضمنيا وبشكل متواتر أن سؤال الله، وسؤال الدين، وسؤال الموت ، وسؤال ما بعد الموت كلها أسئلة تحيل على حقيقة ثابتة بالتواتر في تاريخ الإنسانية، إنها حقيقة أن الإنسان لا يشبعه الوجود المرئي فيبحث في وعن عالم آخر غير العالم المرئي، هذا التواتر التاريخي في مختلف الثقافات إلى اليوم لا يدل على بلاهة الإنسان، ولا على عدم إعمال عقله بل على أن هناك شيئا ما أقوى في هذا الإنسان لا يريد عقل الإنسان تناسيه أو تجاوزه، وإذا ما حاول ذلك فإن الذي يتحكم في فعله بالمطلق هو قربه وبعده من

الاسئلة الحارقة وجوديا. وعليه يغدو الدين والتدين جزءا من التاريخ البشري مما يرفعه إلى درجة المكون المركزي الذي نمتنع عنه ونرغب فيه، نشك فيه ونعتنقه، ننفيه في كل مرة ونثبته في كل مرة.

وما أن نسلم أنفسنا لأي دين فإن ذلك يعني التسليم له بمقتضيات الإيمان به، وعباد الرحمن من ذاك الصنف الذي قطع مع كل تلك الأسئلة الوجودية بالمطلق، وانتهت صلاحيتها لديه، وانبرى للتعمق في مقتضيات الإيمان على أنه حقيقة منظورة، لذلك من خصائص عباد الرحمن أنهم يتوجهون إلى ربهم بيقين مطلق لا شك فيه، ومبني على حقيقة مفادها أن العقاب الأخروي ممتد ودائم وسيء. والجزاء الجميل ممتد ودائم ورائع لأنهما من عدل الرحمن. فالإيمان بالعالم العلوي من خصائصك يا عبد الرحمن، والتعوذ من شره من أدعيتك، لأن علاقتك الميتافزيقية الليلية التدبرية حررت جوانيتك من عالم الناس والأشياء ولم تعد أسير قال فلان، وقال علان، وظن فلان، وظن علان، بل إن إيمانك العميق جعلك تعانق النصوص وفق إمكانياتك وتحولها إلى سلوكات تقربك من الرحمن، إنه عالم تقول فيه لرب الناس: ربي اصرف عني عذاب جهنم لعلمك بضعفك وأخطائك .

إن مسألة الله والآخرة والدنيا أضحت عند عباد الرحمن أمرا جوهريا وجوديا، فالإيمان لا يعني فقط الاعتقاد بأن هذا الدين صحيح، ولكن أيضا أن علاقة عبد الرحمن بالرحمن علاقة حية دينامية فيها قوة وفيها هشاشة كذلك، تأتي على عبد الرحمن لحظات الضعف التي تستوجب التوجه للرحمن من أجل الاعتذار عن الذنب وطلب المساعدة، فعبد الرحمن إنسان مزدوج الماهية والكينونة والسلوكات، ولا وجود لعبد للرحمن كاملا مكتملا أبدا، وعليه، فالخطأ من خصائص عباد الرحمن والرحمة من صفات الرحمن .

لا يحتاج عبد الرحمن للتأكد من وجود جهنم إلى التجربة الدنيوية لأنها عاجزة بمختلف علومها، بل لا يهمها أمر الآخرة أصلا، وعليه يقوم عبد الرحمن بالسفر الليلي راكبا آيات قرآنية وتأملات روحانية تقربه مما لا يمكن أن يتحقق منه علميا وتجريبيا، إنه يا ناس وبلغة الفلاسفة التسامي أو التعالي، فالله أخفاه على الناس ولا يريده إلا إيمانا لا علما. يريده تساميا وتعاليا وعليه، تكلموا مع الله ليلا أيها الناس، وكونوا من الذين "يَقُولُونَ رَبَّنَا اصْرِفْ عَنَّا عَذَابَ جَهَنَّمَ إِنَّ عَذَابَهَا كَانَ غَرَامًا ﴿65﴾ إِنَّهَا سَاءَتْ مُسْتَقَرًّا وَمُقَامًا" (الآية 66 سورة الفرقان).

التأمل القر آني السادس: تخوم سورة الفرقان 6، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (في تدبير الإنفاق)

قال تعالى "وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا"

(الآية 67 سورة الفرقان).

تستمر آيات سورة الفرقان في بسط خصائص عباد الرحمن بالانتقال إلى خاصية مركزية أساسية تهم التدبير العام لكل ما يمكن أن ينفقه عبد الرحمن، سواء وقته أو ماله أو عمره أو جهده أو اجتهاده أو عواطفه أو تمتعه أو عبادته... ببوصلة سهمها حساس لِحَدَّي الإسراف و الإقتار. وقد نعتقد بداية أن الإنفاق متعلق فقط بالمال لكنني أعتقد أن الأمر متعلق بكل ما ننفقه أيا كان، وفي أي زمان، وأي مكان، وأي حال. "وَالَّذِينَ إِذَا أَنفَقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلَمْ يَقْتُرُوا وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا " **(الآية 67 سورة الفرقان)**، ومعناه كان متوازنا عدلا وسطا، والتوازن يقتضي وجود حالتين أو صفتين متعارضتين، ويكون الميل لواحدة منهما مؤديا لعدم التوازن والاضطراب. وعليه، فإن توازننا يتزعزع عندما نسمح لأنفسنا بالانجراف وراء هوى غير مدروس فيه خفة وتسرع، يجرنا إلى الانغماس والسقوط في أحد الطرفين النقيضين.

إن حديث الآية عن التوازن يستبطن حقيقة واقعية مفادها أننا يمكن أن نقع في عكسه أي في التطرف، فالآية تنفي وجود الفرح الأبدي، والحلول الجاهزة، والسعادة المطلقة، بل تكاد تنطق قائلة: إنه لا يمكن إدراك الأشياء الجميلة إلا بإتقان كفاية الموازنة بين حدي الإفراط والتفريط، فاللحظات الجميلة تولد من رحم مكابدة مشقة الموازنة. وبلغة الفلسفة يمكن أن نقول: إنه إذا كانت الفلسفة تعني في الأصل البحث عن الحكمة فإن البحث عنها في السلوكات اليومية والمواقف الحياتية لعبد الرحمن تجعل منه فيلسوفا عمليا، إذا استطاع إيجاد فلسفته الخاصة في الحياة التي مكنته من أن يأتي بالفعل المناسب في الوقت المناسب وبالشكل المناسب، هكذا نحقق فلسفيا معنى أعمق للحياة، فتغدو فلسفتي هي قدرتي المنهجية الراقية على تحقيق اتصال وتواصل حقيقي في العالم الذي أعيش فيه هنا وليس في زمن آخر ومكان آخر وبفلسفتي أنا لا بفلسفة غيري. هذا يعني: أنني أعيش قيمي لا قيم غيري، ولا يوجد سبب يجعلني أتظاهر، وأقف

وراء ما أقوله وما أفعله. فالشخصية الحقيقية تعمل من خلال أصالتها الفلسفية التي طورتها بتبني الموازنة بين تناقضات الواقع والفكر، وبممارستها لاختياراتها المعيشية، أي أنها تعكس قدرتنا على أن نعيش سعداء بما نملكه من فكر ومنهج بانيين للتفاعل الإيجابي مع الواقع المنظور بفكر معقول، هنا تحضر كفاية التوازن والموازنة باعتبارها أعلى ما يمكن أن نكتسبه في صراعنا الدائم بين ما نؤمن به وما يفاجئنا به الواقع. " **وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا" (الآية 67 سورة الفرقان)**، معناه اكتساب كفاية التوازن باعتبارها قدرة أو قدرات للتفاعل والممارسة اليومية. يتعلق الأمر إذن بقدرتنا على البقاء نفسيا ووجوديا ...إلخ في الوضع الأنسب والأربح مع علمنا اليقيني أننا نعيش وضعا متغيرا، وتبعا لذلك يغدو توازننا هو كذلك ديناميا مستحضرا الوعي التام، والحيطة المستمرة من أن نقع في موقف يحطمنا، حيث أننا وجوديا نتموقع بين حافتين خطيرتين حيث هاوية الإسراف على اليمين وهاوية التقتير على اليسار .

" وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا" يمكن أن يشمل كذلك الموازنة بين الكثير والقليل من التفكير في حياتنا، بين القليل والكثير من الحرص والهم، بين القليل والكثير من الخوف، بين الحرية والفوضى، بين الألم والمتعة، بين الجبن والشجاعة، بين الحب والبغض، بين العمل والراحة، بين المثالية والواقعية... بمعنى أن كل سلوكاتنا ومشاعرنا وأفكارنا تمتد بين الشيء ونقيضه، لذلك فقياس التوازن بين النقيضين هو فن العيش وفق فلسفة "وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا".

يتحرى إذن عبد الرحمن باعتباره إنسانا قواما وقويما العدل والوسط المبنيان عن وعي تام بتخوم التطرف السلوكي والمعرفي والعاطفي والمادي في الاتجاهين المتناقضين، لا يريد عبد الرحمن أن يلام ولا أن يتحسر في ملكوت السماوات والأرض وأمام رب الأرباب بسبب نزوع نفسية نحو الشح أو الإسراف في أموره كلها، فسعادة الإنسان تكمن في تحسس وضعية "وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا" والميل معها أينما مالت.

إن عبد الرحمن له علاقة بالعالم الدنيوي كما له علاقة بالعالم الميتافزيقي. عبد الرحمن لا يعرف حالة الانفصال بين وجودين، أي بين وجود ملموس، ووجود محدوس. عبد الرحمن معتدل بين وجودين، ومعتدل بين سلوكين في التعاطي مع المال والوقت وكل ما يُنفق أو

يُتصرف فيه، ولا وجدود للاعتدال بدون معرفة الطرفين النقيضين، عبد الرحمن متلبس بالاعتدال لأنه موقف سلوك علمي مبني على المعرفة والمنهج. أن تكون قواما بين سلوك الإسراف والإقتار معناه: أنك قد تملكت كفاية التدبير الذاتي والمادي. عبد الرحمن رجل تدبير لعلاقته العلوية والدنيوية بامتياز. أن تكون بهذه المواصفات: أنت عبد الرحمن، عبد الرحمن ليس عبثيا ولا مفرطا ولا مبددا ولا مضيقا على نفسه ولا على البشر، والحجر، والشجر، والدواب. كيف لا: وهو عبد للرحمن، والرحمن مصدر الرحمة.

التأمل القرآني السابع: تخوم سورة الفرقان 7، خصائص الإنسان الكوني أفقيا وعموديا (المعترضين عن النبوة)

"وَقَالُوا مَالِ هَٰذَا الرَّسُولِ يَأْكُلُ الطَّعَامَ وَيَمْشِي فِي الْأَسْوَاقِ ۙ لَوْلَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مَلَكٌ فَيَكُونَ مَعَهُ نَذِيرًا"

(الآية 7 سورة الفرقان).

يصعب على الإنسان المتكبر أن يقبل الحقيقة الصادرة عن غيره، لذلك يبحث عن مصدر أعلى منه ليقبل حقيقة صادرة عن نظيره، والسبب هو الحاجز السيكولوجي الذي اعترى البنية النفسية للمتكبر. لذلك فكل متكبر مريض حتى يتخلى عن كبره، وكل متكبر أعمى عن الحقائق حتى يزيل عنه حجاب أنانيته. وكل إنسان مجتهد صادق سيصادفه هذا النوع المتكبر مرضا وجهلا.

لكن دعونا نسائل الآية الكريمة ونحاول فهمها. فمن لطائفها أنها تورد وجوه الاعتراض على نبوة البشر لأمثالهم، ويتساءل المعترضون كيف لرسول أن يأكل الطعام؟ وكيف له أن يمشي في الأسواق؟ لماذا لا يتم شد أزره بملك يكون معه نذيرا؟

يخفي هذا الاعتراض إشارة دقيقة المعنى غير معلن عنها في الآية مفادها أن الإنسان بما هو إنسان أقل من أن يكون في مستوى وظيفة النبوة، والملك أعلى مرتبة وهو دليل حقيقة النبوة، ونزيد ونقول، أن وجه الاعتراض يناقض دليل الاعتراض، لأن حقيقة الأمر هو أنهم يريدون الرسالة لأنفسهم لا لغيرهم رغم أنهم بشر، لكن الله صدمهم فاختار غيرهم ممن هم في اعتقادهم دونهم مكانة. إن المعترضين ينظرون إلى أنفسهم نظرة علو لكنها حقيقة عبارة عن غطرسة مزيفة وتفوق كاذب يخفيان انخفاضا حادا في تقدير الذات، والدليل هو أنهم مثلهم مثل الرسول بشر كذلك، وعليه، فإن تصورهم عن أنفسهم يستبطن اعتقادا مفاده أنهم غير مكتفين بذواتهم في تبليغ النبوة، بل متعلقين بغيرهم. وهذا اعتقاد ينقص من قيمة الإنسان بما هو إنسان.

أعتقد أن معايير النبوة عند المكذبين تناقض معايير النبوة عند الله، فانسداد أفقهم في مجال عيشهم جعل معاييرهم بشرية لا ترقى لتصبح معايير علوية. كما أنها تخفي جهلا بماهية

الإنسان وكينونته، فتصوراتهم مشدودة إلى الأرض مكانا ومكانة، أما معايير الله فعلوية المصدر والهدف والوسيلة. ويخفي اختيار الله للبشر رسلا مبلغين عنه لنظرائهم حقيقة عالية مفادها أنه عز وجل يعترف بشكل مباشر بعظمة هذا المخلوق ليبلغ عنه أمرا، بل أمورا علوية المصدر، وأرضية النفع مع ما يستبطن ذلك من تحديات ومشاكل وعقبات.

لقد توجه انتقاد المخالفين إلى الصفات الأرضية للرسول، الأكل والمشي في الأسواق، وطلبوا إحضار ملك لينضاف الجانب العلوي الميتافزيقي إلى الجانب الأرضي ليؤازره وتكتمل الصورة لديهم فيطمئنون إليه على زعمهم، لكن جواب الله يحيل على لطيفة أخرى أعتبرها من روائع التصور الأنثروبولوجي للإنسان في الإسلام ومقتضاها: أيها الناس إنكم باعتباركم بشرا يجتمع فيكم بعد أرضي وآخر سماوي علوي، فلا تحتاجون لمخلوق غيركم لأداء مهمة الإبلاغ.

لقد خلقنا المبدع وهو أدرى بعظمة خلقه. إننا خليط من عالم الميتافيزيقا والعالم المعيش، فلا تبحثوا عن غيركم لإفهامكم فأنتم مكتملون بأنفسكم. ومقتضيات كمالكم لأداء الرسالة يتضمن كمال الجسد، والجمال الخلقي، وقوة العقل، ونقاء الفهم، وفهم الكلام، وصناعة الرموز، ودقة الحواس، وقوة الأطراف، والتوازن البناء، والنبل.... وهذه الخصائص تحتاج لكي تستمر فيكم إلى الهواء والماء والطعام والنوم والملابس وكذلك إلى الزواج والتناسل. ازدواجية علوية وأرضية. وتعتبر الرسالات السماوية برامج أو أنظمة تشتغل بها آلاتكم أي أجسادكم بما فيها قلوبكم وأدمغتكم. إنّها مجموع الأوامر والتعليمات التي تُرشد جهازكم إلى كيفية القيام بعمله في محيطه المعيشي أثناء مواجهة المشاكل منذ لحظة ولادته. يكاد الإنسان أن يكون على رأي المدرسة المعرفية والبنائية جهازا لمعالجة معطيات العالم الخارجي، فأجسادكم بما فيها قلوبكم وعقولكم عبارة عن آلات لا تشتغل إلا ببرامج إلهية يزودنا بها الله، وبعد ذلك قد نبقى أوفياء للمصدر الأول، أوقد نثور عليه، ونبدأ في تطوير برامج فرعية لا تخرج عن النسق العلوي العام إلا لتعود إليه ولو اعتقدت عكس ذلك. وقد تكون نافعة للنظام أو مضرة به، وعليه اعلم أيها الإنسان أنك خليط من مكونات مادية وبرمجيات غير مادية، تتضمن النظام العام والبرمجيات الإلهية، والبرمجيات الإنسانية النافعة والضارة، ولا يمكن أن تسمى إنسانا إلا إذا وازنت بين هذه المكونات. وتبعا لذلك، ونظرا لهذا التكوين الخلقي المزدوج والمحكم فأنت لا تحتاج إلى ملك ليبلغ بني جنسك فهومك وتأويلاتك وحقائقك، بل إنك مزود بنظام دقيق مكتمل يفي بالغرض وزيادة، إذ بإمكانك أن تزيد

وتوسع وتعدل وتشرح وتحذف وتقدر، أما الملك فلا يفعل إلا ما يؤمر به. وتحسب أنك جرم صغير وفيك انطوى العالم الأكبر. وبرمجيات الله التي هي الرسالات تشمل الأخلاق والمعرفة، والصمود، والصبر، والامتنان، والعدل، والزهد المفضي إلى الانفصال الجزئي عن ماديات العالم التي يمكن أن تجرفنا إلى هوة سحيقة نفقد من خلالها بعدنا الميتافزيقي، يريد الله أن يزرع فينا التواضع، والمغفرة، والكرم، والشجاعة، والحياء، والصمت، والبصيرة، والجدية، والرحمة والتراحم، وحسن السلوك، والصداقة ، والعدل...لذلك توجهت الرسالات إلى البرمجيات لا إلى الجسد وما حوى، وإن تناولت الجسد فلا تتناوله إلا للحث على تنظيفه أو تزويده بالطاقة، أو ترويضه على التحمل، أو تجنيبه ما يمرضه كي يستمر في إنتاج البرمجيات الدنيوية مستعينا بالأصل الأول أو ثائرا عليه. وتأسيسا على ذلك كله، فإن الاستعانة بالملك استعانة بمخلوق سجد للإنسان في السماء، وهو مخلوق مجبول على الجبر عبادة، وأنتم أيها البشر مجبولون على الحرية والاختيار. وليس من الفطنة أن يتبع مختار مجبور إلا في ما يؤمران به باعتبارهما عبدين لرب واحد، وانتهوا فإن كل ما ذكرته ينسحب على الناس جزئيا أما الأنبياء فيشكلون أعلى مراحل الكمالات الإنسانية التي تُصنع على عين الله مباشرة.

التأمل القرآني الثامن: تخوم سورة الفرقان 8، في الاستكبار والغطرسة

"وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا"

(الآية 41 سورة الفرقان).

"وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا "

(الآية 21 سورة الفرقان).

لا أبالغ إن قلت إن أوسخ رذيلة نبذها القرآن جملة وتفصيلا هي رذيلة الاستكبار، إذ أن المريض به انغلقت عليه الأبواب، أو أغلق عليه أبواب التعلم والعلم والإيمان، وحتى إن تعلم وأتقن الكلام والكتابة فإن تصريفه لما تعلمه يكون بأبشع الطرق المرضية/ السيكوباتية، ويصف الفلاسفة (فاليري تيبيريوس) و(جون ووكر)(Valerie Tiberius & John D. Walker) هذا السلوك بكونه مستهجنا أخلاقياً وغير مرغوب فيه، لأن له آثارا سلبية على الشخص المتغطرس والبيئة الاجتماعية، ونضيف أن له تبعات على مكونات الوجود المنظورة بل وغير المنظورة. فالمتكبر يتجاهل بشكل مرضي القيم الإنسانية الأساسية بأن كل إنسان يجب أن يُحترم على قدم المساواة في إنسانيته وكرامته، فيرفع هو من شأن نفسه على حساب الآخرين بشكل فج وعدواني، فالأقوال اللفظية وغير اللفظية العدوانية وسيلته للتواصل مع الآخر والسبب هو أنه مهووس بتحديد وضعه ومكانته في الجماعة والذي يجب أن يكون هو الأعلى ولو عند نفسه.

فهم في خطابهم وتواصلهم حتى مع العلماء، بل والأنبياء، بل مع الله مستكبرون: "وَإِذَا رَأَوْكَ إِن يَتَّخِذُونَكَ إِلَّا هُزُوًا أَهَٰذَا الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ رَسُولًا" (الآية 41 سورة الفرقان)، "وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْنَا الْمَلَائِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا لَقَدِ اسْتَكْبَرُوا فِي أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا" (الآية 21 سورة الفرقان).

إن الاستكبار في النفس هو إعجاب بالنفس وغرور جواني عال يحس معه المستكبر باستعلاء غاية في النشوة والاستمتاع. أما الاستكبار الخارجي أو مع الناس، بل ومع رب الناس فهو

نتيجة الاستكبار في النفس، ومرتبط بإتيان سلوكات تحقيرية تبخيسية تجاه الآخر كيفما كان. إن الاستكبار الخارجي هو تجل لاستكبار داخلي. وهو ما سمي في الآية: بالعتو. إنه تجاوز في التعامل مع الغير. والمستكبرون لا محالة هم عتاة .

وتلعب التنشئة الاجتماعية دورا أساسيًا في تطوير الميل إلى الغطرسة وإظهار السلوك المتعجرف، ولا يظهر السلوك المتعجرف إلا بوجود محفز والذي يمكن أن يكون اختلافا مع شخص منافس على سبيل المثال. أو يمكن أن يكون فقط تكهنا يهز النفس المضطربة ويهددها في عجرفتها، فالمتكبر مولع بامتلاك السلطة والقوة على الآخرين، وإذا تملكهم وساد فيهم مارس عليهم غطرسته في اسوء تجلياتها، وكل ذلك لا يزيده عند نفسه إلا مزيدا من تقدير ذاته وإطلاق بل وإشباع نزواته على حساب من هم دونه، وقد تكون نزواته مادية أو معنوية أو معرفية أو اجتماعية أو هذا كله أو بعضه، لكنه دائما يحاول التأكد من أن بيئته لازالت مصنفة عنده بأنها قابلة لممارسة غطرسته، لذلك يكره المتكبرون العلماء أو الأنبياء أو حتى الله لأنهم يرونهم منافسين للألوهية التي تسكنهم. يريد المتكبر أن يتمتع بمكانة عالية في المجتمع لكن ما لا يعيه ولا يصل إلى تفكيكه نظرا لعاهته النفسية هو أن عجزه على ربط علاقات اجتماعية صادقة تحيله على ضرورة اعترافه بأنه لا يتوافق على الإطلاق مع المثل الأعلى الاجتماعي للشخص الذي يدعيه لنفسه، أي المتفوق اجتماعيا، لأن المجتمع القريب منه صنفه بالإجماع على أنه مريض، ويتجنبه بكل الوسائل، والمجتمع العلوي صنفه على أنه خاسر بالإطلاق: "إِنَّ ٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَٱسْتَكْبَرُواْ عَنْهَا لَا تُفَتَّحُ لَهُمْ أَبْوَٰبُ ٱلسَّمَآءِ وَلَا يَدْخُلُونَ ٱلْجَنَّةَ حَتَّىٰ يَلِجَ ٱلْجَمَلُ فِى سَمِّ ٱلْخِيَاطِ وَكَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْمُجْرِمِينَ" (الآية 40 سورة الأعراف).

ولقد اعتبر (ألفريد أدلر) الاستكبار سعيا للتعويض عن مشاعر الدونية، التي يمكن أن يطورها المستكبر سواء على أساس نقصه الفطري أو البيولوجي، أو كذلك بسبب التشوهات القوية التي تكون قد لامست تصوره عن نفسه والآخر، فالمتغطرس شاك في شخصيته مما طور لديه عقدة النقص، ومن أجل التستر على عقدته، يطور إحساسًا بالتفوق كآلية حماية، يمارس من خلالها تحقيرا على الآخرين خصوصا إذا كانت لديه سلطة معينة، وتفسير(أدلر) لا يختلف كثيرا عن تفسير فرويد الذي نسبه لمرحلة الكمون. إن المستكبر يعمل كل ما في وسعه لإزاحة من يعتقد في مزاحمتهم له في تفوقه المزعوم ولو كان الله في اعتقاده هو المنافس، لذلك قال الله عنهم:

"وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُهُمْ وَلَا يَضُرُّهُمْ وَكَانَ ٱلْكَافِرُ عَلَىٰ رَبِّهِۦ ظَهِيرًا" **(الآية 55 سورة الفرقان)**، ومعناها أن المتغطرس الكافر يتعاون ويدعم ويساند كل من يحارب ربه الذي هو عند نفسه منافسه. ومن لطائف آيات القرآن أن يقرن الله الاستكبار بالإجرام، فالمستكبر مجرم بدرجة مارشال، فأينما ساد دمر الحرث والنسل، في أي مجتمع أو أسرة أو مؤسسة اجتماعية "**فَٱسْتَكْبَرُوا۟ وَكَانُوا۟ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ** " **(الآية 133 سورة الأعراف)**

ولأن رذيلة الاستكبار أقبح رذيلة على الإطلاق كان تعامل الله معها قويا ومخيفا بأن قال فيهم: "**سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِىَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ**" **(الآية 146 سورة الأعراف)**. ولو تعمقتم في هذه الآية لأدركتم مدى خبث النفوس المتكبرة ومعاكستها للحق سواء مع الله أو مع الناس، فهي لا ترى لا ببصرها ولا ببصيرتها بل بمرضها .

يعيش أغلب هؤلاء المتغطرسون بين تناقضين أساسيين هما التباين بين الصورة الذاتية للفرد عن نفسه وحكم الآخرين عليه، مما يجعلهم يعيشون توترا نفسيا قويا قد يصلون معه إلى تدمير أنفسهم بسلوكات عدوانية أو استغلالية أو تحديات ميتافزيقية في أبهى صورها: "**وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَآءَنَا لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ نَرَىٰ رَبَّنَا ۗ لَقَدِ ٱسْتَكْبَرُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا**" **(الآية 21 سورة الفرقان)**. وقال عز وجل: "**وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓا۟ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْا۟ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا۟ وَٱسْتَكْبَرُوا۟ ٱسْتِكْبَارًا**" **(الآية 7 سورة نوح)**.

يظهر أن المتكبرين في المجتمع يصنفون معارفهم وإمكاناتهم وأعمالهم وأقوالهم وأفعالهم... أهم من أي شيء يقوم به غيرهم، فهم الأصل والباقي تبع. أما من يعاشرونهم فيجب أن يكونوا متاحين لهم في أي وقت يريدون، وبالشكل الذي يريدون، وفي المكان الذي يريدون، والخلفية الثاوية وراء ذلك هي أن المتكبر لا يعمل مع الناس، بل هم من يشتغلون معه ولصالحه وصالح أفكاره وأفعاله، فشعوره بالتفوق يقابله اقتناعه التام بأن غيره من البشر لا يمكنهم تقديم أي قيمة مضافة إليه، فهو مكتف بنفسه كالإله بالتمام والكمال. ومن خصائص المتعجرف أنه قد

يندم على سلوك ما لكنه لا يتعلم منه أبدا، وإذا تعلم فإنما يتعلم في الاتجاه المعاكس أي يطور آليات جديدة لمقاومة ما يفقده الإحساس بالتفوق، وعليه فإن سلوكاته غالبا ما تتسم بالعدوانية التي لا ينتج عنها أية مشاعر إيجابية تجاه الآخر أو حتى الإحساس بآلامه ومعاناته، فهذا لا يعرف لقلوب المتكبرين طريقا بل بالعكس تماما ربما انتشوا بآلام الأخرين. قال عنهم رب العزة أن قلوبهم منكرة، "إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْءَاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ" **(الآية 22 سورة النحل)**. بمعنى أن الخلل عميق ولامس عمق شخصيتهم.

تأملات في آي الله سبحانه وتعالى

﴿التعدد العقدي، الماء والنطق﴾

التأمل القرآني الأول: التعدد العقدي باعتباره فرصة لا تهديدا

- "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ"

(الآية 17 سورة الحج).

- "إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ"

(الآية 62 سورة البقرة).

أعتقد أن الآيتين الكريمتين تحيلان على التعدد العقدي الذي سيلازم الإنسانية إلى يوم البعث، وتبعا لذلك لا يعتقدن أحد أن سيطرة أي معتقد على باقي المعتقدات ممكنة، بل الممكن حسب كلام الله هو استمرار وجود الأديان على اختلافها وقربها وبعدها من تعاليم الله، وتبعا لذلك فكل الأديان تتكلم عن الإله لكنها ربما لا تتحدث نفس اللغة عن الله، وليس لها نفس الطقوس، ولا تمتلك نفس مكونات العقيدة، ولا نفس موجهات السلوك، وقد تتقارب قيميا وقد تتباعد، إلا أن الفكرة المركزية التي توحدهم هي وجود الإله الذي ترتبط به طقوس وواجبات معينة .

إن من لطائف الآيتين أعلاه، أن الله أكد على استمرار الاختلاف من جهة، وأنه هو الذي سيفصل بين أهل المعتقدات، وأنه عز وجل هو الشاهد على صوابهم وخطئهم، وأنه عز وجل سيعترف لكل أهل ملته بصوابها، بل سيجزي أهل الصلاح منهم بما يستحقون من الجزاء، وفي هذا دليل كما يلي:

- ✓ في كل أمة هناك نسبة من الصواب؛
- ✓ في كل ملة هناك أهل الصلاح؛
- ✓ الله أعلم بخلقه ونواياهم وما يسرون وما يعلنون ولو كانوا مخالفين لنا لذلك تكفل بالجزاء؛
- ✓ الاختلاف بين الملل قدر إلهي لا يرتفع،

وعليه، يمكن أن نقول: إن التعدد حتمي ويمثل إرادة الله، وأكيد أن فيه تنافس بين الصواب والخطأ، والسؤال هنا هو كالتالي: ما دام التعدد العقدي إرادة الله فكيف نجعل منه فرصة لا تهديدا؟

يمكن اعتبار التعدد الديني إثراء للقيم الإنسانية المبنية على الحرية العقدية من جهة والبعيدة عن الإكراه من جهة ثانية، ويمكن أن يشكل هذا التعدد الذي يتضمن الاختلاف اختبارا لمدى إيمان أهل الديانات المختلفة بحق الآخر في الوجود واحترامه ولو بدا لها أنه على باطل، فالرحمن الرحيم قدر هذا التعدد وجعله حتميا، على الأقل فيما نعتقد نحن. ويتجلى هذا التعدد والاختلاف كذلك بين أهل الديانات الواحدة التي قد تتباين فهومهم لنصوصها المقدسة تباينا حد التناقض. بل إن هذه المُفهوم تعرف تطورا وتغيرا مستمرين لأن أي دين خاضع لزوما للتطور بحكم طبيعته الامتدادية في المجتمعات، وتلبسه بخصائصها الاجتماعية والنفسية والثقافية، إضافة إلى تطور العلوم وتأثيرها في تأويلات العلماء، وتجدد القضايا الإنسانية وما تطرحه من تحديات على أهل كل الأديان سواء عوامهم أو خواصهم.. ويمكن أن أدعي أن ما يجعل هذه الأديان تستمر في الوجود والامتداد هو قدرتها على التكيف، وعليه فكلما كان المعتقد مرنا وقابلا للتطوير والتعميق والتكيف مع سياق وجوده زمانا ومكانا كلما دبت الحياة فيه أصولا وفروعا وأثبت مواكبته للتغيرات التي تطال سيرورة الحياة الإنسانية، والعكس صحيح، أي كلما انغلقت أي منظومة دينية أصابها الفقر الداخلي والعوز الخارجي واتجهت نحو الاندثار البطيء. ومن جميل ما تحيل عليه الآية محل التأمل أن يوم القيامة سيكون يوم النظر في الآراء والفهوم المختلفة، إنه يوم خاص بتفكيك منطق وهدف وأسباب الاختلاف بين أهل الديانات، هذا النظر الإلهي يتغيا العدل في الحكم والجزاء على العمل. وأعتقد أن وجودا متنوعا ينتهي بإشراف رباني على منطق المختلفين والحكم على اجتهاداتهم يستحق أن ينظر إلى التنوع العقدي على أنه فرصة لفهم الآخر وفهم منطقه والبحث معه على الصواب، خصوصا وأن واقع الحال الآن في العالم كله أصبح يؤكد بالملموس أنه لم يعد هناك بلد واحد لا يحتضن تنوعا عقديا، أم التنوع الفكري والفلسفي فحدث ولا حرج. بمعنى آخر لا سبيل إلى بلوغ أعلى مدارج الإنسانية إلا بالانفتاح على التعدد الذي يسكن مكوناتها فروعا وأصولا. إن وجود عناصر دينية أو ثقافية غريبة داخل نسقي ديني أو ثقافي معين تخلق على الأقل أمرين اثنين داخل هذا النسق :

- ✓ الإحساس بتهديد جسم غريب خصوصا إذا كان مصنفا في دائرة العداء ومع هذا الإحساس يزداد منسوب الخوف المؤدي إلى التطرف؛
- ✓ الفضول من أجل التعرف على المختلف انفتاحا عليه لا رهبة منه، ومع هذا الإحساس يزداد منسوب التسامح المؤدي إلى الاعتدال.

وأعتقد أننا في حاجة إلى التفاعل الإيجابي مع المختلفين عنا، ومما يزكي هذا الرأي، قوله تعالى في سورة الحجرات: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ" **(الآية 13 سورة الحجرات)** ، فهذه الآية منفتحة على كل الناس وغايتها تطوير قدرة بني البشر على قبول التعدد الذي ارتبطت به التقوى في هذا السياق، التقوى هنا هي اعتراف وحسن تعامل وانفتاح مقصود على خلق الله من بني البشر بغض النظر عن معتقداتهم وأديانهم. وبعبارة أخرى الانفتاح على خلق الله اقتراب من الله لأنه تنزيل لسنة التعارف الربانية بدون عقد نقص ولا تفوق .

التأمل القرآني الثاني: في آية من آيات القسم الرباني (في النطق)

"فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ"

(الآية 23سورة الذاريات)

لا أخفيكم أن آيات القسم الرباني تشدني شدا، وأطرح حواليها أسئلة مختلفة بشكل علني وضمني، وأحاول أن أعمل عقلي لفهم منطوقها وأبعادها الدلالية، والحكمة التي تسكنها، ومن بين هذه الآيات الآية موضوع التأمل. سألت نفسي: لماذا يحيل الله على حقيقة نطقنا في قسمه على صحة رسالته؟ هل في نطقنا الذي يبدو أمرا بديهيا ما يجعل المنكر يقتنع برواية الخلق والحق؟

واستحضرت ما تعلمناه في الصغر وقرأناه في الجامعة من أن الإنسان كائن ناطق، وبدأت منهجيا بالنظر في فعل (نطق) كيف ورد في بعض آيات القرآن الكريم:

- "قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ" (الآية 63 سورة الأنبياء)؛
- "ثُمَّ نُكِسُوا عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ" (الآية 65 سورة الأنبياء)؛
- "وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لَا يَنْطِقُونَ" (الآية 85 سورة النمل)؛
- "هَٰذَا يَوْمُ لَا يَنْطِقُونَ" (الآية 35 سورة المرسلات)؛
- "وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنْطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ" (الآية 62 سورة المؤمنون)؛
- "وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنْطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِنْ كُلِّ شَيْءٍ" (الآية 12 سورة النمل)؛
- "مَا لَكُمْ لَا تَنْطِقُونَ" (الآية 92 سورة الصافات)؛
- "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ" (الآية 21 سورة فصلت)؛
- "هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ" (الآية 29 سورة الجاثية)؛
- "فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنْطِقُونَ" (الآية 23سورةالذاريات)؛

- "وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ" (الآية 3 سورة النجم).

أعرف مسبقا أن ما سأخطه ليس إلا فتاتا بسيطا مما تحمله هذه الآيات ذات المصدر العلوي المتعالي عن الأزمنة والأمكنة والثقافات، فتقبلوا تأملاتي، وعسى ربي أن يقبلها عنده.

يعرف النطق غالبا على أنه التلفظ أو الكلام بحروف وكلمات لها معاني، ونطق بالشيء يعني كذلك جهر به، ونطق بالحق شهد به، وفاقد النطق أبكم وأخرس، والنطق في المنطق إدراك للكليات وفهم لها، والمنطق البليغ.... ومصدر النطق هو اللسان. وأرسطو قال بأن الإنسان حيوان ناطق، ويقصد به جانب العقل لا جانب إخراج الأصوات. ونقصد بالنطق ما هو أهم كذلك وهو اللغة بدلالتها العامة منطوقة ومكتوبة وإشارية، يكاد النطق يجمع خصائص الإنسان النفسية، والسلوكية، والمعرفية، والاجتماعية.

واللغة هي من أعظم قوى الإنسان. إنها بالفعل ما يميز نطقه، بل إن كل ما يقوم به يمكنه أن يترجمه إلى لغة حتى أنه يمكن أن ندعي مثل غيرنا على أن اللغة تشكل كينونة هذا المخلوق، فبها يمكن تفعيل أي شيء في الوجود الإنساني. بل إن الوجود البشري نفسه نسيطر عليه بالكتابة ونأسره بالتدوين حسب فهومنا المتنوعة ونخلده في اللغة بناء على تأويلاتنا المتباينة، وهذا مكمن تفوق هذا المخلوق، إن لديه نطقا لا صوتا، ولديه فهما لا غريزة، ويراكم المعرفة ويبني عليها عكس الحيوانات التي تتصرف نفس التصرف بنفس الإمكانات والموارد منذ آلاف السنين، الإنسان يبني الخطاب، ويشارك الخطاب، ويفكك الرموز ويطورها ويعمقها ويعطيها من التأويلات ما يستجيب لسياقه وزمانه ومكانه وثقافته، الإنسان يسائل باللغة، ويندهش أمام الوضعيات الطبيعية والاصطناعية بل ويبني المفاهيم ويصنعها، لغته ليست فقط لغة تواصل بل لغة تساؤل وتفكيك وتحليل، مع هذه الأبعاد المختلفة أرى أن النطق هنا يجمع بين كل هذا وذاك، كما إن نطق الإنسان يمكن أن يكون نطق حق ونطق باطل في الجانب المعياري منه، فيوظف أدوات النطق لإنتاج الوهم لا العلم، والتضليل لا الهداية، والهدم لا البناء، لذلك كان النطق الأخروي بمواصفات العالم العلوي أي نطق الحق كما في الآيتين: "هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ "(الآية 29 سورة الجاثية)، و "وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ" (الآية21 سورة فصلت).

إن اللغة باعتبارها رموزا متنوعة ومتعددة ولا نهائية يمكن أن ينشأ عنها عدد لا محدود من النطق، فينطق قوم بما لا يفهمه غيرهم، ويكتبون ما لا يفك رموزه غيرهم...ولكن أيضا يمكن لهذا الكائن الناطق أن يسعى لتقريب البعيد، وبناء الفهم المشترك، وخلق التفاهمات الممكنة بين أنواع متعددة من النطق. الإنسان مخلوق ناطق متطور. فنطقه يمكن أن يكون دينا، أو فلسفة، أو علوما طبيعية، أو علوما تقنية، أو آدابا وموسيقى وفنون، إنه المخلوق الناطق نطقا مبينا ومركبا وجميلا وكذلك مرعبا. لذلك إذا استحضر الله النطق في قسمه، وأحالنا بذلك على جوهر كينونتنا الذي هو النطق، أحالنا على ما يسكن إبداعه من أسرار. إنه إبداع إلهي يدخل في رده عز وجل على الملائكة بقوله: "**قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ**" **(من الآية 30 سورة البقرة).** ولقد انطلقت بدايات النطق الإنساني في الملكوت الأعلى بأمر إلهي لآدم بقوله: "**قَالَ يَا آدَمُ أَنبِئْهُم بِأَسْمَائِهِمْ** ." **(الآية 33 سورة البقرة)**، فكان أول النطق علما ربانيا أيها الناس. وأول النطق كان أسماء، كان لغة، كان علما أبهر ملائكة الرحمن. إن نطق الإنسان عليه أن يُفهم في أفق خيرية هذا المخلوق، وفي أفق محاولاته الدائمة لتحقيق إنجازاته، وفي أفق توليد النطق للمعاني بوسيلة اللغة. وفي أدنى تجليات النطق لن يكون إلا أصواتا تخرج من الأفواه، ونطق الإنسان لا يمكنه إلا أن يولد المعاني لأنه رموز وعلامات ثقافية واجتماعية تتطور باستمرار، حتى أننا عاجزون على فك رموز من قبلنا فما بالك بنطقهم، بل لقد لجأ الإنسان إلى تطوير علوم جديدة لفك رموز نطق قديم، ولا زال الإنسان مشدودا أمام نطقه ويحاول فهمه في كل أبعاده لغة، وإيماءات، ومنطقا، ومضامين. الإنسان مخلوق ناطق باستمرار، ومستشكل لنطقه باستمرار، يحاول فهم نفسه من خلال تفكيك أدوات نطقه وتعبيره، وبهذا أضحى النطق جوهرا للإنسان قد يوصل إلى كينونته. لقد نبه الله عز وجل في قسمه على أمر عظيم، وجب التأمل في عظمته. إن نطق الإنسان من علامات تكريمه من جهة ومن دلائل عظمة الخالق.

التأمل القرآني الثالث: الماء آية الله

يعتبر الماء دليلا على الله، إنه دليل في غاية الدقة والقوة، دليل لمن يرى الدليل دليلا، ويرى الصواب صوابا، وليس بدليل لمن عميت عليه أو استحب العمى على البصيرة والبصر، دليل للمؤمنين، لأن الإيمان هو مفتاح فهم الغيبيات، والعقل هو أداة تفكيكها وتعميقها، الإيمان موقف نفسي إيجابي من المتعالي المتفلت من الإمساك والتحكم. الإيمان علاقة حية بين المؤمن وما يؤمن به، علاقة يسكنها التفاعل وإرادة الفهم، أما التذاكي فيحول بين المرء وإدراك المتعالي، ذلك أن الإيمانيات منغلقة بالتمام والكمال على كل من يسكنه الكبر والعجرفة. المؤمن لا يتصارع مع الله، بل يقترب منه ليفهمه، ينصت إليه ليعانق أفقه اللامحدود. الإيمان بهذا الشكل قوة مبثوثة في دواخلنا تفك حجب جهلنا الإيماني، وتزيح الستار عما اعتقدنا في عبثيته أو أسطوريته. الإيمان بالله يتوافق مع العقل، إذ العقل باحث عن الحقيقة حتى وإن أخطأ الطريق إليها، بل ولو أخطأها .

يعتبر الماء لوحده دليلا كافيا للعقل إن تدبره بغرض الفهم وتعميق الإيمان في دواخل المؤمنين، أليست هذه المادة عصب الحياة؟ أليست هي المادة التي يبحث عنها الإنسان في القمر والمريخ وزحل وفي باقي الكواكب كدليل عن الحياة؟ لذلك فعندما قال عز وجل: "**وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ** " **(من الآية 30 سورة الأنبياء)** أوحى إلينا أن الحياة لا تفارق الماء، وأن الماء لا يفارق الحياة، وأنه أينما وجد الماء وجدت الحياة، وكأني بالباحثين في سعيهم لإيجاد الماء إنما يقررون حقيقة إلهية تكررت في كل الديانات والفلسفات.

ولنفترض أن الإيمان خطر وجب الابتعاد عنه، ألا يستحق منا البحث عن الحقيقة ركوب أخطارها، فخطر الركوب أقل تكلفة من خطر عدم الركوب، ويغدو الإيمان هنا مسعى وحقيقة مبنية على الثقة في العقل، وقوته التدبرية، والنظرية، والمنطقية .

من خصائص الماء أنه عديم اللون، وعديم الرائحة، وبدون طعم ومع ذلك لا شيء ولا أحد يستطيع العيش بدونه. إنه مادة محايدة في كل شيء، وتشكل جوهر بنية النباتات والحيوانات والبشر إلى حد كبير. إنه حياد بطعم القوة والجبروت، بل إنه أُس الوجود.

ومن الخصائص الفريدة للماء أنه يتمتع بدرجة انصهار وغليان عالية بشكل استثنائي، وفقط من خلال الماء يمكننا أن نعيش في بيئة ذات تقلبات في درجة الحرارة ونحافظ مع ذلك على درجة حرارة جسمنا عند37.2 درجة مئوية. والماء محايد كيميائياً كذلك، وبالتالي لا يغير المواد المذابة فيه. يتم نقل العناصر الغذائية والأدوية والمعادن في أجسامنا دون تلف، ويمكن من امتصاصها من قبل الجسم، وشرب الماء الكثير مع الدواء مهم للغاية.

ومن خصائص هذه المادة الآية قدرتها على الارتباط والتحول والتكيف مع سياقات وجودها، فترتفع حين الحاجة إلى ارتفاعها كما مع صعودها في النباتات من الأسفل إلى الأعلى، ومن خصائصها الفريدة أن تتوسع أو تتمدد عندما تتجمد، وبهذه الطريقة يمكن للأسماك البقاء على قيد الحياة في فصل الشتاء تحت غطاء جليدي عائم، ومنذ وجوده فوق الأرض وفي بطونها لم تضع منه قطرة واحدة، وذلك بفضل نظام التحلية الطبيعي المعروف، وهو نظام ينظف فيه الماء نفسه بنفسه بفضل عملية التحول من سائل إلى غاز.

خصائص فريدة تميز الماء وتجعله دالا على الله عز وجل، إن مادة نشربها، ونحولها لأنواع متعددة من المشروبات، ونطبخ بها، ونغسل بها، ونغتسل بها، ونسبح فيها، ونستحم في الحمامات التقليدية والعصرية بها، وننتشي ببرودتها في الصيف، ونستمتع بدفئها في الشتاء، وهو بذلك وفي كل حالاته نافع غازا كان أو سائلا أو متجمدا. بل إن النظر إلى الماء لوحده له أثر نفسي عميق، أما النظر إلى البحر ففيه شفاء لكثير من علل النفس، بل إنه يعمل على تحفيز الدماغ.

الماء مادة موجودة في كل شيء تقريبا، مادة تتعلق بها باقي المواد وجودا وعدما. إنها مادة تتكيف مع كل ما تعانقه من المواد الأخرى كما في الآية الكريمة: "وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ" **(الآية 4 سورة الرعد)**. إنه المادة التي تبقى حينما تتحلل باقي المواد: "أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الْأَرْضِ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ " **(الآية 17 سورة الرعد)**. إننا نسبح فيه ونركب فيه ونحلق

فيه...يغمرنا بأشكال مختلفة. الماء آية كبرى لا يمكن لمن لا يؤمن أن يراها إلا جزءا من الطبيعة العبثية، لا تحمل دلالات، وليست لها أفضال، ولا تعلو عن غيرها. لذلك يصبح الإيمان ضروريا، والإيمان ليس هو الدين، بل الدين هو موضوع الإيمان، والإيمان تجربة للشخص مع ما يؤمن به. وفي مجال الإيمان ينتفي العلم بمعناه المعاصر، لأنه ليس له ما يقوله في مجال الإيمانيات. إنها حياة فقيرة مقيدة بالمعيار العلمي للحقيقة، حيث لست أنا وأنت سوى مجموعة من الذرات المتناثرة بدون معنى ولا غاية سامية، نؤثث الوجود من أجل الوجود مثل غيرنا من الكائنات. إن إدراك ضيق طبيعة العلم المختزلة يفتح الباب أمام فهم الله الذي يكمل الحقيقة العلمية ويعطي الحياة معنى، وهنا بالضبط يغدو الماء كحقيقة علمية دليلا على حقيقة إيمانية. العلم يشيئ المبحوث ليفهمه، والإيمان يؤنسنه ليوجهه إلى عمقه ومحيطه المرئي وغير المرئي. الإيمان يجرك إلى داخلك ونفسك لتحفر فيها، والعلم يجرك إلى محيطك بظواهره المختلفة لتفهمها وتفسرها، إنهما خطان يتكاملان ولا يتنازعان إلا عند من يعيش عقدة أحدهما أو كلاهما.

إن من وراء الدين واختلاف طرق ممارسته، فكرة محورية واحدة هي: الله. التي لم نستطع اختراقها علميا ولا فكريا لأنها أعز من أدواتنا ومناهجنا، ولم يترك لنا إلا خيار الإيمان كسبيل للقرب منه جزئيا، وسبيل العلم والفكر للقرب منه كذلك جزئيا، لأن أعمال الله في الوجود وصنائعه والماء أحدها بل وكبيرها، توفر المتعة الفكرية والعلمية لمن يبحث عنه، وقد نكتفي فقط بالسعادة التي تكتنفنا ونحن نكتشف خبايا صنائعه، دون الوصول إليه، لأنه يحجب نفسه عن القلوب القاحلة إيمانيا، فبالإيمان تزول كثير من تلك الحجب، وعليه، لا أمل في الوصول إلى الرب الرحيم بنهج الاكتفاء بواحد من مصادر البحث دون تطوير الإيمان وفك عقدة التكبر، وهكذا يبقى الإيمان إيمانا وليس شيئا آخر، وبدونه لا سبيل إلى مصدره. الإيمان يحيلنا بذلك على القيمة الجوهرية للمخلوقات وخالقها، بل وقيمتنا نحن أيضا.

التأمل القرآني الرابع: من أي شجرة أكل آدم؟

قال عز وجل في محكم التنزيل: ﴿فوسوس لهما الشيطان ليبدي لهما ما ووري عنهما من سوءاتهما وقال ما نهاكما ربكما عن هذه الشجرة إلا أن تكونا ملكين أو تكونا من الخالدين﴾

سورة الأعراف، الآية: 20

تعتبر قضية الشجرة التي أكل منها آدم وحواء من القضايا التي اختلف في تفسيرها، هل هي شجرة ثمار معينة أم ماذا؟ بل إن تفاسير أخرى تعتقد أنها شجرة العلم أو المعرفة، لأنه بمجرد ما أكل آدم منها علم ما كان يجهل من كونه عاريا، فطفق يغطي عورته، وسأساهم في هذه المحاولة برأي أو بادعاء تفسيري أعتقد أنه أقرب إلى الصواب والله أعلم.

وسأبدأ بالأسئلة التالية:

- ✓ هل يتعلق الأمر بثمار معروفة لدينا؟
- ✓ أم يتعلق الأمر بالمعرفة؟ أم بشيء آخر؟

أعتقد أن الأمر لا يتعلق بالمعرفة أو العلم في دلالتهما التي تعني قوانين وضوابط ونواميس معينة، بل يتعلق الأمر بنوع خاص من المعايير الداخلية التي أودعها الله في ثمرة خاصة من ثمار الجنة يكتمل بها خلق آدم وحواء اكتمالا يؤهلهما للعيش في الأرض، فآدم تعلم كل الأسماء حسب القرآن الكريم أي المعارف الضرورية ذات الطبيعة الموضوعية، لكنه لم يتعلم أمرا آخر هو مدار نزوله إلى الأرض لبناء مجتمع العيش المشترك. إنه الأخلاق.

إن آلة المنطق/المعرفة كانت تشتغل في دواخل آدم، وحوار آدم وإبليس المنطقي دليل على ذلك، لكن آدم لم يكن مزودا بمعايير الحكم الأخلاقي على الأفعال من حيث هي أخلاقية أو غير أخلاقية، وجعل الله عز وجل مصدر هذه المعايير ثمار الشجرة الممنوعة استدراجا لآدم وزوجه، فقد كان الله عز وجل عالما بأنهما سيقعان في الخطأ لأن المنظومة الأخلاقية التي تمكنهم من التمييز بين ما هو عيب وعار وما هو جميل ومحبوب غائبة بالتمام والكمال عن تكوينهما، فآدم وحواء كانا إذن مزودين بالمنطق والمعرفة الموضوعية وليس بالأخلاق للتمييز بين المحبوب والمكروه، الجميل والقبيح أو الخبيث. وكان إبليس على علم بهذه النقص، فدخل منه، إذ وظف تكوينهما المنطقي ذي البعد المعرفي لإيقاعهما في المحظور الأخلاقي الذي أعتقد أنهما لا يعرفانه أصلا، فحدث أن أكلا من

الشجرة، فكانت الثمرة مصدر المعرفة الخلقية، إذ بمجرد ما أكلا من الشجرة بدت لهما سوءاتهما، ومعنى هذا أنهما كانا يمشيان عاريين لكن لم يدركا قبل الأكل من الشحرة أن العري عيب وعار، فكانت ثمرة الشجرة بداية تفعيل النظام الأخلاقي الإنساني في الملكوت الأعلى. لقد أضحى العري بعد الأكل من الشجرة عارا وقد كان قبل الأكل عاديا، لقد تم تفعيل نظام الإنذار الأخلاقي الذي يحيل على الشعور بالإحراج من وضع تم تقييمه على أنه وضع غير أخلاقي. وكان الحياء أول مكونات النظام الأخلاقي تفعيلا من طرف الله سبحانه وتعالى، لقد أدرك آدم وحواء أن سلوك العري سلوك سيء، ولا نستغرب إن وجدنا في كل مراحل التاريخ البشري سعي أبالسة وشياطين الإنس والجن الدائم إلى قتل خلق الحياء والعمل المتواصل على تعرية الناس من ملابسهم لإرجاعهم إلى ما قبل الأكل من الشجرة، أي بدون معرفة أخلاقية، لأنها هي الوضعية التي انتصر فيها إبليس على آدم، وضعية الخلو من النظام الإنذاري الأخلاقي. وكأن القرآن من خلال هذه الواقعة التي كانت في الملكوت الأعلى يحيلنا على نقطة ضعفنا وتميزنا في نفس الوقت، إذا بالأخلاق أدرك آدم أن العري عار وشنار، وبالأخلاق اعتذر إلى الله، وبالأخلاق اتخذ إبليس عدوا، وبدونها يرجع إلى لحظات ضعفه التي سينتصر فيها عليه شياطين الإنس والجن. وعليه، فكل محارب للأخلاق محارب للتميز الإنساني ومؤسس للتدمير فوق الأرض، فالنظام الأخلاقي يحمينا من عرينا الجسدي والسلوكي والعقلي، وبدونه نصبح عراة ولا ندرك عرينا. إن شعور آدم عليه السلام وحواء بالخجل بعد الآكل من الشجرة معناه أنه بفعل ثمار هذه الشجرة تحركت جوانية أبوينا وتطورت بداخلهما مشاعر وعواطف إنسانية معيارية عميقة، وبدأ هذا الشعور العميق يؤثر على صورتهما الذاتية عن نفسهما فاستغفرا ربهما، إنه نظام معياري أخلاقي يراقب ما يصدر عن النفس من الأقوال والأفعال، وكأن الله أودع فينا بفعل الأكل من الشجرة نظاما أخلاقيا ذاتيا يشتغل بفاعلية حينما نتعهده بالصون، ويضمحل فينا بفعل المغريات الإبليسية، ولا عجب أن يكون مدار الرسالات السماوية كلها هي المنظومة الأخلاقية والتشريعات التي تحميها، ألم يقل نبينا عليه السلام، إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق، ألم يقاوم الأنبياء جميعهم رذائل أخلاقية سياسية أو اجتماعية أو اقتصادية، لا يرتاح إبليس إلا عندما يرانا عراة من الأخلاق في المجتمع ، عراة من الأخلاق في السياسة، وعراة من الأخلاق في الاقتصاد...وعليه، نعتقد أننا نملك عقلا أخلاقيا علويا قد يصيبه الغبار أو يطغى عليه العقل المنطقي أو المصلحي. إننا نملك بصيرة أخلاقية علوية لكنها تتعرض يوميا للتدمير الإبليسي البشري والشيطاني بمخططات لا يرتاح أهلها إلا إذا رأونا عراة. إن النظام الإنذاري الذي يمكن اعتباره حارسا للتوازن بين الواقع الخارجي وما يعتمل في النفس الإنسانية هو المستهدف يقينا ببرامج الإغواء من شياطين الإنس والجن. لا يريد جنود إبليس منا أن نشعر بالذنب من أي شيء، لا يريدون منا أن نستحي من أي شيء، لا يريدون منا أن نهاب أي شيء، لا

يريدون منا أن نحترم أي شيء أخلاقي، بل بالعكس تماما يريدون منا أن نكون آلات تأكل بعضها، وتغتصب بعضها، وتأكل أموال بعضها، وتضطهد بعضها، وتجوع بعضها، وتستولي على ضعيفها وتستعبده، وبناء عليه، سيكون إبليس وجنوده أسعد الخلق في أرض بدون أخلاق. لهذا اعملوا دائما على الأكل من شجرة الأخلاق واسقوها وتعهدوها بالتقليم، والأسمدة، والإضاءة وكل ما يجعلها تسمو بداخلكم. ولا تنسوا ثمرة الحياء، وقد قيل، إذا لم تستحي فافعل ما شئت.

تأملات في إيمان المؤمنين

عباد الرحمان

﴿تأملات إيمانية﴾

التأمل القرآني الأول: واقعية الله ومثالية العبد (آية المداينة)

إن آية المداينة عميقة الدلالة النفسية في بعديها الإيماني والعملي، وواقعية في تدبيرها وحصانتها لسلوك وحقوق المؤمنين، وواقعية جدا في النظر إلى إيمان المؤمنين إذ تكاد تخبرنا أن الإيمان ليس ملة واحدة، وليس على مستوى واحد، بل إن المؤمنين ممكن أن يكونوا ظالمين لبعضهم البعض رغم مقتضيات الإيمان التي تمنع ذلك.

فعندما قال الله: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا تَدَايَنْتُمْ بِدَيْنٍ إِلَىٰ أَجَلٍ مُسَمًّى فَاكْتُبُوهُ **" (الآية 282 سورة البقرة)**، فقد أحال عز وجل على حقيقة أن المؤمنين منهم الموفي ومنهم المخالف للعهود، وعليه وجب على المؤمن الصادق أن يحمي نفسه من المؤمن المخالف للعهد والوعد، فليس الإيمان وأداء الشعائر دليلا على اكتمال الصلاح في النفس، بل قد يكون الإيمان شكليا مغلفا لجاهلية تستبد بالنفس، ظاهرها الإيمان وباطنها الجهالة والاستغلال، فالإيمان الذي لا يضيء الطريق لصاحبه هو إيمان شكلي، ويحمل في دواخله شروط نقضه، بل قد يتحول إلى همجية وعنف مادي ومعنوي على مكونات المجتمع وحقوقها، وعليه، يمكن للدين أن يصبح تحت رحمة الفاسدين والمستغلين له ويحولونه عن وظيفته في الأمن الروحي والنفسي وتشكيل المجتمعات بشكل إيجابي والمساهمة إسهاما قيما في تعايش الناس وتطورهم إلى أداة طيعة في أيديهم لأكل حقوق غيرهم من المؤمنين وغير المؤمنين. لا يمكن لأي تعليمات إلهية تبرير أكل الحقوق، لكن يمكن للإنسان أن يؤصل لجبروته وفساده وإجرامه اقتصاديا وسياسيا واجتماعية من داخل المنظومة الدينية وبالنصوص المقدسة. وآية المداينة بتفاصيلها تنزع الصلاح المطلق على المؤمنين وتقول لنا إن المؤمنين أصناف، فلا يغرنكم مظهرهم، ولا ادعاءاتهم، بل احموا أنفسكم من بعضكم أيها المؤمنون بالتوثيق عندما يتعلق الأمر بالمعاملات المادية. وعليه، فتدينك لا يشهد لك بالصلاح المطلق.

ومن اللطائف الأنثربولوجية لآية المداينة أن يخبرنا الله بطريقة غير مباشرة بطبيعة النفس البشرية التي يشكل التناقض كينونتها. هذا التناقض لا يفارق مؤمنا مسلما، أو مسيحيا، أو يهوديا، أو ملحدا، فكلهم يحملون نفوسا حبلى بالتناقض في ماهيتها، لا يوجد شيء اسمه الجوهر المثالي والجميل للإنسان، لأنه نتاج الواقع الثقافي والاجتماعي الذي يتضمن أنساقا مركبة

من العناصر المتناقضة والمتآلفة. فكما يسكننا الحمل الوديع، فإن الوحش الشرير يؤثث جوانيتنا، وفي كلا الحالتين نتفوق على الحمل الوديع والوحش المدمر بقدرتنا على إدراك وحشية ووداعة فعلنا ونموقعه سيكولوجيا وزمانيا ومكانيا، بل وبإمكاننا أن ننظر للآخرين كغرباء أو أصدقاء أو أعداء. يكاد الإنسان أي يكون هو الحياة أو أن يكون الحياة التي تدرك نفسها بنفسها على عللها. يأمرنا الله بكتابة الدَّيْن كي لا يخيب ظننا في المؤمنين لأنه أمر واقع لا محالة، ولكيلا نُسْقط من جهة أخرى شرور المؤمنين على الدين باعتباره ما يشكل مضمون ما يؤمن به المؤمنون. وبهذا يضعنا الله عز وجل أمام حقيقة لا ترتفع وهي احتمال الشر والخير من المؤمنين. إن احتمال تجاوز الحدود والتعدي على الآخرين وارد، ويتضمن بناء على ذلك إساءة استخدام المؤمن للحرية باعتباره إنسانا، كما يتضمن انتهاكا للعقل والحقيقة والضمير، ولضبط هذا الأمر يحيلنا الرحمن الرحيم على الشرع أو القانون أو العقود المكتوبة، بل والمشهود عليها لتقوية درجة ضبطها وحجيتها. "وَلْيَكْتُبْ بَيْنَكُمْ كَاتِبٌ بِالْعَدْلِ وَلَا يَأْبَ كَاتِبٌ أَنْ يَكْتُبَ كَمَا عَلَّمَهُ اللَّهُ فَلْيَكْتُبْ وَلْيُمْلِلِ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ وَلْيَتَّقِ اللَّهَ رَبَّهُ وَلَا يَبْخَسْ مِنْهُ شَيْئًا " **(الآية 282 سورة البقرة)** بل إن الأمر أعمق من ذلك إذ ينبهنا المولى إلى ضرورة التركيز على طبيعة من نتعامل معه، هل هو سفيه، أو ضعيف، أو جاهل، أو مريض، أو غير ذلك.

"فَإِنْ كَانَ الَّذِي عَلَيْهِ الْحَقُّ سَفِيهًا أَوْ ضَعِيفًا أَوْ لَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يُمِلَّ هُوَ فَلْيُمْلِلْ وَلِيُّهُ بِالْعَدْلِ وَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ فَإِنْ لَمْ يَكُونَا رَجُلَيْنِ فَرَجُلٌ وَامْرَأَتَانِ مِمَّنْ تَرْضَوْنَ مِنَ الشُّهَدَاءِ أَنْ تَضِلَّ إِحْدَاهُمَا فَتُذَكِّرَ إِحْدَاهُمَا الْأُخْرَىٰ وَلَا يَأْبَ الشُّهَدَاءُ إِذَا مَا دُعُوا " **(الآية 282 سورة البقرة)**، بل إنه عز وجل يحذرنا من السأم أو التهاون في هذا الأمر بقوله: "وَلَا تَسْأَمُوا أَنْ تَكْتُبُوهُ صَغِيرًا أَوْ كَبِيرًا إِلَىٰ أَجَلِهِ " **(الآية 282 سورة البقرة)** وعليه، فإن أمر الإيمان أو أمر الدين والتدين قد نعتقد في كونه أمرا خاصا، لكنه في حقيقة آثاره يلامس كل المجتمع بمؤسساته المختلفة، وإذا كان الأمر كذلك فلتكن آثاره إيجابية، وإذا أردنا لها أن تكون كذلك فعلينا أن نلتزم بواقعية الله ونتجنب مثالية المؤمنين.

التأمل القرآني الثاني: الخشية الإيمانية للعلماء، والعتو للجاهلين

قال تعالى: "ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا"

(الآية 96 سورة مريم)

وقوله تعالى: "إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ"

(الآية 28 سورة فاطر)

من غرائب الآية الكريمة الأولى أن استعمل الله اسم الرحمن في سياق عتو الآخر مع العلم أن المنطق الإنساني يوظف القوة والجبروت في الخطاب حال مواجهة متعجرف جبار متكبر، وكأني بالله عز وجل رحيم بجهل الجاهلين حتى في مواجهتهم بجهلهم. وتزيد الغرابة عندما يوظف الله فعل (نزع) المملوء بالقوة الفعلية، وكأن الأمرين لهما سياقان مختلفان، سياق الرحمة وهو سابق عن سياق النزع. فالرحمة وافقها العتو الدنيوي، والنزع قابلته حقيقة القوة الأخروية من جهة الله، والعجز من جهة العتاه. إن لحظة الآخرة تزيح ما يخفى وراء الواجهة المتغطرسة والغرور من هشاشة نرجسية دفعت بالمتغطرس أن يمارس الاستعلاء على من لا علو بعده في حياة دنيوية زائلة اعتقد لجهله في دوامها وعبثيتها، ومعلوم أن المتغطرس يرفع من مقام نفسه فوق أي مقام، وهو رفع يُضمر هشاشة داخلية وعقد نقص تتجلى يوم التجلي، وعليه، فالغطرسة هي الأخت الشقيقة للجهل، وهي صفة تكشف عن نوع من الشخصية تختبئ فيها ركائز النرجسية الكاذبة.

إن سلوك العتو يحيل كذلك على عنصر مهم في المصابين بداء الغطرسة وهي **صفة الجهل**، إذ لا يجرؤ على ما لا يعرف إلا الجاهل، لذلك نجد في الدراسات والتصنيفات السيكولوجية أن الغطرسة والعتو مرافقان للجهالة، فالعالم لا يتجرأ أبدا، وإن فعل فبنسبية لا بالإطلاق، إذ أن علمه عرفه حدوده المعرفية، أما الجاهل فيفعل في نفسه وفي الناس ما لا يتصوره عقل.

ولا نستغرب إن وجدنا في الآية إشارة أخرى مفادها أن لكل متغطرس شيعة تابعة من العتاة، يجمع بينهم العتو كصفة، ويختلفون في حِدَّتِه، إذ هم درجات، من الأشد عتوا إلى الأدنى

عتوا. كما أنهم مراتب في الجهل المؤدي إلى العتو. فكلما زاد منسوب الجهل في الشخص كلما زاد انتفاخا وعلوا وعتوا عند شيعته التي تعتقد يقينا في علمه الذي هو جهل عميق. ولا يتعلق الأمر هنا بعلم الموجودات، بل بالعلم بواجد الوجود، وبالضبط بالإيمانيات، مع العلم أن العتو والغطرسة لا ينفصلان عن الجهل حتى في الدراسات السيكولوجية المرتبطة بالواقع لا فقط بالإيمان.

وغالبا يكون المتغطرس العاتي غير مدرك لجهله الخاص ولا يمنح لنفسه الفرصة للشك في إدراكه، وتكون لديه صورة ذاتية مبالغ فيها بشكل كبير حتى أن مثل هذه الحالات تم تناولها بالتحليل السيكولوجي من قبل علماء النفس الاجتماعي مثل (ديفيدDunning) و (جاستن كروجر).

لا يمكن لجاهل أن يطور خوفا عن نفسه من العلم لأنه جاهل، ولا يمكنه أن يطور حساسية تجاه أخطائه لأنه جاهل، ولا يمكن أن يطور خوفا لا من الله ولا من الناس لأنه غير كفء ولا يدرك أنه غير كفء، بل أمامه وأمام تعلم الإدراك رزمة كبيرة من الحواجز النفسية.

وفي هذا الإطار يمكن لكل متتبع لسوق الأفكار أن يصل إلى ملاحظة واضحة مفادها أن الذين لا يملكون المعرفة الحقيقية بموضوع ما هم مع الأسف وفي كثير من الأحيان من يعتقد أنهم يعرفون أفضل من الآخرين ويتحدثون فيه بإسهاب. ويكفي هنا لمن له دراية بعلم النفس أن أذكر له اسمين لعلمين مهمين ليعرف عن ماذا أتحدث، إنهما (David Dunning) و(Justin Kruger) .

يرى هذان السيكولوجيان في دراسة نشرت في1999 أن الأشخاص ذوي المهارات والمعارف الضعيفة يميلون بشكل خاص إلى المبالغة في تقدير قدراتهم وكفاياتهم، فبسبب عدم كفاءتهم لا يستطيعون أن يدركوا أنهم غير أكفاء، بل يطورون بدلا من ذلك اعتقادا مفاده أنهم متفوقون، بل واستثنائيون، ولقد أطلق هذان العالمان مسمى تأثير Dunning-Krugerعلى هذه الظاهرة النفسية. ومن خصائص شخصيات هؤلاء أنهم لا يستطيعون إدراك عدم كفايتهم ولا إدراك كفاية الآخرين، يبقون غالبا طول حياتهم ما لم يعالجوا حبيسي حلقة مفرغة من عدم الكفاءة. يصرفهم جهلهم المركب عن كل حقيقة كيفما كانت بما فيها الإيمانيات، فأينما حل الاستكبار حل الخراب وعلى جميع الأنساق:

"سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ" **(الآية 146 سورة الأعراف).**

إن العالم أو الذي يتعلم يورثه علمه القدرة على التمييز بين المواضيع وتعقيدها كما يمكنه من التمييز بين الناس حسب كفاياتهم وعلمهم، كما يمكنهم علمهم من إدراك حدود علمهم، والتسليم للآخرين بمعتقداتهم لأنها فوق إدراك علمهم، فليس هناك فجوة بين قدراتهم وتقييمهم لذواتهم والآخرين، أما من يعاني من تأثير Dunning-Kruger فإنه غالبا إن لم يتم التعامل معه باحترافية ما يزداد لديه الإحساس بالعبقرية والاستثنائية عند محاورته .

إن عدم إدراك عدم الكفاءة الذاتية لدى الشخص يولد لديه ثقة عالية بالنفس لكنها مبنية على فراغ وواقفة على شفا جرف هار.

يرى العتاه أن غيرهم من المؤمنين ناقص، وسفيه، وضعيف، وأنهم يشكلون الانسان الاستثنائي والذكي: "وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ...." **(الآية 13 سورة البقرة).**

بل إن جهالة المتغطرس المتعالي تجعله يطور جرأة لا مثيل لها على كل شيء، العلم والفكر والدين، بل الله أيضا: قال عز وجل: "ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِيٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ وَعِندَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كَذَٰلِكَ يَطْبَعُ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ قَلْبِ مُتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ." **(الآية 35 سورة غافر).**

وفي الإيمانيات هناك حالة تنافر حادة بين العتو والإيمان، فكل مستكبر محروم ومصروف حتما عن إدراك كنه مضامين الرسالات، فسلامة الفهم متعلقة في الدنيويات برجاحة العقل، وفي الإيمان متعلقة بسلامة العقل والقلب. ولا سبيل للإيمان إلا بهما. "إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَٰحِدٌ فَٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْـَٔاخِرَةِ قُلُوبُهُم مُّنكِرَةٌ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ" **(الآية 22 سورة النحل)**، فالتشوهات التي لامست قلوبهم عطلت دينامية الإدراك الإيماني لديهم وأوقعتهم في الاعتقاد بالتفوق الوهمي.

بل إن الله لا يريد إيمان أي مستكبر جبار، لذلك قال عز وجل :

"سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْا۟ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُوا۟ بِهَا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْا۟ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُوا۟ عَنْهَا غَٰفِلِينَ." (الآية 146 سورة الأعراف).

إن السبيل الموصل إلى رجاحة العقل والقلب هو التواضع، لأنه سبيل الانفتاح على الجديد العلمي والفكري والديني، أما العتو فيغلق أبواب النفس والعلم والفكر والدين، ولا يفتح لك إلا أبواب الجهل ويقربك من كل شبيه لك في التفوق الوهمي.

التأمل القرآني الثالث: في معاني البر

قال عز وجل: "لَّيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ "

(الآية 177 سورة البقرة).

بغض النظر عن سبب نزول هذه الآية الكريمة من سورة البقرة، فإنها تعرف لنا معنى البر أي الصلاح والخير تعريفا جامعا ودقيقا، إذ جمعت أبعاد الاعتقاد، والعبادات، والمعاملات جمعا كثيفا وممنهجا مضمونا وبيداغوجيا.

فليس كل من توجه بالصلاة تجاه القبلة استوفى شرط البر، بل إن الأمر يتعلق بسيرورة عميقة تبدأ من جوانية الإنسان لتصل إلى سلوكاته الاجتماعية. فليس أداء العبادات، بل أم العبادات تكفي لترق بك إلى مراتب البر إلا إذا صاحبتها سلوكات تؤيد مضمون الشعائر وتعمق مسلمات الاعتقاد.

إن ما يجعل تدينك ذا جودة علوية ربانية، هو قربه من النفع أو الضرر الناتج عنه تجاه الآخر، إن التدين بناء على ذلك، نسق من الأفكار والمعتقدات المؤدية للأفعال البانية للجماعة في جانبها الإيجابي، فالبر غاية الاعتقاد أو التدين، وهذا كله ينبني على قناعات علوية تنتمي سيكولوجيا إلى المواقف أو ما يطلق عليه في علم النفس بالاتجاهات، وهي مشاعر الفرد وميولاته الجوانية تجاه الأشياء والأشخاص والأفكار، وهي إما إيجابية أو سلبية، ولها أبعاد مختلفة ومتعددة أهمها، أنها ذات بعد عاطفي الذي يشير إلى الارتباط الوجداني والرغبة إلى ما نريده ونفضله أو ما لا نرغب فيه ونبتعد عنه أولا؛ وثانيها بعد معرفي ويتعلق بالأفكار والمعرفة التي نتبناها تجاه شيء معين وكيف نعمل على تفسيره؛ وثالثها، بعد سلوكي: وهو ما نأتي به من الأفعال

التي توافق ميولنا أو اتجاهنا حبا أو كرها لشيء ما، والبر هو انسجام بين هذه الأبعاد الثلاثة انسجاما لا ينتج عنه تضارب وتناقض مسترسل.

لا يكفي لكي تصل إلى مرتقى البر أن تكتفي فقط بإتيان فعل الاعتقاد: أي الحركة النفسية الداخلية تجاه الدين، ولا يكفي فيه كذلك التصديق بمضمون الاعتقاد، بل لا بد من سطوع وبروز أثر الاعتقاد في الواقع: أي ما يُحدثه من تأثير في أقوالك وأفعالك.

إن الوصول إلى مرتبة البر معناه أن الإنسان البار استطاع أن يتعامل مع ظلم العالم وتفاوتاته لا فقط تفاعلا وتألما بأنواع الظلم، ولكن أيضا وبالأساس ومن خلال أفعاله يحاول السيطرة على الظلم بالمساهمة في نشر الخير. وكأني بالله يريد منا التزود بالمعتقد الذي يجعلنا فاعلين في الواقع وصانعين له لا مستسلمين لتحدياته. وعليه يبدو الله هنا واثقا من قدرتنا على تفعيل إمكانات الخير فينا لمقاومة انزياحات الشر التي تسكننا. البر إذن هو تجلي عملي لقوة الخير التي تتلبس بنا، وفي نفس الوقت هو كذلك قوة دفع ومدافعة لقوى الشر التي تسكننا وتحيط بنا. إن درجة البر تنمي لدى المؤمن حساسية ورهافة وجودية تجاه التفاوتات الواقعية في الظروف المعيشية غير المواتية للفئات المحرومة.

لكن الفعل في الواقع بإتيان أفعال البر يحتاج إلى تعهد النفس الدائم بالتزود بالطاقة العلوية لمواجهة ظلم الواقع، فجاءت الصلاة كشرط ووسيلة مهمة لحفظ الارتباط بين البعد العملي للفرد ومعتقداته الميتافزيقية، هكذا يغدو تدينك برنامجا لتحديد موقع الذات بين عالمين، وتمكنك الصلاة من بناء جسر بين العالم الواقعي والآخر العلوي، الأول تعيشه والثاني تعتقده أو تؤمن به، وتلعب العبادات هنا دور تخفيف علاقة التوتر بين الذات والخبرة الواقعية، التي تتشكل في المكان والزمان وعلى نحو مختلف بين الأفراد والجماعات. وعليه، تؤدي هذه الآيات وظيفة توجيهية فاتحة لك خيارات التفسير لترتيب الواقع ككل. وهي بذلك تكسر تعقيد البيئة المعيشية المتمرسة بهياكل صلبة ومعقدة. كما أنها تطور لديك منظومة القيم والمعاني والتوجهات التي تجعل الإنسان نشطا في الوجود.

التأمل القرآني الرابع: حوار من المستقبل في العالم الآخر:

السخرية من المؤمنين

قال تعالى في سورة المؤمنون:

•"أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ"﴿105﴾

•"قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ"﴿106﴾

•"رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ"﴿107﴾

•"قَالَ اخْسَئُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ"﴿108﴾

•"إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ"﴿109﴾

•"فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّىٰ أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ"﴿110﴾

•"إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا أَنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ"﴿111﴾

يسرد الله تعالى حوارا مستقبليا يجري بينه وبين من كذبوا رسله، ويبدأه بسؤال ينزع عن كل مكذب شرعية الدفاع عن نفسه لأن الأمر لا يتعلق بالعلم بل بالإيمان، ولأن الإيمان يستدعي وجود أنبياء يدعون لرسالة معينة لا يمكن البحث فيها مخبريا لأن أدوات العلم تنهار أمام الإيمانيات باعتبارها تلامس البعد الميتافزيقي للإنسان والذي يعتبر متفلتا من كل أدوات العلم، إذ هو مجال الإيمان أو الكفر. فكان سؤال الله متوجها إلى المكذبين الذين أجابوا أن الذي صرفهم عن الإيمان إنما هي شقوتهم، ولا أخفيكم أني استحضرت شقاوة الأطفال المرتبطة بالضجيج والعنف والهوى وانعدام القواعد والتمركز حول الذات حال تأملي لجواب المكذبين، فقد أطلقوا على اعتراضاتهم شقوة أو شقاوة، وهو جواب فيه اعتراف بتمرد مبني على اغترار طفولي ارتقى عندهم إلى سلوك غايته الانتصار للنفس تجليا لنرجسية مرضية مبني على أفكار ومشاعر أنانية تعكس الرغبة في التمرد الصبياني غير المحسوب العواقب وعلى أمر علوي رباني. اعتراف ممزوج بحسرة تتلبس بندم ناتج عن معايشة واقع أخروي مؤلم، لكن الغريب في هذه الآية هو رد الله الذي لم يركز فيه على عدم الاستجابة لرسالته وتكذيب رسله، بل أمرهم بالسكوت التام لأنهم أهانوا عباده المؤمنين في الدنيا، لأنهم احتقروا الصادقين من عباده، لأنهم سخروا من أوليائه الذين كانوا يدعون بالمغفرة والرحمة، بل إن هذه السخرية كانت غاية في الكثافة والشدة والقوة حتى استولت على أنفس المكذبين أشد ما يكون الاستيلاء، فلم يعودوا يرون إلا الصالحين وأعمالهم وأقوالهم،

فلا ينامون إلا بالحديث عنهم والكيد لهم، ولا يستيقظون إلا على ذكرهم وظلمهم والسخرية منهم، ومن شدة استيلاء سخريتهم بهم نسوا أنفسهم ومآلاتها، وأنستهم ذكر ربهم، بل وأنستهم ربهم جملة وتفصيلا، لقد أمعنوا في السخرية إمعانا لا إمعان بعده، ومعلوم أن السخرية مهينة للمؤمنين واقعيا ونفسيا وبشكل عميق، مدمرة لتوازنهم النفسي، وقد تأخذ هذه السخرية أشكالا مختلفة من الإساءة الظاهرة إلى الخفية، من الغمز واللمز إلى الاعتداء البدني، وكل ذلك له آثار حادة على نفوس المؤمنين، سخرية مبنية على استعلاء واحتقار وقد تكون بغرض الترفيه على النفس أو إشباعا لنزوات الجماعة المعتدية بتعريض المؤمنين للمواقف المضحكة والتنكيت والتدمير النفسي الممنهج لهم، وهي يقينا كذلك تعبير عن عجز داخلي وحركة تتغيا جلب الارتياح النفسي لإخفاء العجز الخاص. إن السخرية الحادة لا تحمل ازدراء واضحا للآخر فقط لكن أيضا تحمل عجزا واضحا على التوقف من أجل التفكير والتأمل وإجراء الحوار الباني للقناعات.

لكن كيف كان رد فعل المؤمنين على السخرية الممنهجة والمدمرة؟ كان كما هو واضح في نص الآية هو الصبر، لقد قابل المؤمنون العدوان بالصبر، وتستبطن هذه الكفاية القدرة على تحمل جميع أشكال الإذاية المادية والمعنوية، كما تستبطن اليقين بالمآل الجميل والعادل مما يعكس قوة إيمانية غاية في النبل والعمق تعلو على جميع إكراهات الواقع، زد على ذلك أن الصبر يحيل هنا على قوة نفسية واعتدال ورزانة وكرم رغم الجو المشحون بالسخرية والاعتداء، إن المؤمنين أبانوا بصبرهم على صدقهم وقوة نفوسهم وتحكمهم الاحترافي في عواطفهم إذ أنهم لا ينخرطون في انزياحات أنفسهم نحو الانتقام بل تسمو سلوكاتهم إلى نوع من الموضوعية الإيمانية لتحقيق هدف بعيد المدى بتحمل المعاناة والتحرر من الأنا ومواجهة التحقير بمزيد من تحقير التحقير. لكن إذا تحمل المؤمنون السخرية من أجل الله فإن الله يقابل كل ذلك بجزاء أوفر وأعظم، وفي نفس الوقت بسخط أعلى وأعظم تجاه من مارس العنف ضد عباده المؤمنين.

التأمل القرآني الخامس: حالة القشعريرة واللين اللتان تلازمان أهل الخشية (أهل الإيمان)

قال تعالى: "اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ"

(الآية 23 سورة الزمر).

بدأ الله عز وجل هذه الآية بإقرار حقيقة لا يسلم بها إلا المؤمن من جهة، ومن جهة أخرى لا تعني الجاحد لأنها بعيدة عن مفاتيحه العقدية ذات الأصول الاعتقادية المكذبة بالكتاب، هذه الحقيقة هي عبارة عن تقرير مفاده أنه لا وجود لحديث على الإطلاق فوق القرآن رغم خاصيات التشابه المرتبطة به والتي أوردها الله تأكيدا لها باعتبارها خاصية ملازمة لهذا الكتاب. لكن الذي يهمنا اليوم في هذا التدبر هو محاولة فهم حالة القشعريرة واللين اللتان تلازمان أهل الخشية.

لا يختلف اثنان على أن اقشعرار الجلد هو عملية طبيعية بيولوجية من جهة، ونفسية من جهة أخرى، فالجلد يتفاعل مع المثيرات الخارجية كالبرودة مثلا لتظهر حبيبات القشعريرة على أجسادنا وكأنها حالة طوارئ أصابت الجسم ليبدأ في عملية تسخين مجموع أعضائه، بل نحس كذلك بوقوف شعر رأسنا، وقشعريرة كثيفة في مواقف نفسية غارقة في الخوف أو الفرح أو التعجب...أكيد أن لكل ذلك علاقة بمجموع العناصر المتفاعلة من عوامل خارجية، ونفسية، وبيولوجية، وعصبية.

والقشعريرة الناتجة عن التفاعل مع الكتاب المتشابه المثاني لها بالتأكيد وصل بكل ما ذكرت وتزداد عمقا لأن لها وصلا بالروح، بالمعتقد، بأعقد وأعمق ما يؤطر الإنسان، ويداعب بنياته النفسية ومكوناته السيكولوجية، بل الروحية مما يمكن أن ينتج عنه حالة معنوية مرتفعة متجلية في فرح شديد أو بكاء عميق، بكاء لا علاقة له بالحزن، بل إنها دموع حزينة بطعم الرضا والفرح والقرب من مضامين الكتاب المتشابه المثاني. إنها آيات تلامس حياتك الشخصية الخاصة في دقائقها الخفية عن الناس، وتداعب مآلات أفعالك، وتؤاخذك وتفرحك وتهددك وتبكيك وتسعدك، إنها تلامس رزمة المشاعر التي يتكون منها جهازك النفسي في بعده الوجداني. ليست لدي

هنا نظرية تفسيرية، بل تدبر قد يتناسب مع القشعريرة في غالب مسبباتها أو بعضها. لكن ما لا يمكن أن ننفيه أن القشعريرة واللين المذكورتان في الآية حالتين سيكولوجيتين عاطفيتين قويتين. وهما حالتان لهما وصل بالضغط النفسي والانفراج السيكولوجي لأنهما حالتان ناتجتان عن خليط من المشاعر المتناقضة الناتجة عن تقييم الشخص لنفسه وأفعاله وهو يعرضها على الآيات المتشابهات المثاني، فيرى نفسه تارة في الهاوية وبعيدا عن رب الآيات، ويرى نفسه تارة أخرى قريبا بل مؤمنا حقا ومن المهديين الفائزين، وتزداد فرحته عندما يربطها برحمة الله التي وسعت كل شيء. وتنشأ القشعريرة في حالة الخوف أو الفرح ثم ينتقل الجلد إلى وضع اللين بعدما يكون قد تفاعل مع الحالة النفسية إن خوفا أو طمعا، فتارة يقشعر الجلد فيصبح خشنا تعلوه حبيبات وتارة يرجع إلى وضع الليونة. لكن هناك لطيفة وجب التنبه إليها في سياق هذه الآية، فالقشعريرة واللين ليستا حاليتين أوتوماتيكيتين فيزيولوجيتين ناتجتين عن تغير مناخي أو برودة في الطقس، بل إنها حالتين ناتجتين عن فعل الفهم والتأويل والتقييم الذي صاحب استماعنا للآيات الكتاب المثاني الحابل بالمتشابهات، ومن أعمق لطائف هذه الآية أن الذي يصيبنا بالقشعريرة ولين الجلود بل وقشعريرة ولين القلوب هو ما تحتويه الآيات المتشابهات من ذكر لله. إنها الذات الإلهية العظيمة في رحمتها وجبروتها وقوتها وحنانها وعدم قدرتنا على إدراكها كشيء ملموس، بل نلامسها فقط بإيماننا لا بتجربتنا ولا بعقلنا ولقد سبق أن قلت إنني أعتقد أنه أمام سؤال: ما الله؟ تنهار وتتفكك لغة الإنسان ومفاهيمه، وتعجز عن إبلاغ ماهيته، وبالرجوع إلى الدين وهنا أقصد الإسلام بالخصوص باعتباري مسلما، أفترض أن الجواب عن سؤالنا يقتضي منا البحث لا في كيف فكر الإنسان في الله (الفلسفة-علوم الدين...) بل كيف عرف الله نفسه للإنسان؟ ماذا قال هو عن نفسه عز وجل؟ وسبق أن قلت في تأمل سابق أن تحليلي مشدود ومسيج بإيماني به، لا بشكي في وجوده، فلا يهمني من شك، لأنني مؤمن به، والإيمان عندي من مقتضيات معرفة الله، فكل مقطوع عن الإيمان مقطوع عن الجواب عن سؤال: ما الله؟ ذلك أن العلم أعلن منذ زمن أن الله يتجاوز منهجياته وأدواته وحتى دائرة بحثه واهتمامه.

إن القشعريرة واللين يصيباننا يقينا عندما نتأثر بعمق بشيء معين، لكن دعونا نتساءل لماذا يصف الله المؤمنين الصادقين بأن جلودهم وقلوبهم تقشعر وتلين؟ أليس في هذا الوصف إشارة إلى أنه وضع لا يصله بالفعل إلا من صدق في إيمانه في لحظات معينة؟ أليس في هذا الوصف

دليل على أن الإيمان الصادق يولد القشعريرة القلبية والجلدية بدون تأثير عوامل الطقس كالبرودة مثلا أو الخوف من تهديد حيوان مفترس أمامنا؟

بمعنى آخر ألا يريد الله منا أن نصل بإيماننا إلى مستوى يولد القشعريرة واللين حتى نستحق بالفعل صفة الخشية التي وردت في الآية؟ هل إيماننا بالفعل ينتج هذه الحالة النفسية أو أنه لا ينتج إلا تصلبا وغفلة ومظاهر وطقوس لا تؤثر على جوانيتنا أي دواخلنا في أي شيء؟ أليست القشعريرة واللين علامات هداية كما في الآية؟ إنك وأنت تستمع أو تقرأ الكتاب المثاني المتشابه قراءة المتمعن ستلاحظ أن دماغك سبقك للفهم والتأويل، يشكك، يفسر، يتساءل، يقبل، يرفض، يقارن، يفكك، ويحلل، يدور دورانا سريعا سرعة عجيبة تخلق في دواخلك التوتر المعرفي، والاهتزاز العاطفي، عمليات عصبية عميقة لازال علم الأعصاب في بداياته لاكتشاف عالمها، وعليه، فمع فعل التأمل الموصل للقشعريرة واللين تتفاعل كل تلك العمليات المتناقضة لتصل بالنظام العصبي مجتمعا إلى أن يصدر أمرا للجلد بأن يقشعر ويلين ، ويصدر أوامره للعين لكي تدمع، ويملي أمره للجسد كليا أن يحزن ويفرح ويبتهج، فنحس في نهاية كل ذلك براحة نفسية وثقة في إيماننا لا يمكن ان يهزها بعد ذلك أي ذنب أو فعل أو فكر أو شخص لأننا جربنا القرب والخشية وعايشناها في محراب الصلاة والتأمل ووصلنا إلى أعلى ما وصفنا بها المولى عز وجل: "تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ" (الآية 23 سورة الزمر)، إنها الهداية التي وردت في آخر الآية: "ذَٰلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ".

التأمل القرآني السادس: عبد الرحمان بين الخطأ والتواب

"إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا"

(الآية 70 سورة الفرقان).

"قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِن رَّحْمَةِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ"

(الآية 53 سورة الزمر).

يمكن أن يرتكب عبد الرحمن أخطاء في حياته المجتمعية ويتجاوز حدود الأخلاق ويقترف ذنوبا متعددة في لحظات ضعفه وهوانه وكسله ونرجسيته، فالله لم يعتبر المؤمنين به ملائكة ولا رسلا، بل بشرا تتنازعهم لحظات القوة والضعف، إن رؤية الله للناس والوجود واقعية جدا، ورؤية الناس لبعضهم وللوجود مثالية حد الوهم والسقوط؛ ففي وصفه لعباد الرحمن في سورة الفرقان ذكر أن لهم مميزات غاية في النبل ورفعة الأخلاق، كما أنهم يمكن أن يرتكبوا أخطاء بل أن يسرفوا على أنفسهم في ارتكاب الأخطاء.

فطبيعة الحياة الدنيا تستوجب الانفتاح على الناس، وهذا الأخير مرتبط بكل أنواع الأذى المادي والمعنوي، وقد يصدر عن معجب بك، أو مستغل لانفتاحك، أو كاره لك، أو حاسد لك، أو جاهل يقوده الهوى، لكن رغم ذلك اعمل على أن لا يتأثر انفتاحك وحبك وإيجابيتك بضريبة المخالطة، بل ابق على سجيتك كما أنت ولو قيل ما قيل، أو ظن الناس ما ظنوا، فإرضاء الناس غاية لا تدرك، وإرضاء الله غاية لا تترك، ولا تعتقدن أبدا أنك ستكون ملاكا أو نبيا، بل إنك بشر بكل نوازع التقوى والفجور ، والقوة والضعف، فلا تجعل الناس يختزلونك في أوهامهم حتى إن صدق عليك بعض ظنهم. فأنت والزلل لا تنفصلان. وليغلب خيرك شرك، عند ذاك أنت إنسان مسلم ومؤمن ولو أخطأت، هكذا هي فلسفة الإسلام الواقعية، لا ترفعك فوق ماهيتك وكينونتك، لكن هذا الأمر يحتاج لتمثله أن تكون شخصية عبد الرحمن لها وصل بالحقيقة الربانية لكي يشع نورها عليه ويكسوه بهاؤها، وتدفعه إلى التوبة من زلاته التي يعاود ارتكابها أو ارتكاب بعضها،

والتوبة هي ذاك الشعور الذي ينتابنا ويسيطر علينا والذي يكون ممزوجا بالسخط على النفس والندم على الأفعال التي اقترفناها والتي تناقض جوهر عمق شخصيتنا بتسليمنا بالحقيقة الربانية، فالتوبة ليس تأسفا وندما سطحيا، لأن هذا الأخير يمكن أن يكون نابعا عن أمور خارجة عن إرادتنا، أما التوبة فترتبط بإحساس عميق بمسؤوليتنا عن أخطائنا. والتوبة ليست حالة نفسية جامدة، بل دينامية متحركة ترافقك طول حياتك، لذلك فهي فعل نفسي نشط عند المؤمنين وقد يكون فعلا مناسباتيا أو ميتا عند الجاحدين أو السيكوباتيين. ففي علم النفس تعتبر هذه الفئة فئة غير قادرة على التوبة. سواء تعلق الأمر بذنب تجاه الناس، أو الطبيعة، أو الحيوانات، أو الله. والتوبة إما أن تكون خوفا من العقاب وهي أدنى مستويات التوبة أو تكون بسبب إدراك المرء لفظاعة فعله كفعل بغض النظر عن العقاب الأخروي، أما إذا اجتمع لدى الفرد الإدراك والخوف فقد حاز أعلى درجات التوبة. لكن من لطائف هذا الأمر أنه يحيل ضمنيا على حقيقة عميقة مفادها أن التوبة تستبطن أمرا جوهريا عقديا مهما، وهو أن المؤمن التائب يتخلى بوعي تام وبقرار فردي حر عن حريته في أن يفعل ما يشاء مع أي شاء وكيفما شاء، ويذعن بحرية عالية وبقرار حر وواعي لأمر رباني اعتبره إطارا توجيهيا عميقا وجد فيه سعادته، وعليه، فالتوبة تخل عن حرية بحرية من أجل رفعة عقدية مقدسة لدى المؤمن، فقد كان بإمكانه أن يفعل ما يشاء وأصبح بإمكانه أن يفعل ما يشاء وفق معايير جعلها ميزان حريته. تكاد التوبة أن تكون مواجهة الشخص لنفسه بأخطائها وتحميلها مسؤولية حريتها.

التوبة من وجهة نظري لا يمكن أن تكون بأثر رجعي، أي أن نندم على ما فعلنا لأن هذا الأمر لا يفيدنا في شخصيتنا في شيء بل قد يدخلنا لدائرة مرضية تصيب جهازنا النفسي في عمقه، التوبة هي قرار متوجه إلى المستقبل بالأساس، فالرجوع بالندم الشديد إلى الوراء قد تنتج عنه سلوكات لا عقلانية وربما عدائية تجاه النفس وتوصلها إلى دركات سحيقة من الاضطرابات النفسية، لذاك كان المبدأ الإسلامي العظيم والعميق أن الإسلام يَجُبُّ ما قبله ساحقا لمثل هذه الأحاسيس ومتوجها للمستقبل، ولذلك كان في سورة الفرقان قوله عز وجل: "إِلَّا مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَالِحًا فَأُولَٰئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّئَاتِهِمْ حَسَنَاتٍ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا" **(الآية 70 سورة الفرقان)**. فالله عز وجل قرر ألا يغفر الماضي فقط، بل أن يقلب السيئات

حسنات، وعليه فأهم شيء هو صدق التوجه إلى المستقبل لا الندم على الماضي، لأن الماضي مرحلة سابقة عن التحول السيكولوجي العميق الذي أوصلك إلى التوبة في عمقها العقدي.

غالبًا ما ننسى أن قراراتنا التي اتخذناها في لحظة ما، هي ما كان متاحا أمام شخصيتنا بمكوناتها في تلك اللحظة، سواء كانت قرارات جيدة أو سيئة، ولكن لا يجب أن ننسى أن للذنب منفعة مهمة وجب احترامها، ومقتضاها أنه هو الذي أوصلنا إلى مقام التوبة، الذنب هو من صنع وعينا باعوجاجاتنا، وجعلنا على ما نحن عليه الآن كتوابين ومستغفرين. إن التوبة لا يمكن أن تنشأ إلا من خلال الحياة المعيشية بذنوبها، فالشك في سلوكاتنا والندم على أفعالنا يلعبان دورًا أساسيًا في التعلم واكتساب المعرفة والتطور الشخصي الوجداني تجاه بناء التوازن العقدي والسلوكي، لقد لعبت ذنوبنا دورا مركزيا في تطوير وعينا وأكسبتنا معرفة ومهارات لتجنب الأسوء مع الناس والله، وبناء عليه، يكون قول رسول الله صلى الله عليه وسلم كما جاء في الصحيح عن أبي هريرة أن رسول الله ﷺ قال :"**احرص على ما ينفعك، واستعن بالله، ولا تعجز، وإن أصابك شيء فلا تقل: لو أني فعلت كان كذا، وكذا، ولكن قل: قدر الله، وما شاء فعل، فإن لو تفتح عمل الشيطان**".(أخرجه مسلم، وابن ماجه، وأحمد، والنسائي في (السنن الكبرى) باختلاف يسير). غاية في الدقة والعمق. إن (لو) تدمر الحاضر والمستقبل باستحضارها لعقد الماضي.

لكن السؤال الذي يمكن أن نطرحه هو كالتالي: هل يمكن لكل الناس أن تتوب؟

تأملات في أفعال

وحالات بشرية

ومصطلحات قرآنية

التأمل القرآني الأول: عبد الرحمان يسعى للدراسة والبحث وليس للأساطير

"وَالَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ لَمْ يَخِرُّوا عَلَيْهَا صُمًّا وَعُمْيَانًا"

(الآية 73سورة الفرقان).

يعتبر الوجود كله آيات يذكرك بها ربك الرحيم يا عبد الرحمن، آيات منظورة، مقروءة، مسموعة....فمن خصائص عبد الرحمن البحث في الآيات المشهودة المنظورة تجريبا، والملاحظة الدقيقة والحفر من أجل كشف الآيات، فعبد الرحمن يرى الوجود كما يقدم هذا الأخير نفسه له بدون أفكار سابقة، فما يتلقاه من الكتاب الحكيم هي فرضيات تحتاج أن يثبتها العقل والتجربة الإنسانية، إنها مفاتيح لا نعرف أبوابها ولا أقفالها حتى نقوم بتجربتها والبحث المستمر في حقيقتها، إذ الوسيلة هي الحواس والعقل، عبد الرحمن ليس أعمى، وليس أصما، بل مفكك للوجود إلى وحدات لكشف قوانين الله في الفكر، والإنسان، والطبيعة، ومن خصائص عبد الرحمن تملكه للعين الباحثة الفاحصة والأذن الصاغية والعقل المرجح، عبد الرحمن باحث عن آي الله في الموجودات بالنظر العقلي والحس التجريبي، وآي الله هي علامات، أمارات، قوانين، منطق، تاريخ...، فعبد الرحمن عبد للرحمن بعلم لأنه أدرك علل الأشياء، وقوانين الوجود، وذاق حلاوة ومشقة البحث أو النظر ووصل لدليل الله على نفسه: إنها آياته.

عبد الرحمن عندما يقرأ هذه الآية يري فيها دليلا على وجوب السعي للدراسة والبحث، وليست دليلا على الأساطير، "مَا كَانَ لِبَشَرٍ أَن يُؤْتِيَهُ ٱللَّهُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحُكْمَ وَٱلنُّبُوَّةَ ثُمَّ يَقُولَ لِلنَّاسِ كُونُواْ عِبَادًا لِّى مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَٰكِن كُونُواْ رَبَّٰنِيِّينَ بِمَا كُنتُمْ تُعَلِّمُونَ ٱلْكِتَٰبَ وَبِمَا كُنتُمْ تَدْرُسُونَ" **(الآية 79 سورة آل عمران)**. وقال تعالى: "وَكَذَٰلِكَ نُصَرِّفُ الآيات وَلِيَقُولُواْ دَرَسْتَ وَلِنُبَيِّنَهُ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ" **(الآية 105 سورة الأنعام)**؛ فما معنى بما كنتم تعلمون الكتاب؟ ما معنى بما كنتم تدرسون**؟ إنه التعليم، إنها الدراسة، إنها مجالات العلماء، مجالات الباحثين عن الحق، الذين أخلوا أنفسهم من غطرستها وحملوها على الدراسة من أجل الفهم،** وعندما تمر عليه هذه الآية : "**وَمَا ءَاتَيْنَٰهُم مِّن كُتُبٍ يَدْرُسُونَهَا وَمَا أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ قَبْلَكَ مِن نَّذِيرٍ** " **(الآية 44 سورة سبأ)**، فلا يفهم منها إلا أمرا مهما وهو **توجيه مباشر للبحث في الكتب السابقة دينية أو بشرية، وفي الحضارات السابقة، في الأنثروبولوجيا وتاريخ البشرية**، أما عندما تلامس عقله وقلبه هذه الآية:

"وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ" (الآية 45 سورة إبراهيم)، **فإنها تفتح أفقه على مصير حضارات سابقة، وتحثه على النظر في ثراتهم المعماري وبناياتهم وأشكال سكناهم وهندستها** "وَكَانُواْ يَنْحِتُونَ مِنَ ٱلْجِبَالِ بُيُوتًا ءَامِنِينَ" (الآية 82 سورة الحجر)؛ وإذا ما أضفنا مجموع الآيات التي تحث على البحث في مكونات الطبيعة سماء وأرضا وحيوانات وماء وبحار وجبال وحشرات والكلام والنطق والألوان والاختلافات...**تبين لكل ذي عقل راجح أن الإيمان إسلاميا عبارة عن عملية علمية بحثية في المعرفة الإنسانية والتاريخية واللاهوتية والطبيعية واللغوية تتغيا تصحيح الغباء الإيماني للناس**، حيث لا تقتصر عملية التصحيح هذه على تصحيح الغباء الاعتقادي فحسب، بل أيضا تتوجه إلى الغباء المعرفي باعتباره حاجزا يحول دون الوصول إلى الإيمان، مع ما يرتبط بذلك من إنفاق للمال والوقت والفكر والطاقة، والنظر الموجه في عملية البحث الوجودية، **فعباد الرحمن لا يجب أن يكونوا دراويش يمكن أن يضحك عليهم غيرهم، بل علماء بكيفية إيمانهم ومقتضياته، فالإيمان عند عباد الرحمن سيرورة من تطورونمو منسوب الثقة في الله بالرجوع إلى العلم العقلي والتجريبي اللذان يورثان الحكمة في الحكم على نتائج النظر**. أما الادعاء بعبثية الوجود ففيه تطوير مقصود للغباء النظري، أي الغباء الذي يشرعن للفوضى باعتبارها سببا لشيء منظم ومتسق، فأنى لعبثي أن ينتج فكرا منظما فما بالك بوجود متقن في مكوناته الكبرى والصغرى.

الرؤية الثاقبة لعباد الرحمن من كل الجنسيات تجعلهم يوميا في تفاعل مستمر مع الفرضيات التي تثقلهم بها عقولهم وقراءاتهم وحواسهم، كل حسب مستواه ينظر ويفكر ويقرر ويخطئ ويصيب ويعيد التفكير، ليست سلوكات المؤمنين سلوكات غريزية، بل مكتسبة بدافع الإيمان إن تقريرا له أو صراعا معه أو تثبيتا له أو تغييرا له. إن الالتزام الصارم بالأفكار الثابتة الجامدة في لحظات الإيمان الأولى أو حتى قبل الإيمان هو أحد أكثر أشكال الغباء المكتسب الذي يدعونا للتسليم بما نسمع أو نرى دون بذل الجهد. إنه ليس نقصا في القدرة التفكيرية، بل فشل في إعمال العقل والحواس، وتسليم عقولنا لغيرنا، **الله مات هكذا قال نيتشه، نيتشه مات هكذا قال الله. جاء نيتشه ووجد الله، وذهب نيتشه وبقي الله**. إن مناورة النفس لثنيها عن طرح الأسئلة الوجودية والاكتفاء بالأجوبة الجاهزة هو قتل لذكائنا وإعدام لمؤهلاتنا. ليس فقط من خلال

الإيمان الراسخ بعصمة الفرضيات التي أنتجها غيرنا، بل أيضا باعتباره مسلكا يشكل أخطر أشكال الغباء لأنه يرفض النظر في تناقض محتمل بين مقولات منتشرة ووقائع وأفكار مخالفة. إن الشك أو النفي عليه ألا يوصلك إلى يقين يدفعك إلى الحكم بأسطورية إيمان غيرك، **بل منطقيا لا يمكنه أن يوصلك إلا إلى شيء واحد ووحيد وهو أنك أنت لم تجد بعد إيمانك لم تعانقه بعد، لم تبلغه بعد، أما إيمان الآخرين وشكله فهيهات هيهات أن تنكر حقيقته وما يحسه أهله وما ينعمون به، لأن الإيمان قضية فردية وتجربة ذاتية مع المتعالي، تجربة لم تدخلها بعد حتى تحكم عليها.** وبناء على كل ذلك لا تستنكفوا أن تطرحوا أسئلة علمية دقيقة ولو كانت حول لغة النمل وطرق تواصلهم وقوانينهم، فرب المؤمنين يقول: **"حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَوۡاْ عَلَىٰ وَادِ ٱلنَّمۡلِ قَالَتۡ نَمۡلَةٞ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّمۡلُ ٱدۡخُلُواْ مَسَٰكِنَكُمۡ لَا يَحۡطِمَنَّكُمۡ سُلَيۡمَٰنُ وَجُنُودُهُۥ وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ" (الآية 18 سورة النمل)**، إن النمل هنا يتكلم فما طبيعة لغته؟ إن النمل هنا له قيادته، ما مقتضيات القيادة في عالم النمل؟ إن النمل هنا عرف سليمان فكيف عرفه؟ وما حدود معرفته بالإنسان؟ وهل نحن فقط من يعرف أم أن كل المخلوقات تعرف؟ **النص يكاد ينفجر من ثقله المعرفي وضخامة الأسئلة التي يستبطنها، والغباء الإيماني يتحدث عن الأساطير .**

التأمل القر آني الثاني: مصطلحات متلازمة في القرآن:

الاستكبار نموذجا

الاستكبار والاستهزاء والإجرام والخسارة الدنيوية والأخروية مصطلحات متلازمة في القرءان.

بينما أنا أتأمل في آيات كتاب الله لاحظت أن النسق المفاهيمي أو لنقل خريطة المصطلحات القرآنية تنتظم بشكل عجيب، فلقد بدا لي أن مفهوم الاستكبار مثلا يأتي غالبا مقترنا بمفاهيم الاستهزاء، أو الاجرام، أو الخسارة أو الهبوط أو الكفر أو بعض هذا أو كله. وكلها تحيل على أن هذه الرذيلة هي أصل كل المصائب التي يمكن أن تصيب الإنسان سواء في علاقته مع الناس أو مع الله.

كانت رذيلة الاستكبار سبب سخط الله على إبليس، وسخط الله على فرعون، وسخط الله على كثير من الأقوام الذين أذعنوا لكبريائهم وبالضبط لغطرسة وكبرياء كبرائهم.

فقد اجتاحت مشاعر الكبر والغطرسة إبليس فكانت النتيجة عكس ما يريد، فعوض تحقيق الكبرياء في الملكوت الأعلى وقع في الصغار والهبوط، كما قال الله سبحانه وتعالى: "قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ" **(الآية 13 سورة الأعراف).**

إن الكبرياء أو الغطرسة هي تقييم ذاتي لشخصية المرء أو قيمته أو قدراته معتقدا أنها أعلى بكثير من حقيقتها الواقعية، فإبليس اعتقد أنه أفضل من الإنسان، والحقيقة هي أنه أدنى منه لكنه لا يريد أن يسلم بهذه الحقيقة، وعليه، فإن كل من يقيم نفسه على أنه أفضل من الآخرين ولا يعترف بتميزهم عليه فيما يتقنونه ففيه شيء من إبليس ومتجه يقينا إلى الهبوط العاجل أو الآجل. وهناك خاصية أخرى مفادها أن المتكبر ينظر بازدراء واحتقار إلى غيره "قَالُوٓاْ أَنُؤۡمِنُ لَكَ وَٱتَّبَعَكَ ٱلۡأَرۡذَلُونَ" **(الآية 111 سورة الشعراء)**، وهذه الخاصية لا تتعلق فقط بدعوة الأنبياء بل تجدها في كل المؤسسات الاجتماعية، إذ تعج بالمتغطرسين استنادا على سلطة أو معرفة أو علاقات مظنونة غير حقيقية، فترى فيها متكبرين بالحسب والنسب والقرب من المسؤولين، ومتغطرسين بنوا

كبرياءهم على اعتقاد فاسد مرجوح مفاده أنهم علماء أو فاعلين لا يشق لهم غبار، تجدونهم في كل المجالات دون استثناء في الرياضة في السياسة في الاقتصاد...لكن انتهوا فليس كل مجتهد متغطرس، بل فقط ذاك الذي تتوفر فيه كل الخصائص المبثوثة في هذا التأمل.

ومن الناحية النفسية، تحيل غطرسة إبليس ومن حدا حدوه على أنه أحس بانعدام الأمن أو الخوف من فقدان مكانة هي في مخيلته من نصيبه، إذ أن هذا الإحساس مقرون بإحساس آخر أعمق هو الشعور بالدونية تجاه غيره ممن يمكن أن يكون متفوقا عليه، فإبليس يقينا أحس بالدونية، فلجأ إلى آلية التبخيس والتي تعتبر خاصية استكبارية بامتياز **" قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ " (الآية 12 سورة الأعراف)**، فالأشخاص الذين يعانون من عقدة الدونية يأتون بشكل خاص السلوكيات التي يعتبرها الآخرون متعجرفة. لأنهم يحاولون تعزيز احترامهم لذاتهم الداخلية بمثل هذه السلوكات، فتراهم في مختلف المؤسسات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية يهاجمون غيرهم وينتقصون منهم لا كرها فيهم بل تعويضا لنقص أصابهم في عمق شخصيتهم، ويؤلمهم أشد ما يكون الألم، فهم لا يتحملون أن يروا الآخرين ينجزون، إنهم يعيدون السلوك الإبليسي وينتجون أشكالا متنوعة من التحديات مثل ما أنتج إبليس تحدي إغواء آدم في الأرض ليبرز تفوقه عليه إرضاء لغرور يسكنه، وفي هذا الإطار سيبدع إبليس آليات وتقنيات متعددة للإغواء بل يتمادى في وصفها لرب العزة قائلا: **"ثُمَّ لَآتِيَنَّهُم مِّن بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ" (الآية 17 سورة الأعراف)**، فالمتعجرفون المستكبرون **يزداد احترامهم لأنفسهم باحتقار غيرهم إن بطريقة مباشرة أو غير مباشرة، فالآخر يسكنهم، لدرجة أنهم لا يفكرون إلا وهم يستحضرونه في كل شيء.** ويستبطن هذا الأمر لطيفة أخرى، وهي أن سجود الملائكة لآدم جعل إبليس يحس أنه بقي وحيدا لا ناصر له، كما أن أمر الله إليه بالسجود لآدم جعله يحس باستبعاده من دائرة التفوق مما أدى إلى عدم الرضا من جهة، والمرارة الناتجة عن ذلك من جهة أخرى، فواجه الوضعية بتطوير شعور الغطرسة لكنه شعور ناتج عن حسد، فأضحى بذلك الحسد محفزا لشعور الاستعلاء، ومعلوم أن كل متغطرس حاسد بامتياز. هكذا ترون أن الاستكبار يجر معه مفهوم الاحتقار، والاستهزاء ويوصل إلى ارتكاب الجرائم ضد نفس المستكبر، بل وضد كل من يعاشرونه. إن المستكبر دائما على حق ولو كان الله هو الذي يحاوره، هكذا تقول قصة إبليس، فلا يفتح عينيه ولا أذنيه ولا عقله ولا قلبه ليفهم، وحالهم يحكيه الذكر الحكيم قائلا **"وَإِنِّى كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوٓاْ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِمْ وَٱسْتَغْشَوْاْ ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّواْ وَٱسْتَكْبَرُواْ**

ٱسْتِكْبَارًا" (الآية 7 سورة نوح)،"سَأَصْرِفُ عَنْ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَإِن يَرَوْاْ كُلَّ ءَايَةٍ لَّا يُؤْمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلرُّشْدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا وَإِن يَرَوْاْ سَبِيلَ ٱلْغَىِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلًا ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنْهَا غَٰفِلِينَ" (الآية 146 سورة الأعراف).

ومن لطائف آيات الله أنه ذكر إحدى أهم خصائص المتغطرسين وهي عدم مراعاتهم ولا تسامحهم ولا تعاطفهم مع الضعفاء ولو كانوا من أتباعهم قال تعالى: **"قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ لِلَّذِينَ ٱسْتُضْعِفُواْ أَنَحْنُ صَدَدْنَٰكُمْ عَنِ ٱلْهُدَىٰ بَعْدَ إِذْ جَاءَكُم بَلْ كُنتُم مُّجْرِمِينَ" (الآية 32 سورة سبأ)** ويزيد الأمر عمقا ومرضا حتى في أحلك أوقاتهم في جهنم: **"وَإِذْ يَتَحَاجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُاْ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ" (الآية 47 سورة غافر)، فكان الجواب "قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُواْ إِنَّا كُلٌّ فِيهَآ إِنَّ ٱللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ ٱلْعِبَادِ" (الآية 48 سورة غافر).**

إن اعتراف المتغطرس بأخطائه ونقاط ضعفه يكاد يكون مستحيلا، فلا شيء يمنعه من الاعتراف أكبر من الاستكبار والاستعلاء المرضي الذي يؤثث جوانيته، فالمتغطرس مجرم في حق نفسه وحق الناس لكنه بحكم اضطراب الكبرياء الفارغ الذي يسكنه بعيد كل البعد عن إنتاج السلوكات الإنسانية سواء في عالم الملكوت أو العالم المنظور.

أراد إبليس أن يكون محور الخلق وبطله فاعتلى مرتقا صعبا أودى بمصيره من خلاله، وهذه الخاصية الإبليسية يتشربها كل متكبر. إن المتغطرسين يسعون دائما أن يكونوا محور المكان الذي يوجدون فيه سواء بإنتاج الأفعال الجيدة أو الخبيثة المهم هو أن تذكرهم الألسنة، ويتحدث عنهم الملكوت الأعلى والأدنى، وإبليس حقق له الله جزءا من أمنيته إمعانا في استدراجه، والمستكبرون في مجتمعاتنا يحققون كذلك جزءا من أمنيتهم هذه بأن يكونوا محور المكان الذي يتحركون فيه، لكنهم يفشلون بشكل مهلك ومهول في بناء علاقات مع الناس إذ أن الكل يكرههم ويهرب منهم تماما مثل ما وقع لإبليس إذ بقي وحيدا يبحث عن أشباهه من الإنس والجن، أما الذين يتحلقون حوله فغالبا ما يتركونه، والسبب هو كيفية اشتغال ميكانزم العجرفة في نفس المستكبر، إذ أن المتكبرين يضحون بعلاقاتهم في سبيل إشباع رغباتهم، فلا أصدقاء دائمين لديهم، بل هم حسب علم النفس فاشلون حتى في حبهم.

ومن خصائص المتعجرفين إرادة التحكم التي تسكنهم والتي تخلق لدى الآخرين سياقا سلبيا لا يتحملونه فينفضون من حولهم، هكذا يفقد المستكبرون حب الناس كما فقدها قدوتهم إبليس فيفقدون حب الله كما فقدها كبيرهم الذي علمهم الاستكبار..

وتجدر الإشارة أنه لا شيء أقوى وأصعب وقعا على المستكبر من وجود مخلوق آخر مختلف عنه، فالمختلف عنه يشكل خطرا بالنسبة إليه، وسيسعى المستكبر إلى تدميره ما استطاع إلى ذلك سبيلا، فإبليس رأى في آدم ذاك المختلف المخالف الذي يهدد وضعه الاعتباري حسب اعتقاده، فنصب نفسه عدوا له وسيبقى يحاربه إلى أن تقوم الساعة.

ولو أمعنا النظر في سلوك إبليس ومن تبعه من حواريه لوجدنا أن غطرستهم لها على الأقل ثلاثة أبعاد مركزية، غطرسة متجهة نحو تصورهم لأنفسهم برفعها، وغطرسة متجهة نحو تصورهم لغيرهم بخفضهم، وغطرسة متجهة نحو سلوكاتهم التي ستكون عدائية، لذلك قلنا بأن المصطلحات القرآنية تشكل نسقا متسقا يفكك نفسية المتكبر، إذ يذكر الاستكبار ويربطه بالاستهزاء والاحتقار والإجرام والخسارة الدنيوية والأخروية، فهي مصطلحات متلازمة في القرءان الكريم لا تصف أحداثا بعينها فقط بل تصف حالة نفسية إبليسية امتدت من الملكوت الأعلى إلى الملكوت الأدنى. وأعتقد أن أعلى درجات الاستكبار هو الجدال التحكمي وغير المبني في الإيمانيات، قال عز وجل: **"إِنَّ ٱلَّذِينَ يُجَٰدِلُونَ فِىٓ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ بِغَيْرِ سُلْطَٰنٍ أَتَىٰهُمْ إِن فِى صُدُورِهِمْ إِلَّا كِبْرٌ مَّا هُم بِبَٰلِغِيهِ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْبَصِيرُ" (الآية 56 سورة غافر).**

إن المصطلحات القرآنية ليست فقط لغة بلاغية، بل فيها بيان وإشارات معرفية يمكن توظيفها والبناء عليها خصوصا إذا انفتح الباحث على علوم مختلفة تضيء له طريق النظر. أما الكبرياء فقد حسم الله فيه في سورة الجاثية -الآية 37، إذ قال تعالى: "وَلَهُ الْكِبْرِيَاءُ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ".

الكبرياء لا يليق إلا بالكامل اما الناقصين فيصيبهم بالعته.

التأمل القرآني الثالث: التعامل بذكاء مع الزمن

يقول تعالى: "إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَأَقْوَمُ قِيلًا"

(الآية 6 سورة المزمل).

من لطائف التوجيهات الربانية للمؤمنين بدينه توجيههم إلى التعامل بذكاء مع الزمن، هذا الأخير وإن بدا أنه شيء واحد إلا أنه في حقيقته عبارة عن أزمنة متعددة متفاوتة الأهمية والنفع، ولن أقف عند كل الآيات التي وردت فيها إشارات بخصوص الزمن وبيداغوجيا التعامل معه، بل سأكتفي فقط بالآية الكريمة التي وضعتها كعنوان لهذا التأمل الأخير في هذا الشهر الكريم، **"إِنَّ نَاشِئَةَ اللَّيْلِ هِيَ أَشَدُّ وَطْئًا وَ أَقْوَمُ قِيلًا".**

بداية أود أن أشير إلى أن الله لا يريد منا أن نكون أهل ليل دائما، فسنته في خلقه قضت أن جعل الليل سباتا والنهار معاشا، لكنه يوجه انتباهنا إلى أن تكسير نمط العيش في التعامل مع الزمن له منافع كبرى وجب أن نتفطن إليها، إن الله لا يريدنا أن نقع في حب الليل باعتباره ليلا، بل في الامكانات التي يتيحها هذا الزمن الذي يرتبط بالظلام والهدوء، إنها لحظات تتيح لنا إمكانية التركيز والإبداع، وتطوير رؤى غير مسبوقة في مجالات اهتمامنا سواء تعلق الأمر بالعمل أو العلم أو العبادة، فناشئة الليل أي ساعاته هي أشد وطئا أي أقرب إلى تحصيل المقصود من العمل الليلي إن عبادة أو تفكرا أو عملا، هناك دراسات تتحدث عن ارتفاع معدل الذكاء عند بعض الناس ليلا، لكن انتبهوا الأمر لا يتعلق بدوام الاستيقاظ ليلا بل فقط بلحظات أو أيام نبرمجها، وتضبطها آية أخرى غاية في العمق والدقة والحرية والاختيار كما قال تعالى في سورة المزمل: **"يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (1) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (2) نِصْفَهُ أَوِ انْقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (3) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا (4)"**، ولا أعتقد أن الأمر يمكن أن يكون مختَلَفا فيه إذا ما استحضرنا أن المقصود هو آخر الليل أي ساعة أو ساعتين قبل الفجر وفي لحظات أخرى يمكن أن يكون أكثر أو أقل .

إن ظلام الليل يصدر عنه نور نفسي وفكري وعمق تعبدي عظيم، فلحظات الليل تعلمنا معرفة ظلام أنفسنا، وبمثل هذه المعرفة نستطيع التعامل مع ظلام الآخرين، إنها لحظات هادئات كثيفة التركيز، إذ أن القيام ليلا والتأمل في الظلام أو في العلم أو في الناس يجعلنا ندرك أهمية الضوء أو النور وجماليته بإدراك فظاعة الظلام سواء في الوجود الواقعي أو في عالم المال أو الأفكار أو الأفعال. والنور الذي يميز الإنسان عن غيره ليس الذي يأتيه من الخارج بلباس أنيق أو شكر زائف أو تمجيد زائل أو ضوء مسلط، بل فقط النور الذي ينبعث من الذوات فينير مجالك

المحيط بك، التأمل ليلا ينظف نفسيتك وأفكارك وأفعالك لأن كل ذلك إما أن يكون مظلما أو منيرا، حتى أنك مثل الفانوس عبارة عن زجاجة تعكس ما بداخلها من نور أو ظلام أو دخان. إن ناشئة الليل تنظف هذا الزجاج وتوقظ جذوة فتيل النور، إن ناشئة الليل كذلك أقوم قيلا، لأنها توصلك إلى القول الجميل المسدد المضبوط بتأمل هادئ يبعد عنك رذائل الكراهية ويقربك من محبة الله ومحبة الناس ومحبة الحقيقة، فخلوتك الليلية أبعدتك عن ضغط الناس وضيق الجماعة وإزعاج الأصوات ، وضجيج الحياة، يسير بك الليل إلى معانقة الإيثار الخلاق ويبعد عنك الأنانية المظلمة خصوصا إذا كان مرتبطا بالله والتأمل في ملكوته ومخلوقاته ومن ضمنها أنت، ظلام الليل طريقك للخلاص من ظلام نفسك، لكن انتبه فكما أن الظلام يوحي بالعتمة والخوف فإنه لحظات سلام وهدوء وأمن داخلي، ومن لطائف الليل أنه جزء من الزمن الذي نعيش، لذلك فإذا لم نصادف لحظات عبقريتنا في النهار وجب أن نحاول معها عسى أن نصادفها في الليل، لا نعلم بالضبط متى سيعانق الواحد منا لحظات إبداعاته، لذلك فاللحظات الليلية هي جزء آخر من عمرنا علينا أن نستثمره عسى أن يكون رافعتنا الإبداعية، وألا نخصصه فقط للنوم. إن الأفكار التجديدية يمكن أن تهاجمنا في لحظات متباينة من أعمارنا أو أزمنتنا خاصة في الحالات التي نحس فيها بالراحة أو الهدوء وخاصة في الليل، ولا تستغربوا أن بعض الأفكار العميقة قد تخطر على بالكم وأنتم تمشون أو تستحمون أو وأنتم جالسون في مقهى تتأملون تفاعلات الشارع، بل ربما خطرت على بالك فكرة عميقة وأنت تريد الخلود إلى النوم بعد أن أطفأت الأضواء وانغمست بكليتك في نفسك إلى درجة لا تحس معها ولا فيها بأن هناك من يسكن معك في البيت أو ينام بجانبك، لليل قوة جذابة نحو التركيز، إن ناشئة الليل تكسر الأعراف الثقافية الاجتماعية التي جعلت الحياة روتينا مملا إذ يتبع الغالبية منا عادات تنبني على شروق وغروب الشمس. وندخل في دوامة النوم ليلا والاستيقاظ صباحا والذهاب إلى العمل حتى أضحى هذا الروتين قاتلا للإبداع، فنذهب إلى العمل لفعل نفس ما كنا نفعل، لكن ناشئة الليل تقول لك كسر هذا الروتين عسى أن تُخرج في لحظات الليل أجمل ما فيك لعملك أو لعلمك أو لعبادتك أو لتجارتك...نعم إن لإبداعاتنا علاقة وطيدة بكيفية إدارة طاقتنا واستغلالها في أوجها في مختلف أزمنة أعمارنا، وليس بالضبط في وقت معين وبروتين جامد قاتل، لذلك فتغيير الوقت من حين لآخر، ونقل لحظات التركيز من زمن إلى زمن هو نوع من الإدارة البراغماتية القوية لطاقتنا المحدودة. وعليه، وبما أن كل واحد منا يعيش ظروفه الخاصة وفي سياق معين، وبالتالي يفكر بشكل مختلف، فليس عليه أن يقلد فلان أو

علان، بل فقط أن يعمل على استغلال ناشئة الليل كما استثمر ساعات النهار. وشخصيا لا أستبعد أن تفاجئنا أبحاث الدماغ بنتائج علمية يوما ما تؤكد أهمية ناشئة الليل، وسيكون ذلك فتحا آخر من فتوحات هذا الدين. وشخصيا فإن كل لحظات التأمل التي اكتبها لكم أيها الأصدقاء لناشئة الليل النصيب الأوفر من فتوحاتها.

التأمل القرآني الرابع: التعصب داء البشرية

يحكي الذكر الحكيم عن أنواع متعددة من التعصب الأعمى لدرجة أن قارئ القرآن قد يعتقد أن الرسالة الإسلامية ما جاءت إلا لتحارب التعصب وتتم مكارم الأخلاق، لكن أهلها أنتجوا هم أيضا تعصبا مثل غيرهم من الأقوام، فقاتلوا غيرهم، واقتتلوا فيما بينهم حتى أنه يمكنك أن تطور فرضية تستحق البحث ومفادها: هل التصورات العقدية والفلسفات والأيديولوجيات مشتل لإنبات التعصب؟ وهل الإسلام رسالة تنتج التعصب؟

والتعصب الذي يحكي عنه التنزيل الحكيم أنواع ومستويات، بدءا بتعصب قابيل الناتج عن حسد لأخيه، وحسده هذا كان مبنيا على ما حظي به هابيل من قرب إلى الله ناتج عن تقوى داخلية وافقتها سلوكات عملية على أرض الواقع، وهو تعصب فردي لا جماعي، وإذا كان التعصب ينطوي على عدم التسامح والعدوانية فإن مضمونه كان في التاريخ الأول للإنسانية مع هابيل وقابيل مدفوعا بالحسد والبغض اللذان أنتجا بشرا يؤله رأيه وأفعاله ومسالكه وإن خالفت في شكلها وغايتها ومآلها قيم الإنسانية، وأدت إلى قتل المختلف عنه وهو أخوه بغاية إخفاء أفضليته والسطو على مقدراته، فقد كان وجود الصلاح بجانب الفساد جد مزعج سيكولوجيا بالنسبة لقابيل إلى درجة أنه هز توازن النفس وأوردها المهالك، إن هذا التعصب لمسلك عيش رديء مبني على الحسد والبغض كان قادرا على رفع منسوب الاضطراب في النفس مما حملها على قتل أفضل الناس وأقرب الناس إليها ، وعليه، لا نستغرب أن يسعى متعصب إلى محو مخالفه من الوجود، والانتشاء بفعله الشنيع، وما أكثر المضطربين والحساد وضعاف النفوس الذين لو سيطروا قتلوا وخربوا نظرا لتمكن عقد الضعف منهم تمكنا لا تمكن بعده، وقد يكونون أقرباء، أو أصدقاء، أو معارف أو تلاميذ أو طلبة أو زملاء ك في العمل أو جيران أو معجبين... فمن لم يستطع منهم قتلك ماديا سعى بكل الوسائل إلى القضاء عليك معنويا، لنسمي هذا التعصب الأول في الوجود بتعصب خيرية وأفضلية، مقابل فساد ودونية. والعقيدة التي تحكمت في جريمة المتعصب الأول كانت عقيدة الأنانية المبنية على عقدة النقص ومضمونها: حب النفس وعشق التملك. وبناء عليه، يكون جوهر التعصب الفردي سيكولوجيا هو الاستيلاء على معتقدات متشددة ومتحمسة للغاية وغير متسامحة، والتي تخترق جوهر الهوية، منتجة سلوكات ليس فيها أي استعداد للانخراط في الحوار والتوفيق كما حدث مع ابني آدم عليه السلام.

ولو انطلقنا من التعصب الفردي إلى التعصب الجماعي، لوجدنا أن كل قصص القرآن تدور حوله، فقد تعصب قوم نوح لمعتقداتهم على فسادها.ولم يعملوا عقلهم فيها، بل حاربوا نوحا ومن تبعه رغم أنهم قليل، إن التعصب الجماعي له وصل مباشر بالتعصب الفردي، وإن كان يختلف في ماهيته ومجال سيرانه عنه، فهو أيضا قد يتأسس على الخرافات والأوهام التي هي عند صاحبها حقائق، ويكون متجليا في الواقع تجلي الهذيان أثناء الإصابة بالحمى ، يقوده في الجمع أو الجماعة أولئك الذين ينتشون بالظهور أمام الناس، وأولئك الذين يأخذون صور الحلم من أجل تنزيلها في الواقع، أولئك الذين يتحمسون لنبوءاتهم أيا كانت ويعتقدون في صوابها ، أولئك الذين ينفذون جنونهم من خلال القتل والإبادة المادية والمعنوية. كل هذه الصفات لازمت أقوام نوح، ولوط، وشعيب، وموسى وعيسى ومحمد عليهم جميعا أفضل الصلاة والسلام، بل ظهرت في كل الدول والمجتمعات القريبة والبعيدة منها، وتأسست تعصباتها على خلفيات دينية، أو سياسية، أو لغوية، أو عرقية أو اقتصادية.

لكن الأمر في الجماعات الكبرى والصغرى يقتضي وجود ديماغوجيين متعصبين يعانون من متلازمة النرجسية الخبيثة مع البرود الخارق تجاه أحاسيس المخالفين، كما أن لديهم حساسية عجيبة بل كره لكل من يشتمون فيه روح الإرادة والتفكير المستقل، هؤلاء يأخذون المبادرة بأنفسهم وسط الجمع السلبي الذي يحيط بهم ويعطيهم مشروعية يستمدون منها شعورًا منحرفًا بالقوة خصوصا وأن لديهم القدرة على التلاعب بالمخاوف الجماعية الهوياتية، وإذا سادوا وحكموا وتحكموا سيخرجون سادِيتَهم إلى الوجود، فكل أعداء الأنبياء قتلوا وصلبوا وأحرقوا وأغرقوا...المخالفين تحت قيادة معتوهين سيكولوجيا، وهؤلاء بالضبط هم من كانوا يحتاجون إلى معانقة الأديان الجديدة لتساعدهم على تهذيب نفوسهم. ورغم كونهم مضطربين إلا أنهم موهوبون أمثال أدولف هتلر، موسوليني أو ستالين.... وكثير منهم في عالمنا العربي الإسلامي الأمازيغي وغيره من العوالم، منهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر، أما على مستوى المؤسسات الاجتماعية والسياسية والاقتصادية فتجدهم منتشرين في بعضها انتشار الوباء.

إن النهج التبشيري بالخلاص، أو الانعتاق، أو التقدم، أو الضبط.... الذي يسلكه هؤلاء هو سلاح إقناع الآخرين بالأهداف المثالية الحماسية التبشيرية التي يعتنقونها، وفي هذا الإطار لا يترك هؤلاء أي شك يتسرب إلى صحة معتقداتهم وقيمتها وأهميتها الخاصة والعامة، وينهجون مسلكا خبيثا في تدجين الجمع أو الجماعة التابعة لهم، ويتجلى في إخفاء العواقب السلبية الناتجة

عن تفكيرهم وفعلهم على الجماعة والأفراد والمؤسسات وحتى الدولة، والسبب هو أن نجاحهم وفشلهم متعلق وجودا وعدما بوجود الجمهور من جهة، وغياب التفكير الناقد من جهة ثانية، وشعور الجماعة التي يقودون بتهديد ما من جهة ثالثة مما يجعلها تلتف حولهم، حتى أنك ترى في كل قصص القرآن تكرار سؤال الأنبياء المستمر: (أفلا تعقلون)، أي أفلا تُعملون عقولكم، وفي الأخير تكون النتيجة، **"فَٱسْتَخَفَّ قَوْمَهُۥ فَأَطَاعُوهُ" (الآية 54 سورة الزخرف)**، ولا يستبعد أن يعتقد المتعصب الأعمى في ذكائه الخارق وبلادة غيره، مما يجعله دائما يسيء تقدير حسابات النجاح والفشل، ويستمر في الاستخفاف الواعي أو غير الواعي بقدرات غيره ومصير جماعته. ولنا في التاريخ آيات في كل أشكال التعصب المبني على ما هو ديني، أو سياسي، أو لغوي، أو عرقي، أو اقتصادي... المصير كان واحدا، هو السراب والخراب، لأن النهج كان متشابها حد التطابق إلا في الخلفيات.

ولا نستغرب إن وجدنا التعصب قد وجد له مجالات جديدة يصرف فيها نفسه بأريحية من مثل التعصب لفريق رياضي، أو لمغني مشهور، أو للاعب كرة القدم، أو لشيخ، أو لممثل، أو حتى لحيوان، أو البيئة، أو الشواذ، أو معارضي الإجهاض، أو التداوي بالأعشاب، أو الرقية الشرعية...أو الجنس أو النسوية (الفيمينيزم)، حتى أن المتعصب المتصلب يهدد بالانتحار أو الرضوخ إليه، فهو حتى في حالة ضعفه يمارس الضغط، فما بالك إن تملك القوة والمنعة والسلطة. إنها سيرورة سيكولوجية تبدأ في دواخل هؤلاء بإعجاب إلى انخراط ثم إلى تعصب وتصلب. ورغم أن هذه المجالات تبدو بعيدة عن التعصب لأنها ظاهريا تفتقد للمحرك الأساسي للتصلب الأصولي وهو الإحساس بتهديد الهوية العقدية أو غيرها من الهويات، فإنني أعتقد أن الأمر هنا متعلق بمدى قدرتنا على تفكيك المعتقد إلى عناصر نسقية تُكَون مقولة الهوية في حالة اجتماعها، ولذلك فإن تعصب البعض لقضايا فرعية يعني أنه أنزلها في دواخله منزلة أعمق وأصبحت هي المعتقد العميق والرئيس، فلا شيء يعلو فوقها، لذلك يمكن أن نتحدث عن ديانات ومعتقدات جديدة ومعاصرة تبدو في ظاهرها قضايا سياسية أو اقتصادية أو اجتماعية فرعية، لكنها عند المؤمن بها أعمق بكثير مما نعتقد. وقد يغدو مثل هذا الإيمان العقدي عند صاحبه مسألة حياة أو موت. فلا يقدم تجاهه أية تنازلات، ويتجلى فيه الخير والصواب المطلق وفي غيره الخطأ والشر المطلق، وعليه وجبت محاربة هذا الشر الذي قد يكون عند غيره خيرا، انظروا إلى

قول فرعون: **" وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ" (الآية 26 سورة غافر)**. إن تعصبه الاستبدادي جعله يرى الفساد صلاحا، وانظروا إلى التعصب العقدي ذي البعد الجنسي مع قوم لوط: **"فَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِ ۔ إِلَّا أَن قَالُواْ أَخْرِجُواْ ءَالَ لُوطٍ مِّن قَرْيَتِكُمْ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ" (الآية 56 سورة النمل)**، فقد انقلبت معه القيم الإنسانية رأسا على عقب. إن قوم لوط وموسى وشعيب ونوح... كلهم كانوا عند أنفسهم يحاربون الشر وبكل الوسائل، ويسعون إلى كسب الخير كما يرونه، ولا تصبح الحياة عندهم حياة كريمة، بل ومتخلقة إلا بالقضاء على ما يعتقدون أنه شر. إنها مهمة مقدسة وعالية أن يقضي المتعصب على المخالف وينهي وجوده ليسعد بتحقيق هلوساته التي هي عنده غاية في النبل. بهذا النهج التعصبي المريض يتم اختزال الخير فيما يعتقده المتعصب خيرا وعدلا، وتتلاشى كل القيم الإنسانية والدينية الداعية للحوار والتسامح والعدل، إن الأنا الأعلى عند المتعصب انصهرت بالتمام والكمال مع أناها النرجسية المرضية. إنه التأله بتعبيرنا لأن المتعصب هو المنتج للقيم والحاكم الذي لا يناقش حكمه. لكن لا تتعجبوا، فما يقوم به تجاه قضيته يعد أمرا مثاليا عند أتباعه وغاليا وعزيزا ونبيلا، إنها مثالية ونبل وهميان وظاهريان، لكن النوايا العميقة والحقيقية هي التدمير والكراهية والتأله. إن مثل هذه الشخصيات المتعصبة لم تترك فلسفة ولا دينا ولا فكرة نبيلة إلا ووظفتها ودنستها بأمراضها النفسية وسطت عليها جملة وتفصيلا، فاختزلت الأديان في الجهاد بالقتل في الحروب الصليبية وفي "داعش" وفي الحركات الإرهابية...، وقتل الناس باسم الاشتراكية والشيوعية، ونظمت حملات إبادة في أفريقيا وأروبا وأمريكا باسم اللغة، وتم استعمار دول ونهبها باسم الديمقراطية وحقوق الإنسان....اللائحة طويلة من منجزات المتعصبين المعتوهين الذين إن سيطروا دمروا، ولقد سبق أن قلت أن المتطرف يميل في تعامله إلى الغلظة و الخشونة في التعاطي مع المخالف، إن المتعصب متطرف، وهو قصة إنسان مضطرب نفسيا تأله وتربب، لكنه عند نفسه حامل مشروع نجاة لوطنه والمواطنين بل ربما للإنسانية.

إن العلاج لوباء التعصب لن يكون إلا بالتنوير، الذي نوظف فيه الحوار، ونقابل فيه المخالف ونناقش أفكاره وجها لوجه دون وسائط، إن التنوير علاج معرفي نعمل من خلاله على الكشف عن الأسباب الرئيسية لاضطرابات الإنسان الانفعالية والسلوكية والتي بالأساس ترجع إلى أفكاره الخاطئة حول مجالات تعصبه، فالتطرف والتعصب نتاج لعمليات التفكير اللاعقلانية اللاتكيفية، والأسلوب الأمثل للتخلص منها يكمن في تعديل تلك العمليات العقلية المعرفية ذاتها،

لذلك أقول دائما أنه كما أننا نختار لبطوننا أجود الأطعمة فعلينا أن نحتار لعقولنا أجود الأفكار، و أن ننتبه فقد نكون مضطربين و لكن تحول أفكارنا بيننا و بين إدراك اضطراباتنا. إنني أعتقد أن التنوير يخترق التعصب لأن هذا الأخير ظلام نفس يائسة وبائسة وعند نفسها مناضلة أو مجدة أو غير ذلك، والسبيل لدفع المتعصب للقيام بمراجعات هو التنوير المباشر بالمناظرة الهادئة في خلوات الطبيعة وتحت أسقف المكتبات، وبين خرير المياه ... بعيدا عن سلطة الجمع والجماعة، المتعصب ضعيف إذا كان لوحده لكنه يتقوى في وجود طائفته، ومن خصائصه أنه لا يتحمل التواجد في مكان يختلف الناس معه فيه. وإذا كنت في مكان سيطر عليه المتعصبون فاهرب منه وانتظر حتى يصبح الجو ملائما للحوار ثم ارجع، فالفلسفة والدين والأفكار الإيجابية والقوانين كلها تفقد تأثيرها وقوتها في الأمكنة التي يسيطر عليها المتعصبون، لأنهم هم المشرعون، ولا تشريع يفوق تشريعاتهم. حفظنا الله من التعصب أيا كان أصله.

التأمل القرآني الخامس: حالة الشقين أو بين الشك واليقين

يوجد بين ما نعتقد أنه وهم وما نعتقد أنه حقيقة خيط دقيق لا نعرف لا طوله ولا سمكه ولا لونه رغم كونه دقيقا، فقد نقف مندهشين في كثير من الأحيان أمام ذكائنا وفي أحيان أخرى أمام بلادتنا، ونشك في أنفسنا وفي قدراتنا، وبذلك في كل أشكال اليقين التي راكمناها في اعتقادنا، فينقلب يقيننا إلى ظن لا يغني النفس بجماع مكوناتها، ولا يفي بالغرض لإتيان السلوكات المطمئنة لنا، وسرعان ما ننسى شكنا وننقلب إلى يقين رخو شبيه بالشك، وشك سميك مليء باليقين، ونحس أننا لسنا نحن ونحن ليست نحن، فيصيبنا الذهول، نظرا لكثرة وتتابع واستمرار أخطائنا، فنصيب شكنا باليقين ونصيب يقيننا بالشك، فيتطور بداخلنا إحساس مهتز يتراوح بين شك ويقين أو لنقل نطور حالة وجودية نسميها (الشقين) وهي مركبة من الشك واليقين ، وما يرتبط بهما من شقاء وشقاوة. وقد يكون لأهل اللغة كلام آخر وتعاليق مختلفة، لكن (الشقين) أراها حالة الاضطراب الدائمة بين اليقين والشك وما يتولد عنها من شقاء وما يحملانه من شقاوة.

إننا ما أن نطور رؤية معينة لشيء ما، لقضية ما، وننتشي بها حتى نراها بعد لحظات تتصدع أمامنا، بل ربما من طرفنا، بل نرى أن رؤانا السابقة تناقض رؤانا اللاحقة، وتتحول تبعا لذلك حالة (الشقين) تمددا وعمقا وسمكا في وجودنا حتى أننا نكاد نزعم أنها هي الحقيقة الوجودية الثابتة وما دونها هو فقط انتقال بين مراتبها ومستوياتها. نحس، بل نقف مندهشين أمام خداع حواسنا لنا، وتناقض أنفسنا، بل وخداع غيرنا لنا، ونخادع أنفسنا ونقنعها بصواب خداعنا لها ونؤصله لها حتى تنتقل في مراتب شقاء حالة (الشقين). تلامسنا هذه الوضعية في حياتنا الخاصة والعامة، ونسائل أنفسنا هل ننخدع لأنفسنا أم تخدعنا أم أننا أصلا لا نملك سلطة عليها فتفعل بنا ما تشاء وكيفما تشاء؟ فيظهر مرة أخرى جانب الصدق والجمال الذي يسكننا وينتقل بنا إلى مستويات أكثر هدوءا واستقرارا فننعتق مرحليا من دوامة المستويات العليا من (الشقين) لكن لا نخرج منها. نراقب باندهاش وتعجب انتقالاتنا النفسية بين الخداع وألوانه، والتناقض وأشكاله، ونتعجب من قدرة نفوسنا على التكيف والعيش بسلام وأمان بين التناقضات، بل وقدرتها على تبرير تناقضاتها، بل وتبرير وشرعنة تفاهاتها، فنؤدي أدوارا متناقضة، ونفكر بأفكار متعارضة، ونطور عواطف متناقضة تجاه الذات والآخر والوجود بكل تجلياته. نحن كائنات عجيبة وإمكاناتها خارقة في القدرة على معانقة الأشياء وأضدادها. إننا نعتقد أننا نعرف أنفسنا ونفهمها

فإذا بنا نكتشف أننا لا نعرفها، بل تفاجئنا بأفكار وسلوكات وعواطف كنا نظن أننا بعيدون عنها، بل لا يمكن حتى أن نستحضر وجودها، يخدعنا ببساطة اعتقاد الثبات وننسى مسلمة التطور في هويتنا. يستبطن ذلك كله قدرتنا على تجنب مواجهة الحقيقة كما هي، ونسعى دوما إلى تغليفها بما يناسب السائد حتى نجنب أنفسنا أحاسيس الألم والذنب، إنه سعي نحو الحفاظ الدائم على الاتساق والتوازن ولو على حساب الحقيقة، بل هل هناك حقيقة يمكن أن نتوقف عند حدودها ونلتزم بمقتضياتها؟ مخلصون نحن لتقلباتنا، ومستعدون، بل ونميل إلى إنكار التناقضات بين أفعالنا وصورتنا الذاتية والتغاضي عنها وعن انتظارات الناس منا. نخفي أوهامنا على أنفسنا بأنفسنا لتبدو لنا أنفسنا نسقا متسقا منظما للحفاظ على توازننا. لا نستطيع في كثير من الأحيان التنبؤ بما سيصدر عنا من أفكار وأفعال بعد ساعة أو يوم أو أيام، لكننا نعتقد يقينا أننا نعرف كل ذلك حتى نكتشف في أول امتحان بعد ساعة أننا تصرفنا وتكلمنا على غير ما كنا نريد. فنطور إحساسا بأنا ما كنا نعتقد أنه معرفة لا يعدو أن يكون وهما، أو ظنا. هل يعني هذا أن تجربتنا ومعرفنا ومعتقداتنا السابقة عاجزة عن أن تسعفنا في التعامل مع كل جديد وجودي لم يكن متاحا؟ ألا تخدعنا مؤسسات المعرفة عندما نطور بواسطتها ومن خلال برامجها اعتقاد بالمعرفة، لا يلبث أن يتصدع أمامنا؟

- ✓ لماذا نخطئ إذن حتى مع أنفسنا؟
- ✓ هل يتعلق الأمر بمشاكل الإدراك الحسي؟ أم بالمخزون المعرفي والسلوكي الذي لا يوائم التغيرات؟ أو بسبب عدم موثوقية الذاكرة ونسيانها أو خمولها أو عدم قدرتها على استحضار ما يسعفنا في لحظات حاجاتنا له في وضعياتنا المعيشية؟
- ✓ أم لأن المستقبل يسكننا لدرجة أنه يعمي بصيرتنا فلا نتنبأ به على وجهه الصحيح؟
- ✓ أم أننا كائنات في ماهيتها الأنثروبولوجية ضعيفة ومركبة ومزدوجة حد التناقض؟

فهرس الآيات والأحاديث

فهرس الآيات

1

1

الآيات 105-106-107-108-109-110-111سورة المؤمنون 156

الآيات 1-2-3-4سورة المزمل 173

الآيات 23-24 سورة الاسراء 46

الآيات 23-24-25-26-27سورة غافر 13

الآيات 26-27 سورة الإسراء 48

الآيات 45- 46سورة طه 19

الآيات 76- 78سورة القصص 53

الآية 1 سورة الأعلى 90

الآية 10 سورة طه 75

الآية 10 من سورة القصص 35

الآية 101 سورة الأنعام 69

الآية 102 من سورة الاسراء 24

الآية 104 سورة الكهف 78

الآية 105 سورة الأنعام 166

الآية 107 من سورة الأنبياء 22

الآية 11 من سورة القصصالآية 11 من سورة القصص 35

الآية 111 سورة الشعراء 169

الآية 12 سورة النمل 137

الآية 12 من سورة القصص 35

الآية 13 سورة الأعراف 169

الآية 13 سورة الحجرات 136

الآية 138 من سورة الأعراف 10

الآية 14 سورة طه 73

الآية 143 من سورة الأعراف 27

الآية 144 من سورة الأعراف 23

الآية 146 سورة الأعراف 130, 152, 153, 171
الآية 15 من سورة المطففين 72
الآية 155 من سورة الأعراف 26
الآية 159 سورة الصافات 69
الآية 16 سورة الاسراء 52
الآية 16 سورة الرعد 73
الآية 16 سورة النمل 86
الآية 17 سورة الاحقاف 58
الآية 17 سورة الأعراف 170
الآية 17 سورة الحج 134
الآية 17 سورة الرعد 142
الآية 171 سورة البقرة 99
الآية 177 سورة البقرة 154
الآية 179 سورة الأعراف 96
الآية 18 سورة النمل 168
الآية 18 من سورة القصص 19
الآية 186 سورة البقرة 66
الآية 19 سورة الأعراف 82
الآية 20 الفجر 54
الآية 20 سورة الأعراف 83
الآية 20 سورة الليل 90
الآية 21 سورة الطور 60
الآية 21 سورة الفرقان 94, 128, 130
الآية 21 سورة فصلت 137
الآية 21 من سورة طه 19
الآية 22 سورة الأنفال 99
الآية 22 سورة النحل 131, 153
الآية 23 سورة الاسراء 58, 59
الآية 23 سورة الأعراف 61
الآية 23 سورة الأنبياء 73

الآية 23 سورة الزمر 158, 160
الآية 23 سورة القصص 38
الآية 23سورة الذاريات 137
الآية 23سورةالذاريات 138
الآية 24 سورة النمل 99
الآية 25 سورة الإسراء 47
الآية 255 سورة البقرة 77
الآية 26 سورة الاسراء 50, 52
الآية 26 سورة غافر 179
الآية 26 من سورة غافر 18, 21
الآية 27 من سورة غافر 24
الآية 28 الإسراء 50
الآية 28 سورة فاطر 150
الآية 29 سورة الإسراء 53, 54
الآية 29 سورة الجاثية 137, 139
الآية 29 سورة الحجر 72
الآية 29 سورة القصص 44
الآية 29 سورة غافر 100
الآية 3 سورة النجم 138
الآية 3 من سورة القصص 26
الآية 31 سورة الاسراء 52
الآية 31 من سورة القصص 27
الآية 31 من سورة المائدة 8
الآية 31 من سورة المائدة.(8
الآية 32 سورة سبأ 171
الآية 34 سورة فصلت 104
الآية 34 من سورة القصص 28
الآية 35 سورة البقرة 82
الآية 35 سورة المرسلات 137
الآية 35 سورة النور 74

الآية 35 سورة غافر 152
الآية 35 سورة فصلت 107
الآية 36 سورة النساء 58
الآية 38 سورة الأعراف 102
الآية 38 سورة الأنعام 87
الآية 38 من سورة القصص 18
الآية 4 سورة الرعد 141
الآية 40 سورة الأعراف 129
الآية 41 سورة الفرقان 128
الآية 44 سورة سبأ 166
الآية 46 سورة إبراهيم 102
الآية 46 سورة الحج 76
الآية 47 سورة غافر 171
الآية 50من سورة النمل 32
الآية 53 سورة الزمر 161
الآية 53 سورة يوسف 61
الآية 56 سورة النمل 179
الآية 56 سورة غافر 172
الآية 6 سورة المزمل 173
الآية 62 سورة البقرة 134
الآية 62 سورة المؤمنون 137
الآية 63 سورة الأنبياء 137
الآية 64 سورة الفرقان 114, 116
الآية 65 سورة الأنبياء 137
الآية 66 سورة الفرقان 121
الآية 67 سورة الأحزاب 101
الآية 67 سورة الفرقان 122
الآية 7 سورة الفرقان 125
الآية 7 سورة نوح 130
الآية 7 من سورة القصص 32

الآية 70 سورة الفرقان 161, 162
الآية 70 سورة النحل 59
الآية 73 سورة الفرقان 166
الآية 8 سورة التحريم 75
الآية 8 من سورة الحج 79
الآية 82 سورة الحجر 167
الآية 83 من سورة يونس 16
الآية 85 سورة النمل 137
الآية 9 سورة العنكبوت 92
الآية 9 من سورة القصص 32
الآية 90 سورة يونس 62
الآية 97 سورة يوسف 62
الآية21 سورة فصلت 139
الآية63 سورة الفرقان 112
الآية79 سورة آل عمران 166
الآية92 سورة الصافات 137
جزء من الآية 39 من سورة طه 32
من الآية 11 سورة الشورى 68
من الآية 12 سورة الأعراف 170
من الآية 13 سورة البقرة 152
من الآية 133 سورة الأعراف 130
من الآية 143 سورة الأعراف 66
من الآية 143 سورة البقرة 55
من الآية 144 سورة البقرة 90
من الآية 177 سورة البقرة 54
من الآية 22 سورة إبراهيم 101
من الآية 24 سورة القصص 44
من الآية 282 سورة البقرة 148, 149
من الآية 30 سورة الأنبياء 140
من الآية 30 سورة البقرة 139

من الآية 33 سورة البقرة	139
من الآية 33 سورة سبأ	101
من الآية 34 سورة فصلت	104
من الآية 39 سورة القصص	42
من الآية 39 سورة طه	38
من الآية 39 من سورة طه	34, 35, 36
من الآية 7 من سورة القصص	36
من الآية 8 من سورة الحج	80
من الآية 83 سورة البقرة	58
//الآية 146 سورة الأعراف	***152***
الآية96 سورة مريم	150

فهرس الأحاديث

أخرجه مسلم، وابن ماجه، وأحمد، والنسائي في (السنن الكبرى) باختلاف يسير 161